إقناتيوس بالمه

Ignatius Pallme

رحلاتٌ في كُرْدُفان
(1837 . 1839م)



ترجمة

أرباب موسى بخيت

المصورات



2019

إقناتيوس بالمه كاتبٌ ذو أصول مِن بوهيميا بالميلاد [في جمهورية التشيك حالياً]، وقد عزم على القيام برحلة إلى كردفان؛ لأجل هدف تأسيس عمل تجاريّ بالقاهرة، وكذلك على أمل اكتشاف قنوات تجارية مع وسط أفريقيا؛ لتحقيق هذا الغرض أقام مدةً طويلة في البلاد [1837-1839م] أكثر مِن أي أوروبي سبقه، والمعلومات التي جمعها عن الوضعيّة الحالية لهذه المديرية المصرية [حينذاك]، وخاصة عن بلاد السودان عموماً، تعتبر حتى الآن [1844م] عملاً أصيلاً.

وبالمه مِن الرحّالة القلائل الذين زاروا هذه البلدان وعرضوا معلوماتهم عنها بشكل مطبوع، فكل ما سبقه عن هذه البلاد ما هي إلا تكهنات نصفها عن الأماكن الموجودة في مناطق العمل أو بعض الزيارات الشخصية، بجانب تركيزها على عرض ما عُرِفَ سابقاً عنها ورُسِمَ في الخرائط الحديثة، وما كُتِبَ عن ثقافة أهل هذه البلاد.

من مقدمة الترجمة للإنجليزية

رغم المصاعب المتعلقة بهذه الرحلة إلا أنّها راقتْ لي خصوصاً أنّني عشتُ عدة سنين في مصر، وأحسنتُ التحدُّث والتعامل باللغة العربية، وقد سهل لي سفري في أجزاء السودان المختلفة التعامل مع الأهالي، والتعرف على العديد مِن التجار في المديريات البعيدة بالسودان، بسبب أنّني رافقتُ العديد منهم أثناء ترحالي الذي استمرَّ (19) شهراً جبتُ فيه كل أنحاء هذه البلدان. لقد كنتُ أثناء ترحالي أو إقامتي أقوم بأخذ ملاحظات عن كل المواضيع التي تبدو لي ذات أهمِيّة خاصةً التي عزمتُ على عرضها على أصدقائي؛ لأبهجهم بها عندما أعود لبلادي.

المؤلف

رحلاتٌ في كُرْدُفان
(1837 . 1839م)

تاليف:

إقناتيوس بالمه

ترجمة:

أرباب موسى بخيت

الناشر:

دار المصورات



للنشر والطباعة والتوزيع
الخرطوم غرب،
شارع الشريف الهندي
المتفرع من شارع الحرية

ت: 249912294714+
elrayah1995@gmail.com

رحلاتٌ في كُرْدُفان

(1837 - 1839م)

Travels in Kordofan

الكتاب: رحلات في كردفان (1837 ـ 1839م)
الكاتب: أقناتيوس بالمه
ترجمة: أزباب موسى بخيت

تاريخ النشر: الطبعة الأولى 2019م

رقم الإيداع: 2019/1249م

المدير المسؤول: أسامة عوض الريح
الجمع والتحرير: محمد عمر نصر
التصميم والإخراج: محمد الصادق الحاج

الناشر:

دار المصورات

للنشر والطباعة والتوزيع
الخرطوم غرب،
شارع الشريف الهندي
المتفرع من شارع الحرية
ت: 249912294714+
elrayah1995@gmail.com

إقناتيوس بالمه

Ignatius Pallme

رحلاتٌ في كُرْدُفان

(1837 - 1839م)

Travels in Kordofan

ترجمة:

أ رْباب موسى بخيت



للنشر والطباعة والتوزيع

2019

الترجمة العربية لكتاب:

TRAVELS IN KORDOFAN;

EMBRACING

A DESCRIPTION OF THAT PROVINCE OF EGYPT,
AND OF SOME OF THE BORDERING COUNTRIES,
WITH A REVIEW OF THE PRESENT STATE OF THE COMMERCE
IN THOSE COUNTRIES,
OF THE HABITS AND CUSTOMS OF THE INHABITANTS,
AS ALSO AN ACCOUNT OF THE SLAVE-HUNTS TAKING PLACE
UNDER THE GOVERNMENT OF MEHEMED ALI.

BY

IGNATIUS PALLME.

FROM NOTES COLLECTED DURING A RESIDENCE OF NEARLY TWO YEARS IN KORDOFAN.



LONDON:
J. MADDEN AND CO., 8, LEADENHALL STREET.
1844.

المحتـــويات

تقديم

نبذة عن مترجم الكتاب إلى العربية؛ الراحل أرْباب موسى بخيت

ليس من السهل الحديث عن شقيقي الراحل أرْباب موسى بخيت فهو شخصية متعدّدة الخواص والمواهب، والحديث عنه أكثر صعوبة مما يتخيّل المرء، فلقد اجتمعَت لديه كثير من المزايا والصفات، التى ليس من السهل وسط تناقضات زماننا أن يتّصف بها شخص، مع عجالة العمر التى يتميّز بها عصرنا؛ فهو من المهتمّين والمتوفرين على دراسة اللغة الإنجليزية، وكان من طلائع الوجوديّين في كردفان هو وصديق عمره الأستاذ الروائي الزين بانقا، وتوفر له الوقت لدراسة كثير من المذاهب الفلسفية، فقرأ كير كيغارد، وغابرييل مارسيل، ومارتن هايدغر، وتوفر على دراسة كانْت، وهيغل، ونيتشه، وداروِن، وقاد جدلاً طويلاً وخلّاقاً بين الميتافيزيقيا والمذاهب المادية، ثم انكبّ على دراسة مذاهب المتصوّفة وشمائل حياتهم مثل النفّري، والحسين بن منصور الحلّاج، ومحيي الدين بن عربي، وتدارس المذاهب السياسية، وبحَث طويلاً في الديالكتيك - مادية فيورباخ وجدلية هيغل - واكتشف مبكّراً عالِم الطيب صالح وهنري ميلر وكولن ولسون، ولورانس داريل، ودستويفيسكي وألبرتو مورافيا. كان يعشق السينما ويعيد مشاهدة كثير من الأفلام، مثل «صوت الموسيقى»، و«شباب ضائع»، و«الميقوس»، و«مرح على الأعشاب»، ويلهث مسرعاً حتى لا يفوته مشهدٌ يقدّمه سيدني بواتييه، أو أنطوني كوين أو ستيف ماكوين أو ناتالي وود أو سوزان بلاشقيت. وقرأ باكراً كتاب «صناعة الجوع»، و«تعليم المقهورين»، و«أسطورة الإله»، وحفظ كثيراً من المتنبي، ودرَس الشعر، وافتتن بشعر التفعيلة، ونازك الملائكة وبدر شاكر السياب، وأمل دنقل ومحمد الفيتوري، والنور عثمان أبكر. تخصّص في علوم المكتبات، وبدأ في مطلع الستينيات بالعمل أميناً مساعداً لمكتبة بلدية الأبيّض. عُرف عنه حبّه للناس واهتمامه بقضاء حوائجهم، وسخاؤه وكرمه.

لم يكن يحبّ الجدل، فكان عادة ينزع إلى الصمت، ولكن عندما تلاحقه بإلحاحك على معرفة رأيه، يتعيّن عليك إيجاد طريقة للفرار من إعصار المعلومات الذي توفر له، لم يكن يجامل أو ينافق في ما يعتقد بصوابه، وهذا حفظ له ميزة وسط كافة المثقفين، إذ أنه عُرف بقوّة الرأي ونفاذ البصيرة ورجاحة العقل. كان يتعاقب على صالونه أصحابه من المهتمّين والمشتغلين بالحراك الثقافي في المدينة من أمثال الزين بانقا، والراحل علي آدم عثمان، ومحمد عبد الرحمن وأحمد الحضري، وإبراهيم الشفيع، وعبيد المجذوب، ومحمود عمر. كان يهتمّ بالزهور وتحوي حديقة بيته كثيراً من أنواعها التي يعرف عنها كل شيء، وكان الجميع يلهثون لينتزعوا منه معلومات عنها، ونحاول أن نضمّها إلى مجموعتنا من الأزهار والورد والرياحين.

كان بارّا بوالديه، وحين مرض والدنا في هجعته الأخيرة، ظلّ أرباب طوال أسابيع ينام قرب فراش موته، يقرأ عليه القرآن ويدعو له الله، وأخذ بعدها على عاتقه واجب العناية بوالدتنا حتى توفاها الله. تعهّدَنا بالنصح والتوجيه وحضّنا على مكارم الأخلاق، وأجّج في صدورنا جمرة الطموح، وتعهّد فينا بالرعاية بذرة الاطّلاع. وحين كنتُ معاراً باليمن الشقيق، كان يجتهد للعناية بالمنزل وتفقّد حال أسرتي الصغيرة. تزوّج من شقيقة صديقه الراحل الأستاذ حامد إسماعيل، ورُزقا بأربعة من البنين وبنت واحدة. نالوا جميعاً حظّهم من التعليم الجامعي، وهم يعملون بجهد لتخليد ذكرى والدهم الذي أسهم في نهضة كردفان الثقافية على نحو غير مسبوق.

قام برعاية كثير من النشاطات الثقافية وتعهّد كثيراً من الباحثين بالرعاية حتى أنجزوا أبحاثهم. كان حجّةً في تاريخ مدينة الأبيّض، يحجّ إلى داره طلاب البحث العلمي وكتاب الشعر وهواة المعرفة. كان يتوفر على إحياء ليالي رمضان في مسجد عثمان السيد، ويداوم على ختم المصحف الشريف في مسجد العالم عبد الباقي. وكانت لديه كثير من المشاريع الثقافية، ولولا عاجله المنون لأتحف المكتبة بكثير من الروائع.

نترك بين أيديكم سفره هذا ونرجو أن ينتفع به الناس ويذهب إليه أجره.

صديق موسى بخيت

الأبيّض، في الثالث عشر من ذي الحجة، 1438هـ

مُقَدِّمَة المؤَلِّف

في نهاية عام 1837م عزمتُ بناءً على طلبٍ مِن صديق أنْ أقوم برحلة إلى أبعد جزء مِن البلدان التي تحت حكم والي مصر لكي أجمع معلومات عن إمكانية التجارة معها، وأنْ أقوم بتأكيد وجهة نظري الخاصة أنَّه يمكن أنْ تنشأ تجارة مع هذه البلدان مباشرةً عبر بعض الوكلاء الذين تكون مسؤولية إدارة العملية التجارية تحت أيديهم. ورغم المصاعب المتعلقة بهذه الرحلة إلا أنَّها راقتْ لي خصوصاً أنَّنِي عشتُ عدة سنينٍ في مصر، وأحسنتُ التحدُّث والتعامل باللغة العربية، وقد سهل لي سفري في أجزاء السودان المختلفة التعامل مع الأهالي، والتعرف على العديد مِن التجار فِي المديريات البعيدة بالسودان، بسبب أنَّنِي رافقتُ العديد منهم أثناء ترحالي الذي استمرَّ (19) شهراً جبتُ فيه كل أنحاء هذه البلدان. لقد كنتُ أثناء ترحالي أو إقامتي أقوم بأخذ ملاحظات عن كل المواضيع التي تبدو لي ذات أهمِيَّة خاصةً التي عزمتُ على عرضها على أصدقائي؛ لأبهجهم بها عندما أعود لبلادي. فبناء على نصيحتهم، وكذلك تشجيع الفرنسي الشهير أنتوني دي أبادي الذي أوضح لي أنَّ ما أقوم بجمعه مِن معلومات سوف يكون موضع تقدير كبير؛ لما له مِن فائدة عن معرفة بلادٍ مجهولة، ولم تظهر عنها مطبوعات.

إنَّ رحلتي هي في الأصل لأغراض التجارة، مِمَّا يجعلني لا أمتلك المقدرةَ أنْ أصف كل شيء يستحق الوصف مثل الرحالة الذين يمتلكون معرفة علمية واسعة. ولكن رغماً عن ذلك فكوني أُعَبِّرُ عن وجهة نظر مختلفة، تجعل مِن مساهمتي المتواضعة هذه دليل يمكن أنْ يهتدي به كُلُّ مَن يريد اكتشاف هذه البلدان مِن بعدي. فهي تعطيه معلومات مُبَسَّطَة قبل أنْ يصل هذه البلدان، وتساعده على حَلِّ كثيرٍ مِن المشكلات التي تكون عائقاً أثناء إقامته في كردفان. ورغم أنَّ هناك اثنين مِن الرحالة الألمان المُمَيَّزين زارا البلاد قبلي هما: دكتور/ روبيل ومفتش المناجم/ روذجر، لكنهما أقاما فترة قصيرة، وكانت كل رحلاتهما محصورة بصحبة

الأشخاص المرافقين لهم، لذلك فاتَ عليهما ملاحظة أشياء كثيرة، كما أنَّ البلاد لم تُظْهِر لهم أخطارها التي أظهرتها لي. لقد كنتُ بالمقابل أجوب أنحاء المديرية وحدي وتحت ظروف مختلفة، بعضها كانت برفقة خادم واحد، وفي بعض الأحيان وحدي بلا أي حماية. لقد كنتُ في أغلب الأحيان أشارك سائق الجمل وجبته المتواضعة، أو أتحدَّث مع الأهالي داخل أكواخهم المظلمة، وفي بعض الأحيان أستمتعُ بعملية جمع المعلومات مِن الحاكم وكبار الضباط عندما تتاح لي فرصة مخالطتهم عندما يدعوني لحضور ولائهم الخاصة.

إنَّ على القارئ أنْ يجد لي العذر أثناء اطلاعه على عملي هذا بإمعان؛ لأنَّه سوف تقابله معلومات كثيرة قد يرى أنَّه لا داعي لذكرها، بجانب المعلومات غير المتوقعة التي قابلتني في الرحلة، وأذكر مِن جديد أنَّني لم أكتب هذا العمل لأجل الكتابة فقط، بل تلبية لرغبة أصدقائي، ولكشف الحجاب المظلم عن علاقات معينة لها اعتبار، ومِن الممكن أنْ تكون ذات فائدة في المستقبل، فأنا أدفع بهذا الكتاب الصغير للعالم، وإني مقتنعٌ ومتأكدٌ أنَّه سيجد القبول، رغم كل القصور الذي اعتراه بسبب الظروف التي تحت وطأتها قمتُ بكتابته.

المؤلف ـ القاهرة.

مقدِّمة الترجمة الإنجليزية

إقناتيوس بالمه كاتبٌ ذو أصول مِن بوهيميا بالميلاد [في جمهورية التشيك حالياً]، وقد عزم على القيام برحلة إلى كردفان؛ لأجل هدف تأسيس عمل تجاريّ بالقاهرة، وكذلك على أمل اكتشاف قنوات تجارية مع وسط أفريقيا؛ لتحقيق هذا الغرض أقام مدةً طويلة في البلاد [1837-1839م] أكثر مِن أي أوروبي سبقه، والمعلومات التي جمعها عن الوضعِيَّة الحالية لهذه المديرية المصرية [حينذاك]، وخاصة عن بلاد السودان عموماً، تعتبر حتى الآن [1844م] عملاً أصيلاً.

وبالمه مِن الرحَّالة القلائل الذين زاروا هذه البلدان وعرضوا معلوماتهم عنها بشكل مطبوع، فكل ما سبقه عن هذه البلاد ما هي إِلا تكهنات نصفها عن الأماكن الموجودة في مناطق العمل أو بعض الزيارات الشخصية، بجانب تركيزها على عرض ما عُرِفَ سابقاً عنها ورُسِمَ في الخرائط الحديثة، وما كُتِبَ عن ثقافة أهل هذه البلاد. ولكي نعقد مقارنة بين بالم والرحالة السابقين عليه، تواجهنا عدة مشاق، وعدد مِن البحوث غير المقنعة في هذا الأمر. إِنَّ النسخة الأصلية لهذا العمل مكتوبة بطريقة ساذجة متواضعة، ولذلك كان مسعاي الرئيسي عند الترجمة بين تعبيرين أحدهما في الأصل الألماني، والآخر منقول للغة الإنجليزية، أنْ تكون المصطلحات المنقولة قريبة لأقصي حد مقابل لها في اللغة الألمانية الأصل. وعزائي إذا ما وجد القارئ أي خطأ نحويّ أنَّه بسبب تركيبة الأصل الألماني النحويّة، والتي أتت من اِتباع بالم طريقة تهجئة مستقاة مِن اللغة العربية لكلمات يعتبر أنَّها مفهومة للقراء، والتي يمكن أنْ توجد لها تهجئة أخرى ممكنة. وفي اللغة مِن المستحيل أنْ تطابق مفردات أي لغة مع مفردات لغةٍ أخرى، خاصة اللغة العربية التي لم تكن لها علاقة مفردات مشابهه مع اللغة الألمانيةِ الأصل.

المترجم [إلى الإنجليزية] ـ لندن مايو 1844م

(1)

موقعُ البلادِ وحدودها، أنهارها، تربتها، ومناخها

كردفان هي أقصى مديريات الجنوب التي تقع تحت سلطان حكومة والي مصر، فهي تمتد شمالاً مِن الحرازة حتى الكدرو وجنوب جبال النوبة،وشرقاً من كاكة حتى جبال الشلك لتصل درجة أربعة مِن خط الطول. تُحَدُّ مِن الشمال بصحراء دنقلا، والتي تمتد كذلك غرباً حتى حدود دارفور. أمَّا في الجنوب ليس هناك حدود معينة يمكن أنْ تعين لها، حيث تتأرجح الحدود في تلك المنطقة بين التمدد والانكماش حسب أوضاع ساكنيها، الذين قد يكونوا تابعين لها بمحض إرادتهم أو يخضعون لها بالقوة. الأمر الذي يحصل في العادة، ممَّا يجعلهم في حالة صراع دائم مِن أجل نيل حريتهم. على هذا الأساس قُسِّمَتْ البلاد إلى خمسة مراكز كبيرة، تمثل الكدرو والنوبة الحدود الجنوبية منها. وكردفان ليست لها مدن في بحر أبيض، وتقع أقرب قرية مِن النهر على مبعدة أربعة ساعات مسير. والقبائل الرعوية التي تسكن الضفة الغربية للنهر تتبع لسنار، وهم يختلفون عن سكان كردفان. أمَّا البقارة والكبابيش هما من القبائل الرعوية التي تذهب بشكل موسمي للرعي على ضفة النيل الأبيض. المراكز الخمسة لكردفان هي: خرسي، بارا، كجمر، أبو حراز، التيارا. يكون على إدارة كل مركز كاشف أو كابتن، يمثل في ذات الوقت قائد فرقة الجيش بالمنطقة. فإذا نظرنا نظرة عابرة لكردفان نجدها تتكون بصفة رئيسية مِن واحات مغلقة صغيرة وكبيرة، لا تبعد كثيراً عن بعضها البعض كما هو الحال في الصحراء الكبرى. تربة البلاد بشكل عام رملية وسطحها مستوي ممتد على مساحات أكبر مِن المساحة التي تشغلها الجبال في المنطقة. وتوجد بالقرب مِن الحرازة سلسلة مِن الجبال مرتفعة تجاه

النيل الأبيض. ورغم أنَّ الجبال تمتد حتى تصل جنوب كردفان، إلا أنَّه لا أهمية لها. وتربة كردفان بعامة خصبة في بداية فصل الأمطار، حيثُ تنبتُ الخضروات على الأرض لوحدها كأنَّها بفعل السحر. وتبدو الطبيعة عندها مزدهرة في نشاطٍ هائل، ورائحة البلسم منتشرة في الجوِّ مِن كل الاتجاهات بشكل ينعشُ مَن يستنشقها. وَيُخَيَّلُ للزائر أَنَّها تخرج مِن حدائق ومزارع ألف ليلة وليلة الجميلة. ولا توجد في كردفان أَنْهر جارية، لكن تتكون بعض المجاري المائية الكبيرة في فصل الأمطار، لكنها تختفي فجأة بنفس الطريقة التي ظهرتْ بها. توجد أيضاً عُدَّة بحيرات أو بِرَك في البلاد مثل الموجودة في: الرهد، برقد، كجمر. أمَّا كاكة فتتميز بوجود الآبار فيها. وبشكلٍ عام تجفُّ المياه الراكدة وتبقي لفترةِ الآبار قصيرة العمق لباقي العام. كما توجد مياه شرب نقية في قمة جبل متوفرة طوال العام بالقرب مِن أبو حرازة في اتجاه الشمال الشرقي.

للمديرية كمية وافرة مِن الحديد الخام كما أوضح ذلك مفتش المناجم في الحكومة الملكية روذجر، الذي عبر البلاد عام 1837م حتى بلغ شيبونه. وأشير للقارئ بهذا الكتاب المتخصص في الوصف الجيولوجي للمنطقة في ظاهر الأرض وباطنها، وهو بحثٌ يخرج عن حدود اختصاصي. في فصل الأمطار يصبح مناخ البلاد غير صحي، ولا نجد كوخاً إلا وبه مجموعة مِن المرضي. وفي فصل الجفاف تختفي الأمراض، لكن الحر يبلغ مرحلة لا يعاني منها الإنسان وحده، بل جميع المخلوقات الطبيعية. فنجد دائماً منظراً كئيباً للنباتات العطشى الذابلة، ولا شيء يُرَى في هذه الحرارة سوي لمعان عظام البشر والحيوانات تحت الشمس المحرقة. ويستمر فصل الصيف ثمانية أشهر تكون فيه السماء صافية بلا سحب، ويصبح الحر لا يحتملُ، خاصةً في شهري أبريل ومايو مِن الساعة 11 صباحاً حتى 6 بعد الظهر عندما تصل درجة الحرارة 38 درجة، ويصبح من المستحيل لكائنٍ يتنفسُ أنْ يصمد في العراء. ويبحث الجميع من بشر أو ماشية عن ظل يقيهم هجير الشمس الحارقة أثناء

هذه الساعات، حيثُ يُخَيَّلُ للإنسان وكأنَّه جالس فوق حمام بخار ساخن، مِمَّا يصيبه بالكآبة، ويجعله مشوشاً غير قادر على التفكير، ويصبح كأنَّه فاقدٌ للوعي، حيثُ يمضي جُلَّ وقته باحثاً عن مكان ظليل ومُحَدِّقاً في الفراغ بلا معنى. ويسبب هذا الهواء الساخن الذي يبدو كأنَّه خارج مِن فرن حار، مضار اقتصادية كبيرة، فهو يجعل الحيوانات لا تقدر على الحركة ومصابة بالوهن في أعضائها، مما يعطل جميع الأعمال ويجعل كل الكائنات ساكنة تغط في نوم عميق مثل الموتى. وعندما تبدأ الشمس في المغيب تدريجياً، وتنادي من بعدها برودة الطقس الليلي، يستعيدُ الإنسان والحيوان نشاطهم وحيويتهم مِن جديد. إنَّ الليل في هذه البلاد يحتاج لبعض الترتيبات لمقابلة البرودة فيه، أكثر مما يحتاج إِليها في أنحاء أوروبا إِبان البرد القارص، لأَنَّه في بعض الأحيان تكون تداعيات البرد مهلكة. ومثلما هو حادث في كل مناطق مديريات هذه البلاد فإِنَّ الليل والنهار متساويين على مدار السنة، ما عدا فارق ضئيل بينهما. ولا يظهر الشفق الأحمر عند بداية غروب الشمس. ونجد في فصل الجفاف أنَّ كل شيء في الطبيعة يبدو ذابلاً ومرعباً، فالشمس تحرق النباتات، والأشجار تتساقط أوراقها وتبدو كالمكانس، ولا يسمع صوت الطيور، ولا تُرَى الحيوانات التي تسرح وتمرح جذلانة في العراء. وكُلُّ الكائنات تتجه نحو الغابة؛ لتجد لها ظلاً يقيها هجير الشمس. ورغماً عن ذلك تري النعام تطير مسرعة قاطعة الصحراء، أو الزرافة تعدو مسرعة في الواحات.

في فصل الجفاف يحدث مِن حين لآخر أعاصير رياح رملية مخيفة. وهي تُحْدِثُ رعباً شديداً في نفس كُلِّ مَن يشاهدها، نتيجة لقوتها الهائلة وحرارتها الخانقة، وكأَنَّها عاصفةٌ متوحشة قادمة مِن أعالي السماء، لأجل أَنْ تدمر كل مَن يعترض طريقها. ويصبح لون الجو رصاصي أغبش مشبعاً بالرمال الناعمة، حيث تفقد الشمس بهائها ويغطي الظلام كُلَّ الأرض، ويصير مِن المتعذر رؤية الأشياء وتمييزها حتى على بعد أذرع قليلة. ففجأة عندما تعصف

العاصفة الرملية، يتغير لون السماء وتصبح مصفرة متدرجة للأحمر، أمَّا قرص الشمس فيتحوَّل للأحمر الدامي. ثم تهدر الرياح بعنف فتهدم كُلَّ ما يقف أمامها مِن منازل وأسوار. أَمَّا الأشجار فتقتلعها مِن جذورها وتدفعها أمامها. وكذلك تسوي الكثبان الرملية وتصنع كثبان جديدة. باختصار إنَّ الدمار الذي يحدثه الإعصار الرملي يفوق حد الوصف، ومِن الخطر أَنْ تدركك هذه الأعاصير في الصحراء، عندها يصبح لا ملجأ لك إلا أَنْ تَنْكَبَّ على الأرض بوجهك لأجل أنْ لا تختنق بفعل ضغط الهواء. ويصبح التنفس حادثاً بصعوبة مِن الشعب الهوائية التي تجتهد لأجل أنْ تحصل على القليل مِن الهواء النقي. وإذا أدرك هذا الإعصار إنساناً ضعيفَ البنية في الصحراء فإنَّه لا محالة هالك، وحتى أقوياء البنية في ريعان شبابهم يشعرون بالإعياء في أطرافهم لعدة ساعات ويستعيدون عافيتهم ببطء. أمَّا الحيوانات فهي تطير بأقصى سرعة لتحمي نفسها مِن الإعصار؛ ولتجد مكاناً يأويها. وتشعر الجِمَال أثناء رحلة القوافل بقرب مجيء الإعصار، وهو ما يظهر في تغيير مشيتها وانحناء رأسها. ونلاحظ في الصحراء كثيراً انتشار ظاهرة السراب، وظهور البحار والأَنْهُر وسط الصحراء الخالية، وهذا السراب ما هو إلا خداع للعين بسبب إطلاق البخار الذي يحدث نتيجة لانعكاس ضوء الشمس ويظهر أنهاراً وبحيرات. وبعد رحلة مضنية استمرت عدة أيام، لم نشاهد فيها شيئاً يُذكر ما عدا الرمال والسماء، ولم نجد فيها ولا قطرةَ ماء، مِمَّا جعلتني أتمنى أنْ تكون بجمالنا أجنحة تطير بنا حتى نصل مقصدنا لكي ننعش أنفسنا ونزيل تعب أجسادنا بالاستحمام المنعش. لكننا عندما وصلنا مقصدنا خاب فألنا، وخبأتْ جذوته، عندما وجدنا البحيرات والأنهار ما هي إلا رمال وحر وجفاف، وكأنَّنا لم نغادر المكان الذي بدأتْ منه الرحلة. وتكررتْ مشاهدة ظاهرة السراب أيضاً في بلاد بحر الغزال، ويُسَمَّى النهر بالغزال لأنَّه مثل الغزال الذي يظهر مسرعاً ويختفي سريعاً.

إنَّ الأمطار تهطل في شهر يونيو، وتنتهي في شهر أكتوبر، فبالنسبة للذين

لم يسبق لهم أنْ أمضوا هذا الفصل في المناطق المدارية، وليست لديهم أدني فكرة، فإِنَّ المياه تُحَوِّلُ الأراضي إلى مجاري. وتهب الرياح في العادة مِن الشرق أو الجنوب. وتبدأ الأمطار بسحابة صغيرة سوداء تظهر في الأفق ثم تتزايد بسرعة فائقة في دقائق قليلة حتى تعمُّ كُلَّ المنطقة، بعدها يهطل المطر الذي يكون مصحوباً ببرقٍ مخيف. حيثُ ينزل البرق الذي يضيء كُلَّ السماء، يتلوه صوت دوي مخيف كَأَنَّ السماء تريد أنْ تنشق. وتنفجر في الأرض جداولُ مياهٍ تجري بعنف، مِمَّا يجعل التربة غير قادرة على امتصاصها فتكون سيولاً جارية، لكنه بعدة مدة وجيزة مِن توقف الأمطار تختفي السيول خلف الرمال، ورغم كمية مياه الأمطار التي تصنع جداولَ متحركة، إلا أَنَّها لا تبقى على سطح الأرض أكثر مِن ربع ساعة. ومِن النادر أنْ يهطل المطر مرتين في اليوم. فالأمطار غالباً ما تنزل كل يومين أو ثلاثة أَيَّام، وتصل أحياناً لَستة أيام. وموسم الأمطار يجلب معه مناخ غير صحي بالنسبة للأهالي والأجانب، ولكن الأهالي يستقبلونه بترحاب، أَمَّا ذوي البشرة البيضاء فإِنَّهم يعانون أكثر مِن ذوي البشرة السوداء عند المطر، وكأَنَّه بفعل السحر فإِنَّ الطبيعة المِيِّتَة في فصل الجفاف تصحو مِن نومها، فعقب هطول أوَّل المطر تكسو الأرض الخضرة، والأشجار تخرج منها البراعم الخضراء، وتصير البلاد مغطاةً بثوبٍ مِن الزهر مِن كُلِّ الأنحاء.

هناك مناطق منخفضة في كردفان يمكن أنْ تضاهي بها الجنة في كُلِّ شيءٍ، حيثُ الطبيعة تبدو في منتهى البهجة، والأشجار والنباتات تكسوها الأزهار، والفاكهة تثمر مِمَّا يتعذرُ معه رؤية الأوراق. والحشائش تبلغ مدى مِن الارتفاع حتى تغطي الشخص الراكب على ظهر حصانه. والنباتات الزاحفة تلتفُ حول نفسها حتى تتسلق أعلى الأشجار. باختصار فإِنَّ الخضرة الحيوية تعمُّ كُلَّ الأمكنةِ. فمثلما تتمتع العين بالتنوُّع العظيم في الأزهار، كذلك تحصل على الرضا بتوزيع اختلاف الألوان الذي يماثل تاج الببغاء. أَمَّا ذوات الريش التي تقطن الحدائق، فإِنَّها تحطُّ على رؤوس

الأشجار كالتيجان البهيجة. ويبهج الآذان تغريدُ العصافير الذي يتردد بطريقة ساحرة منبعثاً مِن جميع الأغصان. وقد كادتْ أنْ تنسيني هذه البهجة تغريد طائر القنبر وكل طيور بلادي الحبيبة. ورغم أنَّه لا تبقى الطيور ذات العلامة الفضية في البلاد طويلاً، لكن تغريدها الجميل يبقى في الذاكرة إلى أمد طويل. ويبدأ تغريده منذ أوَّل الفجر، ويزداد كلما انتشر الضياء على الأرض. لكن عندما تظهر الشمس ساطعة في أفق الصحراء لتزين الجبال بأشعتها الذهبية، فإنَّ شدو العصافير يختفي واحداً تلو الآخر. ومِن بعد ذلك تظهر أسرابُ الفراشات والحشرات الجميلة التي تمتع العين بتغير ألوانها البهيجة، والزراف والغزلان وبقية الحيوانات ترعى في السهول في كمال الاستمتاع بحياتها.

يختفي هذا الجو البهيج تحت وطأة المناخ غير الصحي، الذي يطفئ جذوة الروح ويثبط الإرادة والقوة. فيحلُّ بالمرءِ القلقُ الذي يسلبه راحته، ويشعر بالوهن والغثيان وعدم الميل لتناول الطعام. واختصاراً للقول نجدُ أنَّ كُلّ مظاهر الأمراض السابقة تسلبُ نعمة التمتع بما تحمله الطبيعة مِن جمال. وفي وقتٍ قصير يكون طريح الفراش بمرض لا يُعْفَى منه حتى الإنسان الغريب. فكلُ الأوربيين الذين زاروا هذه الأقاليم ومكثوا فيها قدراً مِن الزمان دفعوا حياتهم ثمناً لذلك، إلا الذين هربوا بأنفسهم مِن رائحة العفن المنبعث مِن المستنقعات، والرطوبة التي تخترق الأعصاب والتي تحملها الرياح الآتية مِن الجنوب. كُلُّ هذه العوامل تتضافر؛ لتُخْرِج خيوط الحياة مِن جسد الإنسان، والكُلُّ يبحث عن طريق يسلكه ليحل نفسه مِن أثر هذا المناخ غير الصحي. ولا يجب أنْ نتخيَّلَ أنَّ المطر يُصَفِّي الطقس كما هو حاصل في أوروبا، بل أنَّه بعد توقف المطر فإن الجو يتكثَّفُ بالحرارة. ولقد وصلت درجة الحرارة أثناء إقامتي في هذه البلاد 30 درجة أو 99 فهرنهايت. إنَّ شهري ديسمبر ويناير هما أكثر شهور السنة جوهما صحي ولكن في الليلِ تصل درجة البرودة إلى 3-8 درجات (40-50 فهرنهايت) خاصة قبل شروق الشمس. فبخار

الماء المتصاعد له تأثير ضار على صحة الإنسان خاصة الأجانب الذين يأتون مِن شمال مصر وأوروبا، ولكن هناك قليلون منهم مَن يوائمون أنفسهم مع هذا المناخ.

(2)

تاريخ كردفان

يجب على المرء أنْ يكون مقتنعاً أنَّه ليس مِن السهل كتابة تاريخ بلادٍ أو مديرية يعيش سكانها في حالة جهلٍ تام، ولا يعيرون اهتماماً للأحداث التي وقعتْ في بلادهم، أو سكان بلادهم الأقدمين ومعرفة جزء مِن حياتهم السابقة. ومِمَّا يزيد العبء صعوبةً عدم وجود تاريخ مُسَجَّل لأحداث هذه البلاد يمكن أنْ يُتَّخَذَ كمرجع؛ ولذا ليس في مقدوري توسيع بحثي، أو أنْ أعرف أكثر مِمَّا عرفتُ عن هذه البلاد، إلَّا ما أتاني عن طريق الفكي [الفقيه] الذي استعنتُ به لمعرفة أحوال هذه البلاد، والذي يبلغ من العمر 87 عاماً، وهو يبدو لي شخصاً جديراً بالتصديق لأنَّه شاهد عيان على أحداث هامة حصلتْ في بلاده.

إنَّ اسم كردفان منسوب لجبل كردفان الذي يقع جنوب شرق مدينة الأُبيض، وتسكنه قبائل النوبة سكان الأُبيض الأوائل. وإنَّ كلمة كردفان نوبية الأصل، شهدتْ لاحقاً هجرات لبعض القبائل التي وصلتْ أوَّلاً مِن غديات وجوامعة وبديرية. ولكل قبيلة شيخ يقودها، ويحكم بالفصل في نزاعاتها الداخلية. ولهذا التجمع القبلي شيخٌ واحدٌ يُلْجَأُ له في المسائل الخطرة والنزاعات المستعصية. استمر الحكم القبلي في كردفان حتى وصلت سلطة مملكة سنار إليها. وفي عام 1779م أقام ملك سنار الشيخ نواي حملة عسكرية مِن ألفي فارس للمنطقة، حيثُ لم تعترضها أي مقاومة تُذْكَر مِن القبائل المحلية، وشعرتْ القبائل تحت إدارة السلطة الجديدة بالأمن والرخاء مِمَّا حدا ببعض القبائل بالهجرة إلى كردفان، بعض مِن هذه القبائل عربية

مِن سنار ودنقلا، مِمَّا جعل التجارة والزراعة تزدهر في الإقليم. مِن ثَمَّ بدأتْ أنظار حكام دارفور تتجه نحو كردفان عندما التجأ إليها السلطان هاشم المسبعاوي منافس حُكَّام دارفور من الكيرة. فأُرْسِلَتْ حملةٌ أخرجته مِن كردفان فاراً إلى سنار، ومِن ثَمَّ حكم الفور كردفان حكماً فعلياً حتى عام 1821م. استمرت الحكم 34 عاما في عهد السلطان محمد الفضل، حيثُ شهدتْ فيها كردفان ازدهاراً ونماءً وكانتْ تدفع فيها الجزية لحكام دارفور. في هذه العهد سطع نجم مدينة بارا التي كانت تجمع لقبيلة الدناقلة، وصارت المدينة الثانية بعد الأبيض، وازدهرت بها الزراعة والتجارة وكانت تأتيها البضائع من مصر وأثيوبيا وغرب أفريقيا، وصار الرخاء والنعيم هو سمة ساكني الإقليم، فامتلاك الذهب والتحلي بلبسه أصبح شيئاً عاديا، فحتى الجواري مِن النساء يتحلين بالذهب، فأصبح عهد الفور هو العهد الذهبي في كردفان. لقد دامتْ سنواتُ الرخاء والسعادة طويلاً في البلاد، حتى أرسل محمد علي باشا صهره الدفتردار لفتح كردفان على رأس حملة مِن 4500 من الجنود المشاة وثمانية مدافع لإخضاع الإقليم لسلطته.

عندما علم سكان الإقليم بالغزو، وكانت في ذلك الزمن تحت حكم المقدوم مُسَلَّم، قاموا بتجهيز أنفسهم. فخرج المقدوم لملاقاة حملة الغزو في بارا مسلحاً بالسلاح الأبيض وقليلاً مِن السلاح الناري الذي لم يكن معروفاً بعد. فكان الفرسان يلبسون الدروع والخوذات، وخيولهم تلبس دروع كذلك، ويحملون السيوف ذات الحد الواحد والحدين والفؤوس. فدارت معركة وحشية سالتْ فيها دماءٌ كثيرة، واستبسل فيها رجال كردفان دفاعاً عن أرضهم، فكانوا يتدافعون نحو العدو غير آبهين بالموت، حتى نساء كردفان اشتركن في القتال. لكن رصاص الجيش الغازي حصد مقاتليهم بالمئات، الذين كانوا يتحسسون جراحهم مستغربين أنْ تُجْرَح أجسادُهم ولم يمسسهم سلاح، وهذا يدلُّ على جهلهم بالسلاح الناري. فكانوا يهجمون على المدافع بالسيوف، وقد احتار الجنود الأتراك مِن شجاعة رجال كردفان،

فحتى الأطفال كانوا يشتركون في القتال، وقد نجحوا في إرباك جيش الأتراك. استمرت المعركة في سجال طويل، مرة كان النصر حليفاً لجيش الأتراك، وفي أخرى حليفاً لجيش المقدوم مسلم. واستمر الحال كذلك إلى أنْ عثر أحد مشايخة الجوامعة على القائد المقدوم مسلم صريعاً بطلقة سلاح ناري، وبعد أنْ حُرِمَ جيش كردفان مِن قائده تفرَّق في كُلِّ الاتجاهات، فطاردتهم بقايا جيش الأتراك قاطعة عليهم الطريق قبل أنْ يصلوا قراهم. وعندما تفَقَّد الجيش الغازي قتلى المعركة وجد مِن بينهم ثلاثة نساء. في اليوم الثاني مِن المعركة دخل الدفتردار الأبيض مكللاً بالنصر بصحبة جنوده المنتصرين، ووجدوها قد تعرضت للسلب والنهب. لكن رغم ذلك فإنَّ الدفتردار شعر أَنَّ المدينة بالنسبة له كنزاً يفوق تصور الخيال، واستيقظت لديه غريزة الطغيان والجشع خاصة أنَّ بقية الإقليم دانتْ له دون جهد يُذْكَر، ما عدا جبل الداير الذي تمرَّدَ واستردَّ حريته واستقلاله. لكن الجنود المنتصرين مِن الجيش التركي كان لهم مناخ الإقليم والطقس بالمرصاد، فأغلبهم ماتوا بسبب الطقس، ومَن تبقي آثر الرجوع والحفاظ على حياته.

قُسِّمَتْ كردفان، ما عدا جبال النوبة التي لا زالت تتمتع بالحرية، إلى خمسة مراكز على رأسٍ كل مركز كاشف أو رئيس تحت سلطة زعيم أكبر هو الحاكم المقيم بالأبيض. لقد أخضع الدفتردار كردفان لإدارة ظالمة تفوق حد الوصف، مِمَّا أدى إلى اختفاء كل مظاهر الرخاء والثراء الذي تمتع به أهل الإقليم. فذهبتْ خيرات البلاد وأملاك المواطنين ومدخراتهم غنيمة للدفتردار وجنوده مِن الأتراك، مِمَّا حدا بالقبائل للهجرة إلى دارفور وجبال تقلي. ففي عام 1833م نجد أنَّ ستة قري قد هجرها سكانها تماماً. ومِن ثَمَّ صار سكان كردفان في فقرٍ مدقع وبؤس شديد ما عدا قليل مِن التجار الجلابة. في ذلك الأوان كانت تسكن كردفان القبائل الآتية: غديات، جوامعة، بديرية، شويحات، تمام، اوقنديات، برقد، ضباب، مكادة، برياب، حسانية، هوارة، فلاتة، دناقلة، دار حمر، أبو سنون، دار حامد، سرار،

فريح، بزعة، مرامرة، أولاد عنج، كواهلة، كبابيش «شيخ صالح»، بني جرار، هبابين «شيخ عبد المحمود»، حوازمة «شيخ موسي»، مسيرية «شيخ الأبيض»، كنجارة، برقو، ناس جفون. ويمكن تقسيم التركيبة السكانية للإقليم إلى ثلاثة أقسام رئيسية هي: الزنوج، البقَّارة، العرب الأحرار والدناقلة. هذه المجتمعات القبلية بينها تباين واضح إلى حدٍّ ما، وتتكلم أكثر مِن (13) لهجة ولغة.

إنَّ سكان كردفان في ذلك العهد كانوا يقدرون بـ (40) ألف نسمة إذا استبعدت الرعاة مِن البقَّارة. ولقد عمل الدفتردار ما في وسعه لتخفيض هذا العدد مِن السكان، بالقتل والهرب مِن بطشه بالهجرة. فاسم الدفتردار يعني لسكان كردفان الإرهاب، وقد سيطرتْ على الإقليم شخصيته القاسية المتعجرفة إلى حد يفوق الوصف، لما ارتكبه مِن أفعال لا إنسانية ووحشية يرجف لسماعها الرجال، كُلُّ ذلك فقط لإرضاء نزعاته التسلطية. لم أكن لأُصدق كُلَّ القصص التي تحكي عن قسوته، لولا أَنْ أجمعت على روايتها كُلُّ المناطق المختلفة التي زرتها في كردفان وسنار ومصر، ومِن أُناس شهود عيان، بل مِن الذين عانوا مِن قسوته وبطشه؛ لذا أجد لنفسي العذر لتصوير بعض سمات شخصية هذا الجشع الذي لا رحمة له، بهذا المَرويِّات التي كانت شاهدة على إقليم كان يزخر بالرخاء الوفير فقد كُلَّ ثروته في زمن قصير نتيجة لسياسة القمع والجشع:

1. لقد سرق أحد جنود الدفتردار خروفاً مِن مُزارع، وعندما لم ينجح المُزارع في استرداد خروفه، اشتكي للدفتردار علَّه يجد عنده الإنصاف والعدالة. وعند جلسة الاستماع حكي المزارع قصة سرقة خروفه بواسطة الجندي، وكان الدفتردار يستمع للمزارع بكل صبر وأناة. وعندما انتهي المُزارع مِن السرد بادره الدفتردار برد عجيب: لقد أزعجتني بهذه الترهات! فالتفت للحضور وأمر فوراً بإحضار القاضي، يقصد بذلك المدفع، وعند إحضاره أمر بأَنْ يُرْبَط المزارعُ التعس أمام فوهة المدفع،

وأُطْلِقَتْ عليه النارُ.

2. يتنوَّع خدم الدفتردار الخاصين مِن الرقيق والعرب الأحرار والأتراك. لقد حدث ذات مرة أنْ أدخل أحد الخدم أصبعه في طعام مُعَد للدفتردار لاختبار مذاقه. ولسوء حظه شاهد الدفتردار فعلته، فما كان منه إِلَّا أنْ أمر بتسمير الخادم المسكين على الباب مِن لسانه، ومسح وجهه بالعسل لإثارة شهيته، واستمر الخادم المسكين ساعتين على هذه الحالة، فعندما انتزع المسمار مِن لسانه احتاج لعدة أدوية لعلاجه.

3. على حسب العادة المتبعة في مصر عندما يكون الحاكم ماراً في المدينة ممتطيا حصانه، يتبعه السائس مِن الخلف ويسير على حسب سرعة حصان الحاكم. لقد صدف في إحدى جولات الدفتردار في مدينة الأُبيض أنْ كان سائس حصانه مرهقاً مِن التعب، ولم يستطع مسايرة الحصان، فتخَلَّف عنه، فما كان مِن الدفتردار إِلَّا أنْ ضربَ السائس بسوط الحصان، ولكن السائس مِن التعب لم يضاعف سرعته، فأمر الدفتردار سائسين كانا بصحبته بربط السائس الكسول في ذيل الحصان مِن قدميه، فسحبه الحصان، وعلى ظهره الدفتردار طائفاً به مدينة الأُبيض، وعلى أثر ذلك تَفَسَّخَ ظهر السائس المسكين. ولما كان الحصان لم يتعوَّد على هذا الفعل دار فجأة وركل السائس المسكين، فما كان مِن السائس إِلَّا أنْ استجمع قوته وضربَ برأسه الحصان في شفته العليا التي جرحت مِن أثر ذلك، ولم يلاحظها أحد، فتورم رأس الحصان فكانت سبباً في موتِهِ. ولكن فعلة الدفتردار الشنيعة سببت للسائس المسكين عاهة مستديمة.

4. لقد حدثَ أنْ ضربَ رجلٌ جاره لكمة في أذنه، فتقدَّم المجني عليه بشكوى للدفتردار، فأُحْضر الجاني أمام الدفتردار. فسأله الدفتردار: بأي يد ضربته؟ فقال: باليد اليمني، فأمر الدفتردار بسلخ راحة اليد اليمنى، وأصبح بسبب العقوبة المنزلة عليه يتلوى مِن الألم، وقال للدفتردار: بهذه الطريقة لا يمكن أن أعمل. فردَّ عليه الدفتردار بغضبٍ

شديد كيف تجرؤ على الاعتراض على حكمي؟ فما كان مِن الدفتردار إِلا أنْ أصدر عليه عقوبة ثانية بقطع لسانه، ونُفِذَّ قطع اللسان فوراً.

5. لاحظ الدفتردار أنَّ أحداً كان يسرق مِن تبغه الخاص في غيابه، فاتجه اتهامه إلى خادمه الخاص. فما كان من الدفتردار إِلَّا أن سجن ذبابة في صندوق التبغ الموضوع في غرفته الخاصة، وذهب إِلى غرفة أخرى وطلب مِن الخادم إحضار بعض الأشياء التي يحفظ فيها التبغ، ففتح الخادم الصندوق وأخذ قطعة تبغ فطارت الذبابة. فرجع الدفتردار إِلى الغرفة وفتح صندوق التبغ ولم يجد الذبابة، فما كان منه إِلا أنْ سأل عن ذبابته، فاعترف الخادم أنَّه فتح صندوق التبغ وكان يسرق التبغ؛ فأمر الدفتردار بضرب الخادم حتى الموت.

6. حدث أنَّ أحد الرقيق شرب لبناً مِن امرأة بائعة اللبن، ولم يدفع لها ثمن اللبن والذي كان بخمسة قروش؛ فاشتكت المرأة للدفتردار الذي صدف أنْ كان في زيارة لجيران منزل بائعة اللبن، فأمر الدفتردار بإحضار الرقيق الذي شرب اللبن مِن المرأة. فأنكر فعلته، فأمر الدفتردار ببقر بطنه ليتأكد إن كان بها لبن، ووجد اللبن فدفع الدفتردار 5 قروش ثمن اللبن.

7. احتفظ الدفتردار في حديقته بأسد، وبطول المدة صار الأسد أليفاً، فكان يتجوَّل في الحديقة طليقاً يتبع سيده كالكلب. وقد جعل منه الدفتردار لعبة لتخويف واختبار شجاعة مَن يزوروه. فكان عند عبور الزائر للحديقة يرى فجأة الأسد طليقاً؛ فيحتار أيقوم بالهرب خوفاً، أم ينتظر الموت بشجاعة. وعندما علم مواطني الأبيض بهذه اللعبة السخيفة كفُّوا عن زيارة الدفتردار في داره. فما كان منه إِلَّا أنْ أمر حرسه بإحضار أي شخص عابر سبيل لينفذ عليه لعبته، وسيء الحظ مَن يُقْبَض ويُؤْتَى به. فإحضاره للدفتردار كان كافياً ليشعر انه سيفقد حياته، وكان مَن يدخل يأتي زاحفاً على قدميه رهبة وخوف، فما أنْ يراه الدفتردار حتى يرسل له الأسد، فيسقط الشخص فاقداً الوعي خوفاً مِن الأسد. فقد

كانت هذه اللعبة السخيفة هي قمة متعة الدفتردار، رغم أنَّ الأسد الأليف لا يعتدي على شخص. ولكن هذه اللعبة السخيفة كانت كافية لإخافة أشجع الشجعان.

8. قصة أخرى للأسد الأليف مع مساعد حارسه. فقد اشتكي رئيس الحراس أحد مساعديه للدفتردار لجرم ارتكبه. فما كان مِن الدفتردار إلَّا أنْ وضع مساعد الحارس المسكين داخل عرين الأسد ليأكله، ولكن للدهشة بدلاً مِن أنْ يأكله قام الأسد بلحس يديه تعبيراً عن الملاطفة والمودة، رغم أنَّ مساعد الحارس لم يكن مِن الذين يخدمون الأسد. ولكن سبب المودة هذه أنَّ مساعد الحارس في ذات مرة كان عابراً أمام عرين الأسد، فما كان منه إلا أنْ أطعم الحيوان قطعة خبز. فاختزنها الحيوان الوفي في ذاكرته وردَّ لمساعد الحارس الجميل بأحسن منه. عند سماع الدفتردار بحكاية الأسد مع مساعد حارسه بدلاً مِن أنْ تدخل السرور على نفسه، تحركت لديه غريزة سفك الدماء، وأمر بحبس الأسد جائعاً في عرينه طوال اليوم، ثُمَّ أدخل مساعد الحارس للأسد الجائع. ولكن للدهشة ظل مساعد الحارس طوال اليوم مع الأسد الجائع في عرينه ولم يمسه بسوء، وفي النهاية أفرج عن مساعد الحارس. ولحظ مساعد الحارس العاثر رآه الدفتردار ثانية في الحديقة ينظف الحشائش، فقال له غاضباً: أنت لم يأكلك الأسد؟! إنَّ اليوم هو آخر يوم في حياتك، وستحفر قبرك بيدك. فأمره بجمع أوراق الأشجار الناشفة ووضعها في فرن، وأمره أنْ يدخل فيها زاحفاً، ثُمَّ أشعل فيه النار، فكانت نهاية مأساوية لمساعد الحارس المسكين.

9. إنَّ أحد المُزارعين كان مطلوباً للحكومة بمبلغ 40 مليماً، فقام شيخ قريته بمصادره ثوره الوحيد مقابل تسديد دين الحكومة، وأتى بجزار قام بذبح الثور وقسم إلى 40 كوم، الكوم بمليم واحد والجلد والرأس للجزار نظير أتعابه. فاشتري سكان القرية اللحم. فما كان من المزارع إلَّا أنْ اشتكى للدفتردار، وأكد له ان ثوره قيمته أكثر مِن 40 مليم. وفي

الحال ذهب الدفتردار للقرية للتحقيق عن صحة ذلك في الموقع، فاقتنع بصحة حديث المُزارع، وفي الحال أمر بإحضار شيخ القرية والجزار، وكُلَّ مَن اشتري مِن لحم الثور. فوبخ الشيخ على فعلته غير القانونية أمام الجميع، بعدها أمر الدفتردار الجزار بذبح الشيخ وتقسيم جثته إلى 40 كوم، وأمر الأربعين الحضور أنْ يشتروا كُلّ كوم بمليم ويأخذوا معهم الكوم لمنازلهم. وجُمِعَتْ النقود فدُفِعَت تعويضاً للمزارع عن ثوره المذبوح.

10. في عيد الأضحى اجتمع الخدم وسائسو الخيول الذين بلغ عددهم 18 فرداً. فوقفوا أمام الدفتردار كالعادة المتبعة في هذه المناسبة لتهنئته وطلب الأحذية الجديدة. فردَّ عليهم إنكم سوف تنالون طلباتكم، فما كان منه إلَّا أنْ نادي البيطري فأمره بصنع 18 زوج حدوة أحصنة حسب مقاسات الخدم. فكانت جاهزة في اليوم التالي، فأمر بتركيب حدوتين في رجلي كل مِن الخدم، وقد تم تنفيذ أمره بلا رحمة. على إثر ذلك مات منهم تسعة بعد تَعَفُّن جروحهم وأصيبوا بالغرغرينا، أمَّا باقي الناجين فقد أمر بعد فترة بخلع حدواتهم، وأرسلهم للطبيب لمعالجتهم.

وكذلك هنالك مَن بُتِرَت أعضاؤهم بطريقة غير إنسانية، بأوامر هذا الحيوان المفترس اللابس جلد إنسان، وكل مَن وقف أمامه ظالماً أو مظلوماً يناله العقاب، فبشاعة وقسوة هذا البربري التي أذاقها لسكان كردفان يمكن أنْ يكتب فيها مجلدات. وقد سمع به كُلّ مَن في سنار ومصر. فلا يمر يوم دون أنْ يقع جزاء على إنسان مِن هذا القاسي المتعطش للدماء. فقد كان يتفنن في ابتكار صنوف العذاب على الضحية التي تقع في يده، وقد برع في إرضاء مزاجه الانتقامي. وسوف يظل اسمه لسنين عديدة مقرونا بالقسوة والإرهاب في كردفان وسنار ومصر، ولن يُمْحَى مِن الذاكرة الشعبية، وسوف يُرْعِب اسمه كل مَن يسمع به في هذه الأقطار. كانتْ تصل محمد علي باشا شكاوى وظلامات كثيرة ضد هذا الطاغية المستبد، فأرسل له

صحن مسموم على سبيل التخلص منه. وكثيراً ما نرى اليوم ضحاياه الذين نجوا مِن الموت يتجولون في كردفان، شحاذين مقطوعي الأذنين أو اللسان أو أُنْتُزِعَت أعينهم مِن محاجرها.

بعد ذكر هذه الروايات المختصرة عن أفعاله، يمكننا أنْ نتخيَّلَ أفعال السوء التي وقعتْ على سكان كردفان مِن جراء سوء الإدارة عندما خضعت لسلطان الأتراك. فقبل حلول الأتراك كان السكان يعيشون على الفطرة والسجية، لم تكن قد غزتهم أمراض الشعوب الغازية، لم يكن الناس في كردفان قبل الأتراك يعرفون القيود، بل العيش في حرية تامة، فالإنسان آمن على روحه وممتلكاته، فعندما أخضعهم الأتراك لسلطانهم حدثتْ تغييرات كبيرة، ظهرت الملكية وتحديدها، وصادرتْ حكومة الأتراك كُلَّ ما في البلاد، علاوة على مسلك الدفتردار غير الإنساني الذي أوصل السكان لحافة اليأس والقنوط. فصار كُلّ مَن يمتلك قليل ثروةٍ أو بضائع أو نقود أو ماشية، يمكن أنْ تجر له شبهه تقود لإعدامه حتى تسهل مصادره ممتلكاته. لقد كان الدفتردار شرهاً نَهِماً نحو المال، فسطا على كل شيء وقع على عينه، أو نجح في التعرف على المكان الذي خُبِّئ فيه، مِمَّا مَكَّنَه مِن جمع ثروة طائلة تفوق حد الخيال في فترة وجيزة مِن الزمن. كانت السلطة في مصر عندما تصلها أنباء قسوة الدفتردار وضباطه تتعاطف مع الشكاوى؛ مِمَّا حدا بها لإرسال لجنة لكردفان للنظر في استعمال الضباط السيئ لسلطاتهم، ولكن لبعد المسافة، لم تتمكن اللجنة مِن أداء مهامها على الوجه الأكمل، بالقيام بإزالة الجور والظلم الذي لحق بكردفان وأهلها.

(3)
الحكومة

إنَّ نظام الحكم الذي أقامه المصريون في كردفان هو صورة طبق الأصل لشكل الحكم في أي مكان خضع لسلطانهم، والذي يتسم بالاستبداد والطغيان. أمَّا المواطنون في المديرية فقد تعرَّضُوا لنوع خاص مِن الضغط والاضطهاد كما قمتُ بذكره سابقاً، وسبب ذلك بُعد المسافة بين كردفان والحكومة في مصر. فالمتظلم يجد صعوبة كبيرة لكي يتقدَّم بشكواه للسلطة المركزية في القاهرة. وسكان المديرية يحسون أنَّهم أكثر شقاءً مِن سكان سنار ودارفور، وأنَّهم في خطر دائم على ممتلكاتهم وأرواحهم. فمقارنة حال السكان الراهنة بسابقها مِن رخاء ويسر حيثُ كان كُلّ النساء يتزين بالذهب، نجد أنَّ هذه المظاهر قد اختفتْ عندما خضعتْ البلاد للدفتردار.

لا توجد في دارفور ضرائب أو عوائد، والتجارة حرة، فالبلاد كلها في ثراء واضح للعيان. أمَّا كردفان فتعرَّضَتْ للضرائب وأنواع شتي مِن الضغوط، تراجعت بها حالة السكان إلى الفقر المدقع. مِمَّا أوحى للأذهان بالمثل الذي يضرب في وصف قسوة الحكام الأتراك: «عندما يضع التركي قدمه في أي أرض، لا تنبت فيها الحشائش»، ومصدر كُلّ هذا الشقاء الذي أصاب الأقاليم وأهله، يرجع لشخص الدفتردار وحكومتهِ التي ليس هناك جهة عليا تسائلها، فكُلّ سكان البلاد تعرضوا للمحاكمات الجائرة والطغيان. ورغم أنَّ محمد علي استدعى الدفتردار للحضور للقاهرة، لكن ما تركه مِن قسوة واستبداد وطغيان، وما تعَلَّمه أعوانه مِن ذلك عَصي على الإصلاح. فلقد استنزفوا وسرقوا كُلَّ خيرات البلاد وثروات المواطنين. عندما رجع الدفتردار إلى القاهرة ترك على كردفان قائد الفيلق الأوَّل بالأبيض، الذي

كان يخضع له الكشاف بالمراكز ويوزباشي الفيلق الأوَّل، فالبيه مسئول للباشا في الخرطوم الذي هو حاكم عام بلاد السودان، والحاكم أو البيه هو السلطة العليا في كُلِّ الأمور المدنية والعسكرية، وقراره في كُلِّ الأمور نهائي، ما عدا بعض المسائل الهامة التي فيها يجبُ أنْ يصله التصديق مِن الخرطوم.

تعتمدُ الحكومة في دخلها على الضرائب والعوائد الجمركية. وهي لا تتحصل بمقدار محدود أو في زمن معين، ولكن على المواطنين أنْ يدفعوا مبالغ كبيرة في أي زمن، وبشكل قسري يؤخذ منهم بالقوة والقهر والإذلال. علينا أنْ نتخَيَّل حالة الإرهاب التي يفرضها ضباط الجيش الذين يتقاضون عمولة مِن مبالغ الجباية، فالضباط يتبارون في فرض الضرائب الباهظة على المواطنين، واستعمال القوة في جبايتها؛ ليقتطعوا منها نصيباً لأنفسهم لشراء الوظائف مِن الحاكم، وضمان ترقيتهم وتثبيتهم في وظائفهم. إذا رَشَا أحدُ الموظفين مبلغاً كبيراً مِن المال لطلب وظيفة يحتلها زميله، ما على الحاكم إلَّا خلع الأوَّل وإعطاء الوظيفة للموظف الراشي، وعلى الموظف أنْ يتحصَّل على أكبر قدر مِن المال مِن المواطنين؛ ليعطيه للحاكم، ولحماية نفسه مِن منافسيه مِن الموظفين الآخرين الطامعين في منصبه. فلقد كان كُلّ كاشفٍ أو يوزباشي في مركزه معه مرؤوسين على المحليات للجباية والبطش بالمواطنين. هؤلاء المرؤوسين ومشايخ البلاد عليهم أنْ يحضروا لمقابلة الكاشف بانتظام للرشوة وتعريفه بأحوال البلاد، وكذلك الطبقة الدنيا مِن الموظفين لا يفوتهم نصيبهم مِن الرشوة عند مقابلة الكُشَّاف أو الحاكم، فعلينا أنْ نتخَيَّل الحالة المزرية التي يعيشها سكان كردفان التعساء تحت ظل حكم طاغي جائر، مستبد همَّه إنهاك المواطنين، ونهب ثروات البلاد بجباية الضرائب.

كان محمد علي يعلم بمخازي حُكَّامه في السودان، ولكن بعد المسافة بين القاهرة والخرطوم كانتْ العامل المساعد على ذلك، وليس في مقدوره مقاومة فساد حُكَّامه في البلاد. فقد أرسل لجنة مساءلة طافتْ البلاد في عامي 38-1839م وقامتْ باستجواب الموظفين ونقلهم مِن مواقعهم إلى

مديريات أخرى، بغرض إشاعة شكل مِن أشكال العدالة، ولكن بعد حين رجع الفساد كما كان سابقاً. ورغم النية الحسنة التي أبداها خَلَف الدفتردار، إلَّا أنَّه لم يكن قادراً على علاج سرطان الفساد الذي استشري في البلاد، ورغم أنَّ الممتلكات المنهوبة وما كسبه الموظفون بغير وجه حق قد صُودِر؛ فان المستفيد هو خَلَف الدفتردار، وليس المواطنون لأنَّها تصادر لصالح الحاكم. فالإصلاحات الإدارية لم تُغَيِّر شيئاً، والأمور لم تسر في مسارها الصحيح. فمن الصعب مراقبة الضباط المنتشرين في البلاد كُلّ فردٍ لوحده، والذين أذاقوا المواطنين الكثير مِن المعاناة. إنَّ محمد بيه لم يبذل الجهد الكافي، ولم يكلف نفسه عناء إصلاح حال المواطنين، رغم أنَّ جواسيسه يملؤون البلاد ويرسلون كُلَّ معلومة لحاكم السودان عن مسلك الضباط وأعمالهم، ويصادرون كُلّ مالٍ منهوب لصالح حاكم كردفان والحكومة. ولا ينال المواطنون أي تعويض عن الضرر الذي لحق بهم. لقد كانت مصالح الضباط مختلفة، كُلٌّ يريد المالَ المنهوب لنفسه، فهم في تناحرٍ مستمر. وكذلك القضاء كانوا مرتشين، وأي نقل أو تحويل أو فصل مِن وظيفة، يمكن أن يثير القلاقل وسط الضباط. فالجهاز الحاكم في كردفان عند اكتشافه ضابط متلبس بخيانة يحاكم، ويبعد لمكان ابعد من موقع جنايته، لكيلا يعلم مَن القاضي الذي يحاكمه ومَن الذي اتهمه، وهذا يعتبر كَنَفْي، فيصادر ما سلبه ونهبه لصالح الدولة. ومَن يخلفه يعاود السير في طريقه مِن نهبٍ وسلب لمواطني كردفان، ويجمع أكبر قدر مِن الثروة لنفسه في مدةٍ وجيزة، مع المحافظة الشديدة على أسراره وأفعاله؛ لكيلا تدور عليه الدائرة. إنَّ المَظْلَمة الحقيقية هي معاملة حاكم كردفان لحكام المراكز، فقد كان يعاملهم بلين ويصبر على ظلمهم للمواطنين وقسوتهم ولا يتعمد إثارتهم لأنَّه يعلم علم اليقين أنَّه إذا لم يقبض حكام المراكز على السلطة بقوةٍ وعنف، فإن المواطنين في كردفان سوف يثورون، فتعم الثورة كُلَّ بلاد السودان ومِن ثَمَّ يفقد السُّودان.

فالجنود الأرقاء في الحاميات يطيعون مَن يُلَبِّي رغباتهم أو يعدهم

بالمغنم أو يعاملهم معاملة طيبة. لقد سئم سكان كردفان محمد بيه، وهم لهم قناعة تامة أنَّه سبب التعاسة والقسوة التي تئن تحتها البلاد، والتي لا يمكن أنْ تكون إلَّا تنفيذا لأوامره. فكان محمد بيه يتحاشى الإثارة ضد الحكومة، لأنه يعلَم أنَّ أي شغبٍ أو تمرُّد على الحكومة أو حرمان الجنود مِن نصيبهم في الضرائب التي يجمعونها، فإنَّه يمكن أنْ يتحدوا ضده، ومِن الصعب على الحكومة تطويع الشعب بالقوة المسلحة، ومِن ثَمَّ يصير ذلك أكثر عناء ومشقة مِن الفتح الأول قبل عشرين عام. فنحن نعلم المقاومة والاستبسال والتضحيات التي قدمها السود في كردفان وسنار عند بدايات الفتح التركي، عندما كانوا مسلحين بالحراب والسيوف. واليوم يوجد مخازن سلاح بالخرطوم تصل إلى 15 ألف قطعة بندقية مسكيت، والتي إذا استولي عليها للمتمردين فإنَّها تعطيهم دافعاً قوياً للمقاومة. وكذلك فإنَّ محمد علي كان واعياً لحساسية الموقف في السودان، فهو يميل لاسترضاء حُكَّامه بالسودان. وكان حُكَّام السودان يستثمرون ذلك لصالحهم، ويقومون بنهب ثروات البلاد وممتلكات المواطنين وترويعهم وقتلهم.

بالطبع كان هناك قانون في البلاد، ولكن لا اعتبار له، إنَّما المحاكمات كانت تتم حسب النزوات والمزاج الشخصي لتحكم في كل المسائل القضائية. عند تواجدي شهدتُ حادثة هي أنَّ أحد التجار الأتراك كان يحمل بضائعَ كثيرة، وعند عبوره صحراء بيوضة أُعْتُدِي عليه فقُتِل ونُهِبَتْ بضاعته، فلم تفلح كل المحاولات في العثور على القاتل. ووُجِد أنَّ بضاعته قد بيعتْ في دارفور والقاتل اختفي في كردفان. فاعتقل أناساً كثيرين وتعرضوا للتعذيب، ولكن باءت كُلّ المحاولات بالفشل في العثور على القاتل. في الأخير أُلتُجِئ لامرأةٍ ودَّاعِية قالت إنَّ القاتل هو ابن شيخ الحرازة. وعند وصول الخبر للحاكم كان في جلسة استماع يدخن غليونه. والحاكم رجل رقيق العقل، لذلك قام بوضع ثقته في قول العجوز الودَّاعِية ولم يستعمل عقله وقرائن الأحوال. مما جعله يثبت التهمة على ابن شيخ الحرازة، الذي أُعْتُقِل وأُحْضِر للأُبَيِّض

مخفوراً ومكبلاً بالحديد وأودع السجن. عندما بدأ التحقيق معه فَنَّد ابن الشيخ حُجَّة الودَّاعِية، وأثبت أنَّه لم يكن في ذلك المكان وإنَّما في مكان آخر وله شهود على ذلك، لكن محمد بيه رجَّح تصديق رأي الوداعية، فَقُيِّدت بأمر منه رِجْلَا ويَدَا ابن شيخ الحرازة، ووضعه أمام نارٍ ملتهبة، وفي كل فترة فإنَّ حارسه يأخذ فرع ملتهب مِن النار ويكوي به جسد ابن شيخ الحرازة، إلى أن بلغتْ جروح جسمه 25 جرح، فذبل جسمه وتكرمش حتى صار كدودة الأرض، بعدها أمر محمد بيه بإيقاف التعذيب. بعد فترة مِن الزمن وبعد أن سئمَ ابن شيخ الحرازة سوء العذاب والحرق، توصلت السلطات إلى قاتل التاجر التركي. فأطلقتْ سراحه ولم يجبر ضرره ولم يُعَوَّض نظير ما لحق به. فقد كان حُكَّام الترك على درجة عالية مِن الغرور لا تسمح لهم بالتنازل والاعتراف بالخطأ.

إنَّ حُكَّام الترك سريعون في المحاكمات وإصدار الأحكام وتنفيذها، لا يتركون لأي متهم فرصة للتفكير أو الدفاع عن نفسه. فعندما يقبض على متهم تُعْقَد له محاكَمة فورية وينفذ فيه الحكم. فإذا قُبِضَ على شخص متهم واعترف بذنبه طُبِّق فيه الحكم على عجل، فإذا أنكر أُرْسِلَ للتعذيب لانتزاع اعترافه قسرا. فنجد ان البريء لا ينجو من عذاب الحُكَّام الأتراك، فإذا حدث أنَّ عبداً سرق ثوراً أو جحشاً أو جملاً يُحاكم فوراً بقطع اليد وينفذ الحكم حالاً، فيؤتى بأي جزارٍ يكون عابر سبيل أو متواجد صدفة فينفذ عملية القطع، فيأمر المتهم بمدِّ يده على كتلة خشبية توضع مخصصة لذلك ويقوموا بتثبيتها عليها، ومِن ثَمَّ يقوم الجزار بقطع اليد، ثم بعد ذلك يدخل طرف باقي اليد المقطوعة في قدر به سمن يغلي لإيقاف النزيف وكَيّ الجرح، كُلّ ذلك يتم في 10 دقائق، بعدها يطلق سراح المتهم فوراً. وإذا كان المقتول عبدا فإنَّ القاتل لا يُعْدَم، ولكن حدثت سابقة واحدة في عام 1838م أنَّ قاتل رقيق ثبت عليه الجرم فأُعْدِم شنقاً وعُلِّقَ أمام منزل الحاكم. ولقد كان لهذه الحادثة وقع حسن في نفس محمد علي، على أنَّها شكل مِن العدالة وأنَّ

كردفان صارت دياراً آمنة، مِمَّا مَكَّن الرحالة الأوروبيين التجوال في البلاد بلا حراسة، عكس ما هو في دارفور التي لا يجرؤ أي جلابي التجوال فيها دون رفقة مأمونة. فصار في إمكان أي فرد أن يجوب فيافي كردفان مِن أقصاها إلى أقصاها منفرداً. كنتُ أنا نفسي أسافر أحياناً منفرداً أو بصحبة خادمي، ولم أتعرَّض للنهب أو يعترض سبيلي أحد، بل عكس ذلك كنتُ استقبل بحفاوة وتكريم ولطف، خصوصاً عندما يتضح لهم أَنَّنِي لست بتركي، وإنَّما إفرنجي لكن لوني أبيض، لكن أحياناً قد تحصل بعض أعمال اللصوصيَّة، وغالباً ما يكون اللصوص مِن الرقيق الذين يريدون الاستحواذ على كُلِّ ما تقع عليه أعينهم. فإذا لم يُعْطَ لهم مجاناً يراقبون ما يريدون سرقته حتَّى تحين لهم الفرصة المناسبة فيسطون عليه. وعلى العموم لا توجد مجموعات تشكل عصابات منظمة للجريمة.

أمّا جبل الداير الذي يسكنه الزنوج، والذي لم ينجح الأتراك في إخضاعه لسلطانهم، فهو مكان مرهوب؛ بسبب أنَّ سكانه مِن الزنوج يعيشون على السلب والنهب. فقد كانوا يقومون بغارات جماعية على جيرانهم، وكانت غاراتهم تصل حتى جبل الملبس الذي يقع على مسافة ثلاثة ساعات مِن الأبيض. ينهبون ما يجدونه في طريقهم مِن بشر وماشية، وكانوا يستعملون ما ينهبونه لاستهلاكهم الشخصي ويقوموا ببيع الباقي الفائض منه. لذا فالتجار الجلابة يتحاشون جبل الداير وسكانه، وكانوا يقيمون الزرائب ويضعون بها تجارتهم خوفاً مِن نهب سكان الداير.

إنَّ الجرائم التي يرتكبها الرقيق هي مِن اختصاص مالك الرقيق، فهو الذي يقوم بعقابهم على الجرائم وعليه معاملة رقيقه كأموال وماشية أو نحو ذلك، ولكن ليس كبشر، فلم تكن جرائم الرقيق يُفْصَل فيها في المحاكم. في حالة قتل أحد الرقيق رقيقاً آخر أو طعنه على المالك أنْ يُسَوِّي ذلك الأمر وهو الذي يتحمَّل الخسارة، إذا كان الرقيقان مِن ممتلكاته وداخل بيته فيفصل بينهما بالعقاب أو بالبيع. إِنَّ جرائم الرقيق تُعَامل نفس معاملة

جرائم الخيول في أوروبا، فإذا صدَفَ أنَّ حصاناً قتل آخر لنفس المالك لا عقاب على ذلك، ولكن إذا قتل رقيق آخر مملوك لشخص آخر تحول ملكيته لصاحب الرقيق المقتول أو يدفع تعويضاً عن المقتول. ولا يتدخل القانون إلَّا في حالة رفض دفع التعويض، أو دفع تعويض أقل مِن قيمته. ولا يُنْظَر للجريمة على أساس أنَّها جريمة قتل، وإنَّما إضرار بمصالح الآخرين، ولكن هناك حالة واحدة هي أنَّ أحد الأرقاء قتل فأُحْضر للقانون وأُجْرِيَت له محاكمة حُكِم عليه بالإعدام، فأُعْدِم حسب القانون.

إنَّ دخول الحكومة جميعها من المواطنين تُجْمَع نقداً أو عيناً ممَّا ينتجه المواطنون، أو ممَّا يملكونه مِن رقيق. فلم يكن هنالك نظاماً معيناً للجباية يحدد طريقتها أو كميتها أو ميعادها. فقط يتم فجأة فرض مبلغ للجباية، وعلى الكُشَّاف وشيوخ البلاد جمعه، ومَن يُشَكّ فيه مِن متحصلي الجباية عليه إرجاع ما أخذه فوراً، وإلا أُخِذَتْ من ممتلكاته وماشيته بالقوة الجبرية. في عام 1838م زيادة على ما فُرِضَ على البلاد مِن جباية نقدية أُضِيفَت جباية على الماشية والسمن والرقيق. أربعة آلاف أردب و180 جوال مِن الذرة أو الدخن، وعلى البقارة الرحل 12 ألف ثور وبعض العينيات الأخرى. وكانت الماشية تُؤْخَذ مِن سكان القرى عندما يتعسر عليهم الدفع نقداً. والحكومة تأخذ مِن المواطن عند عدم الدفع نقداً، الثور مقابل 35 قرشاً. ولسنوات عدة كان يرسل للقاهرة ثمانية ألف ثور أقرن معظمها تنفق في الطريق، بجانب اعتداء الحيوانات المفترسة عليها. ولما أُوقِف تصدير قطعان الماشية للقاهرة كانت تُبَاع في الخرطوم، ويرسل ثمنها نقداً إلى القاهرة. لقد كان المال المتحصل مِن الضرائب ومبالغ بيع الرقيق وما يُتَحَصَّل مِن منتوجات البلاد يفوق حد الوصف، وقد استعمل في جبايته قسوة تفوق حد الوصف أيضاً. وإنَّه لشيء مستغرب أنْ تكون الحكومة على استعداد لمزيد مِن استنزاف البلاد، رغم قلة التجارة التي لا تستطيع الإيفاء بهذه المبالغ الضخمة المقررة سنوياً. لكن حالة استنزاف البلاد لا يمكنُ أنْ تدومَ إلى

الأبد، فقد تناقص المال المتداول سنويا والتجارة في البلاد صارت بلا اعتبار. هذه الطريقة التي تعامل بها الحكومة المواطنين تجعلهم يجدون أنفسهم مرغمين على الهجرة، وهو ما أدى لتشكيلات جديدة بنسيج واحد لبعض التكوينات الاجتماعية. إنَّ هذا ينذر بحالة عصيان عام تؤدي إلى عصيان مسلح، ويمكن أنْ تحدث هذه الثورة في عام 1838م إذا وجدت مَن يقودها.

لم يكن الجفاف أو هطول الأمطار المتزايد الذي يدمر المحصول، أو الجراد الذي يقضي على المزارع في كل أقاليم البلاد، أو الأمراض الفتَّاكة التي تقضي على قطعان الماشية. لم تكن كل هذه الاعتبارات توضع في البال عند جباية الضرائب، لأجل أنْ تتم مراعاة المواطنين والرأفة والرحمة بهم، بل كان كُلّ هم جُبَاة الضرائب، جبايتها مستعملين في ذلك اشد أنواع التعذيب والتنكيل. ففي عام 1838م فشل الحصاد ولم يجني المواطنين حتى قوتهم الخاص، مما اضطرهم للهروب مِن القرى والعيش بما تبقي لهم مِن ماشية يطعمون بها أنفسهم مِن ثمار الهجليج والثمار الأخرى ولبن الماشية. لكن الحكومة التي همها جباية الضرائب لا تخف عليها خافية، ولا تعدم الحيلة في العثور على المواطنين الهاربين مِن الضرائب. لذا قامت باللحاق بهم وأخذتْ ماشيتهم. فالقرويون عندما لا يجدون ما يدفعونه مِن الماشية، كانوا يُرْغَمُون على البحث عن الرقيق لتسديد ما عليه مِن ضرائب رقيقاً عِوَضاً عن الماشية. لقد كانتْ الحكومة تُقَيِّم لهم الرقيق الواحد بين 150–300 قرشاً للشخص البالغ، والطفل بمبلغ 30 قرشاً. على أنْ يكون سعر البيع أقلَّ مِن سعر السوق الجاري. لأجل أنْ تترك فرصة للربح الأعلى عند البيع لمحمد علي باشا تاجر الرقيق الأكبر، وما ذلك إلا إرضاء لصلفه وقسوة معاملته. فالبلاد وصلت حَدَّاً مِن الفقر وشح الموارد، حتى صارتْ كُلّ المعاملات تتم بالرقيق الذي أصبح يُسْتَعمل مكان النقد، وهو ما حدا بجماعات في بعض المناطق للعصيان ضد الحكومة، وسوف يستمر هذا العصيان إلى أنْ يضع حَدَّاً لاصطياد الرقيق كما وعد مراراً وتكراراً. إنَّ محمد علي باشا سوف

يتوسع أكثر في تجارة الرقيق، لأنه يسعي لتغطية دخل دولته مِن الرقيق بدلاً عن النقود، في بلاد أنهكتها الضرائب وصار مِن السهل أنْ تجد عبداً ولا تجد دولاراً أو أي شكل من العملة. وهذه الحالة السيئة في تزايد مضطرد وغير مأمول إصلاحها. وعليّ أنْ أسال لماذا يقول الأوروبيون إنَّ محمد علي هو الذي عبر بالبلاد إلى مدارج الحضارة؟! عندما ننظر لتبريرات محمد علي باشا الذي بادعائه أنَّه وصي على البلاد مُرغم على سرقة الرقيق. لكن ذلك لن ينتهي في وقت محدد، وإنَّما على الزنوج الثورة عليه وهذا هو حجر الزاوية. فإذا حدث أنَّ أحد مواطني كردفان فقد أبيه أو أخيه أو صديقه في نزهة، فسوف يقع اللوم على الزنوج الأحرار ويسعي للانتقام بقتل أحد أقرباء الزنجي المتهم. إنَّ المنتقم يظهر قسوة ويلطخ نفسه بدماء الأبرياء. ولكن الجاني الحقيقي هو محمد علي؛ ولأجل ذلك يجب أنْ يتوقف ترحيل الرقيق إلى القاهرة. ولي قناعة تامة أنَّ الرقيق الذي يستلم محمد علي ثمنه نقداً في الخرطوم، أو أي مكان آخر يُبَاع للجلابة، ومِن بعد يُرَحَّل للحجاز التي تصلها يومياً الآلاف مِن الرقيق.

ومِن ملاحظاتي التي كونتها مِن ترحالي في البلاد، فإنني يمكن أنْ أُعطِي رأياً في إصلاح الأوضاع فيها، فهناك مصادر كثيرة لتغطية دخل الدولة مِن دون اللجوء والاستمرار في هذه الأساليب غير الإنسانية في اصطياد والتجارة بالرقيق، يمكن مثلاً زراعة قصب السكر بلا عناء كبير في حرث الأرض، وتربة البلاد غنية تستطيع أنْ تساعد في تنمية الأهالي. ويمكن أنْ تنتج محصولات عديدة، إذا اكتسب الأهالي بعض الخبرات، أيضاً فإنَّه لا يوجد شح بالمياه في كثير مِن المناطق، وفوق ذلك فإنَّ النيل الأبيض قريب مِن حدود كردفان، ويمكن أنْ تشق منه قنال لتروي أراضي كردفان، وهو ما يكلف فعله عدة ملايين ستساهم في ارتفاع وإصلاح أوضاع الإقليم. إنَّ مصر لا تحتاج إلى أكثر مِن 20 ألف رأساً مِن الماشية، لأنَّ في مصر ليس هناك شح في المراعي، ويجب أنْ يُعْهَد ترحيل الماشية لمصر لأناس ذوي مسئولية

ودراية، وتكون مسؤولية ترحيلها في عهدتهم الشخصية.

إِنَّ محمد علي باشا حتى الآن لم يولِ اهتماماً للاستفادة مِن غابات الصمغ في منطقة النوبة. فالصمغ يمكن أنْ يدر له ربحاً كثيراً وذا فائدة عظيمة، خير مِن صيد الرقيق البغيض. عند ذلك يكون محتاج لعُشر الجنود الذين يستعملهم في غزواته البغيضة، فيمكنه استعمال الجنود كمفتشين لجلب الصمغ، وإعطاء النوبة أجراً بسيطاً. بهذه الطريقة يصير النوبة وأهل كردفان يكسبون، ويمكن للرقيق أنْ يستمتعوا بحريتهم وتزداد ثقتهم في الحكومة، عندما يقتنعون أَنَّ الحكومة تعاملهم كأحرار وليس كرقيق، وبذلك يمكن أنْ تزدهر التجارة والزراعة وتكون محفزاً لتحسين الأوضاع، ويستطيع كل فرد ان يفي بالتزاماته حتى ولو كسب قليلاً، فيريح عن كاهله المشاكل التي تهدد حياته وحريته. إِنَّ جبال النوبة تنتج ما بين 10 إلى 20 ألف قنطاراً مِن أجود عينات الصمغ سنوياً؛ فخير لمحمد عليّ أنْ يكسب قنطارين صمغ بدلاً عن الرقيق الواحد، وهو يكون مكسب مضمون لا يكلفه صرف الكثير مِن المال.

بحضور محمد علي باشا للسودان فإِنَّه زار الخرطوم وسنار وفازوغلي ولم يزر كردفان، لكنه سمع كل الشكاوى واستجوب عنها وأقرَّ بكل الأعمال المخالفة وغير الشرعية، وحاكم كُلَّ مَن اقترف جرماً أو اشترك فيه، فعزل حاكم كردفان وكل معاونيه مِن الضباط، علاوة على تسعة ضباط آخرين. والأقباط قُدِّمُوا للمحاكمة وصودرت الممتلكات التي أُخِذَت بغير وجه حق. ولكن كما أبديتُ في ملاحظة سابقة، إِنَّ إجراء هذه المحاكمات المستفيد في نهاية الأمر منها محمدَ علي باشا، وليس المواطن. فعند مغادرته عادتْ طريقة الحكم السابقة، رغم أَنَّه ترك أوامر مشددة للحكم والحكومة والضباط بعدم التورط في استعمال القسوة مع المواطنين، لكن هذه التعليمات لم تكن كافية لمعالجة الأضرار التي لحقت بالبلاد مِن قسوة حكامه. عندما كان محمد علي باشا مغادراً إلى فازوغلي صادف قافلة رقيق

تَمَّ جلبها مِن الجبال قبل مُدَّةٍ قصيرة، فقام بتحريرها. وهنا نكتشف براعة محمد علي عندما نتساءل عن سبب فعلته هذه؟ السبب أَنَّه كان مِن ضمن حاشيته بعض الأوربيين. فأوامره المشددة بوقف بيع الرقيق لم تكن موجودة في كردفان. لقد كنتُ الأوروبي الوحيد في كردفان الذي رأي أربعة ألف من الرقيق متعاقد عليهم سلموا لأحد الرجال، ولقد رجاني الحاكم بلطف أَلَّا أذكر هذه الحادثة في أوروبا. يمكن بهذه الحلول إنعاش البلاد والتدرج في إخراجها مِن وضعها المزري، لكن ذلك لا يتأتى إِلَّا إذا أُبْتُعِثَ لكردفان حاكم لا يستعمل نفوذه لفائدته الشخصية، وإِنَّما خدمة للدولة ولصالح المواطنين كرجل قوي ودبلوماسي.

(4)

العادات والتقاليد

إنَّ أهل كردفان يسكنون في منازل تُسَمَّى التُّكُل، وهي منازل بسيطة الشكل تُشَيَّد مِن مواد محلية بسيطة، ويتراوح قطر كوخ التُّكُل ما بين 10–12 قدم، بشكل مستدير به باب واحد. وإذا أراد المرءُ دخولها فإنَّه يحتاج للانحناء لأسفل ليمرَّ مِن الباب، ولا يوجد بكوخ التُّكُل شبابيك، أو أي منفذ آخر غير الباب الوحيد. وأكواخ التُّكُل تشبه بعضها البعض مثل البيض في السلة، والواحد منهم لا يظهر أي شكل معماري، فهم توارثوا بنائه بهذا الشكل منذ قرون ولم يحدثوا فيه أي تعديل يُذْكَر. يتم بناء كوخ التُّكُل بأعمدة خشبية تُغْرَزُ في الأرض على شكل دائري حسب أبعاد التُّكُل، الرأس إلى أسفل والقرنين إلى أعلى، تجمع الأعمدة وتربط مع القصب فيكون كوخ التُّكُل على شكل مخروطي مثل رأس السكر. ومِن بعد يحزم رأس كوخ التُّكُل بحبل وتوضع به قفة مقلوبة لتمنع تسرب المياه داخله عند نزول الأمطار، والقصب المستعمل في بنائه يُجْلَب مِن سيقان غلة الدخن، والقفة المقلوبة في رأس كوخ التُّكُل تستعملها طيور السمبر المهاجرة كأعشاش عندما تأتي في شهري مايو ويوليو مِن كُلِّ عام، فطير السمبر يجد رأس كوخ التكل عشاً جاهزاً مِمَّا يجعله لا يكلف نفسه عناء بناء عش بنفسه. وكل ما عليه أنْ يبيض فيه ويفقس بيضه، وفي حال لم يوجد طائر سمبر يستغل رأس قفة كوخ التُّكُل كعش، فإنَّه توضع في القفة بيضة أو بيضتين على سبيل الزينة. رغم بساطة المواد المستخدمة في بناء كوخ التُّكُل إلَّا أنَّه يكون متين البناء، لكن عندما يكون الخريف غزير الأمطار تخترقه المياه فيبتل ما بداخله، فلا يكاد يجد الشخص مكاناً بداخله يقيه شر مياه الأمطار. إنَّ كُلَّ أسرة

تحوز على كوخ تكل واحد، أحياناً يتكون المنزل الواحد مِن خمسة أكواخ تُسَوَّر بالشوك، ويكون بابه مقفول بفرع شجرة شوك كبيرة تظل مقفولة دائماً، ولا يتم قفل السور بسبب الخوف مِن اللصوص أو أي اعتداء آخر، إنما خوفاً مِن الجِمَال الجائعة التي يُمكن أنْ تلتهمَ مبنى كوخ التُّكُل إذا وجدته في أي مكان، بسرعة وجيزة ولا تترك خلفها إلَّا هيكل التُّكُل. هذا السياج الذي يُضْرَب حول أكواخ التُّكُل يكون خطراً إذا ما اصطدم به الغريب مِن خارج المنطقة، فشوكه يسبب نزيفاً ويخترق كل موضع في الجسم ويمزق الملابس. إنَّ تكلفة بناء هذه المنازل بسيطة جِدَّاً، وفي مقدور الإنسان الفقير أنْ يشيد كوخَ تُكُلٍ بلا تكلفة، فأعمدة الخشب تقطع مِن الغابة بلا تصديق أو ضرائب، والقصب يجلب من المزارع، والذين لا يزرعون يشترون القصب مِن المزارع. وتكلفة كوخ التُّكُل تكون بين 4-10 قروش، وهي تكون كافية لجعل السقف متيناً، وتمنع تسرب المياه في الخريف الغزير الأمطار. عند تشييد كوخ التُّكُل يجتمع الجيران لتقديم يد العون. أيضاً عندما يُرَاد تحويل كوخ التُّكُل مِن مكانه لمكان آخر، فإنَّ هذه العملية تحتاج لتعاون مِن 10-12 شخصاً، وتتم العملية على جزئين: يُنْقَل الجزء الأعلى المكون للسقف، ثم الجزء الأسفل الذي يكون الجدران. وهذه العملية تتم بخفة وفي زمن وجيز. أمَّا في حالة اشتعال النار في كوخ التُّكُل فإنَّهم لا يهتمون بإطفاء الحريق في الكوخ الذي شب فيه، بل يتركوه لتقضي عليه النار، ويهتمون بدلاً عنه بإنقاذ أكواخ التِّكَال المجاورة له لكيلا تصلها النيران.

يمكن لغزو حشرة القُرَاد أَنْ يُسَبِّبَ انتقال القرى مِن مكانها، لمكان أبعد لا تصله هذه الآفة، ويتم ذلك بأن تُحْمَل أكواخ التِّكَال على الأكتاف. وحشرة القراد تكمن داخل الرمال وتخرج منها لتهاجم الإنسان الجالس على الرمال. وعندما تصاب منطقة بغزو القُرَاد، فإنَّه يخرج مِن الرمال بكميات كبيرة مهاجماً الإنسان والحيوان. والجِمَال تهاب هذه الحشرة، وتهربُ مسرعةً لا تتوقف إلا في مكان لا يوجد به قُرَاد. ولكي يتحاشى الإنسانُ هذه الحشرة

عليه إِذا جلس على الأرض أنْ يجلس على بساط مِن القصب.

نجد أيضاً كذلك لكل أسرة كوخ تُكُل منفصل يسمى المُرْحَاكة. توضع فيه حجر المُرْحَاك المُضَلَّع على الأرض، وتُدْرَش تحته غلة الدخن عن طريق تمرير الحجر الاسطواني الشكل حتى يتحوَّل إلى دقيق. عادة تقوم بعملية الدرش هذه أنثى مِن الرقيق، وكل أسرة يصل عدد أفرادها إلى ثمانية لها أنثى مِن الرقيق تستخدمها في عمل المرحاكة لطحن دقيقها طوال العام. وتتطلب عملية طحن المرحاكة مجهوداً عضلياً مضنياً، غالباً ما تقوم به فتاة رقيق في الرابعة عشر مِن عمرها، لأَنَّ صغار السن لا يقوون على مثل هذا العمل، وحتى الكبار لا يقوون أحياناً على هذا العمل. فطحن المرحاكة يحتاج لجهد مضني لتحريك الحجر الاسطواني طوال النهار مِن الأمام، وبالعكس إِلى الخلف، وتظهر فِي وسط كوخ تُكُل المرحاكة الفتاة المسكينة وهي تعمل وتتصبب عرقاً، مُسَلِّية نفسها بالغناء طوال النهار، وكلمات غناء فتاة المرحاكة تُعَبِّر عن رغبتها فِي الهروب، أو معاناة الانتظار الطويل للعودة لوطنها، وأسلوب الغناء غريبَ يُعَبِّرُ عن مشاعر المغنية، ويكون على وتيرة الغناء الشرقي لا يراعي فيه ضبط الإيقاع والنغم. تتعلم الفتيات الغناء مِن بعضهن البعض، وتوجد فتيات لهن أغانيهن الخاصة بهن. بالنسبة للرقص عند الأهالي فمع تغير حركة اللحن تتغير حركة الجسم الراقص، وينشد صغار البنات مِن الرقيق إنشادهن الغنائيّ بصوت خافت يكاد لا يُسْمَع في المنزل المجاور، وكمثال للغناء لديهن:

الشَّمسُ تختبئُ خلفَ التلالِ
تُنَادِي النَّاسَ للرقصِ والمرحِ
الأَبقارُ حُلِبَتْ
العملُ قد انتهى
أوقدْ النارَ
حبيبي آتٍ؛ ليأخذني إلى المنزل...

عندها فإنَّ الدموع تنهمرُ مِن أعين الفتيات أثناء أداء هذه الأغنيات الحزينة اللاتي يتذكرن فيها تلال بلادهن. ولكن الزمن كفيلٍ بمحو حزن هؤلاء المسكينات، فبعد سنتين أو ثلاثة سوف ينسون كُلَّ شيءٍ، وقليلات منهن مَن سيفكرن في أوطانهن مِن جديد. في مصر قابلتُ بعض الرقيق من الرجال والنساء الذين نسوا أوطان آباءهم، خاصة عندما يجدون معاملة حسنة لم تتوفر لهم عند آبائهم الحقيقيين. فمِن السهل عليهم تبني عادات وسلوك المجتمع الذي أُجْبِرُوا سابقاً على العيش فيه، ويتصرفون كأنَّهم أصليون في بلاد الاستعباد، ومِن ثَمَّ نجدهم يسخرون مِن كُلِّ وافدٍ جديد يتبنى سلوك موطنه الأصلي.

بمنازل المتزوجين نجد دَكَّة مرتفعة نحو قدم ونصف يوضع داخلها إناء فخاري له عنق يسمى الترانكول، يحرق فيه خشب الطلح والكليت لتدخين جسم المرأة؛ ليكسب رائحة عطرة ومقوي للجسم، أيضا يتم فيه تعطير الملابس بالصندل بتعريضها للدخان. ودائماً ما نجد الأثرياء والموسرين بالقرية يكونوا مِن الشيوخ أو الجلابة، وهم يشيدون في منازلهم بالإضافة لكوخ التُّكُل راكوبة، وهي بناء كبير ذو بابين للدخول والخروج منها، ولكنها لا تقي المطر لأنَّ سقفها وجنباتها غير كثيفة، ويتم استخدام الراكوبة لاستضافة المسافرين الذين يفدون ضيوفاً على القرية، لأنَّ كوخ التُّكُل يستعمل في الخريف، أمَّا في الصيف وبقية الفصول الجافة فيستلقون في ساحات المنازل. بالنسبة للمنازل في بارا والأبيض التي يسكن فيها الأتراك والدناقلة، فهي منازل فسيحة ومريحة ومشيدة على طريقة المنازل في المدن المصرية. والمنازل في بارا أكثر متانة مِن منازل الأُبيض التي تبنى مِن المواد الرملية، فإذا أراد معماري أوروبي تشييد منزل مِن هذه المواد لدخل في حيرة كبيرة، لأنَّ مكوِّنَات مواد البناء هي الرمل والحطب. فكما يبني طائر الخطاف عشه من أي خامة واحدة متاحة ويصير صلباً كالحجر، فعلى هذه الشاكلة تُشَيَّدُ المنازل في مدينة الأُبيض، ولكنها لا تصمد طويلاً في مقاومة تقلبات

الطقس، ورغماً عن ذلك توفر لسكانها ملاذاً آمناً. لقد لاحظتُ في بلاد الشرق أنَّ كثيراً مِن الناس يشيدون منازل أنيقة من القليل. نجد أن منزلاً مُشَيَّدَاً مِن طابقين تكون مادة بنائه مِن التراب، ويتم بنائه في أربعة أسابيع أو ستة، وتكون حوائطه مدعمة بإطارات خشبية مع طوب لتقيه عند حدوث الكوارث، بعد أنْ يحدد الشخص قطعة الأرض التي يريد تشييد منزله بها، يقوم أولاً بإزاحة التربة إلى عمق نصف قدم. هذه الرمال المستخرجة تستعمل لاحقاً لتشييد البناء، بعد خلطها بالمياه التي تستجلب مِن البئر. بعدها يتم تشييد الأساس الذي يرتفع إلى علو قدمين ثم يترك لمدة يومين حتى يجف ويكتسب المتانة اللازمة. هذه الإجراءات مهمة، مثلاً عندما يُرَاد تشييد منزل تُوضَع كُلَّ الأجزاء في مكان واحد، ومِن ثَمَّ تبدأ عملية البناء حتى يصل الارتفاع المناسب، وبجانب إحدى الحوائط يبنى السلم عندما يكتمل بنائه وتكون حوائطه قد جفت ثم يوضع العمود الرئيسي، وبعد ذلك ترص عليه الأعمدة الصغيرة، ومِن بعد ذلك تُبسط قطعة على مساحة الغرفة المراد سقفها منسوجة من القش، تُفرش عليها طبقة مِن الرمل مرطبة بقليل مِن الماء، ثُمَّ طبقة الحصا الخفيف، ويدق السقف حتى يلتصق بعضه ببعض ويصير أكثر قوة وتماسك. ورغماً عن ذلك فإنَّ البناء على هذه الشاكلة يمكنُ أنْ ينهار عند نزول أول الأمطار إنْ لم تُتَخَذّ إجراءات تحوطية ببلطه بروث الأبقار، وهي طريقة فعالة؛ لمنع تسرب المياه للداخل. إنَّ بلط المنزل بروث الأبقار تنبعث منه رائحة كريهة في الأيَّام الأولى، وبعد ذلك يصير وضعه مقبولاً. لكن التبليط الخارجي يحتاج للإعادة عدة مرات في فصل الأمطار، وإلا تسربتْ المياه إلى داخل الغرف. لقد كنتُ أسكن في أحد هذه المنازل وقد استفدتُ كثيرا مِن مظلتي في الليل والنهار لتقيني الماء أثناء نزول المطر.

توجد في أغلب المنازل آبار مياه خاصة بها، ولكن متوسط منسوب المياه سيء لأن الآبار تحفر قرب مكان السكن ونبعها ينضب سريعاً. ولقد حصل في عام 1839م أنْ نضبتْ مياه الآبار في القرى بسبب حفر الآبار على عمق

عشرة أقدام، مِمَّا استوجب الآن أنْ تُحْفَر الآبار على عمق عشرين قدماً قبل أنْ تصل منبع المياه. وقبل أربعين عاماً مضت كانت المياه متواجدة على بعد 20 قدماً تحت الأرض، أمَّا الآن فالآبار على بعد 40 قدماً قبل الوصول لمنبع المياه. في فصل الخريف ليس هناك حاجة ماسة للمياه، لكنها لا تبقى طويلاً على سطح الأرض، فهي تتجمع في بِرَكٍ إمّا تتبخر بسرعة أو تصير مياه راكدة آسنة مضرة عند الاستعمال، إنْ لم يتم استعمالها ومعالجتها بحذر.

إنَّ ترتيب البيت أو الغرفة مِن الداخل لا يختلف عن ترتيب كوخ التُّكُل، ومثل بساطة بناء كوخ التُّكُل يوجد داخله أثاث بسيط يتكون مِن عنقريب مُجَلَّد بجلد الحيوان المدبوغ، ودرقة جلد وبعض الحراب، ومعدات فخارية مِن زير لحفظ الماء، وإناء فخاري لغلي الماء، وإناء فخاري آخر للمريسة، ودوكة، وكؤوس مِن القرع للشرب، وصحن مِن جذع الشجر يسمى القدح، وطبق يصنع مِن السعف لتغطية المأكولات، وإناء لحفظ اللبن. بجانب بعض المستلزمات المنزلية الأخرى، التي تعلَّق جميعها على الحائط خوفا من الفئران وحشرة النمل الأبيض. فالنمل الأبيض هو آفة هذه البلاد، لا شيء يسلم مِن أذاه، فهي تقضي على سقف المنازل والمصنوعات أيضا. يتواجد النمل الأبيض في الرمال خاصة في الأماكن الرملية الرطبة، وهو يقضي على كل ما يجده موضوعاً على الأرض كالصناديق وجذوع الأشجار، فإذا أردنا حفظ هذه الأشياء مِن خطر هذه الآفة علينا أنْ نضعها فوق الأحجار؛ لأنَّ النمل الأبيض يتجنَّب الأحجار، والتعرض للهواء الطلق الذي يقضي عليها. ويقرضُ هذه الأشياء ويحوِّلها إلى قطع يبني عليها مسكنه مستعملاً الرمل الرطب، حتى يصير متيناً مقاوِماً للكسر، ويقوم منه بقرض الأشياء التي يحتفظُ بها داخله، فمسكنه يحميه مِن الهواء الطلق الذي يقضي عليه. لقد تحمَّلْتُ معاناةً كبيرة في دراسة هذا النمل الأبيض وعاداته، أين يعيش وكميات تجمعه، فكنتُ أحفر إلى عمق قدم أو قدمين، لكنني لا أعثر على أي أثرٍ للنمل الأبيض، لكن عندما أضع صندوق خشبي بجانب الحفرة

التي حفرتها، فإنَّني أجد أنَّه في فترةٍ وجيزة امتلأ بالمئات مِن النمل الأبيض.

إنَّ كوخ التُّكُل أو القُطيّة يُزَيَّن مِن الداخلِ ببرش الحجلة المزخرف زخرفة جميلة المنظر، أيضا العنقريب يُزَيَّن بغطاءٍ مُرَقَّش. ويستعمل العنقريب للنوم أو الجلوس عليه كأريكة. وداخل كوخ التُّكُل يوجد حبلين أو ثلاثة حبال مربوطة، سمك الحبل مقدار سمك أصبعين. أيضا تنثر داخله مخدات القطوع المصنوعة مِن نبات الليفة. وتوجد أيضاً أطباق بواشير صينية، وهي أطباق طعام تُصْنَع مِن فخار القليز في إنجلترا، وتستخدم في تقديم الوجبات وحفظ الطعام مِن الحشرات. ويلف أحد الحبال بشكل دائري حول كوخ التُّكُل مِن الداخل لتُعَلَّق عليه زجاجات سوداء مُحَلَّاة بشرائح مِن الذهب، بعضها يكون فارغ، والآخر توضع به العطور ومستحضرات التجميل للنساء مثل الودك وزيت النخيل وزيت القرنفل والشب والدلكة. وتُزَيَّن جوانب كوخ التُّكُل بالدرقة وسيفين وبعض الحراب. أمام كوخ التُّكُل يُوجَد بناءٌ صغير مُجوَّف مِن الداخل ذو شكل أسطواني يُصْنَع مِن روث الأبقار، ويعمل لهذه السويبة قاعدة مِن الحجارة ولها غطاء أعلى مُحْكَم القفْل. ويستعملُ الأهالي السويبة في حفظ غلة الذرة، بجانب أنَّهم يحفظونها أيضاً في حفرةٍ مطمورة تحت الأرض، وتجهز المطمورة بحفر حفرة واسعة يوضع بها قليل مِن القصب ومِن بعض تُصَبُّ الذرة، ثُمَّ يُغَطَّى مِن أعلى بالقصب ثانية، ويُغَطَّى القصب بالرمل، ثُمَّ فِي الأخير تُسَوَّى الأرض عند فوهة المطمورة.

إنَّ الأهالي لا يستخدمون السُّفْرَة ولا يعرفون غرفة المائدة، ولا حتى مرابط الماشية أو الإسطبلات. فهم يجمعون الماشية في زريبة مِن الشوك بالقرب مِن كوخ التُّكُل، هذه الزريبة كثيفة بحيثُ لا تخترقها الحيوانات المفترسة، أو تهرب منها الماشية. ولكن في بعض الأحيان عندما يكون هناك أسد أو ضبع جائع، فإِنَّه يستطيع اختراق الزريبة وأخذ خروف أو ماعز أو عجل.

الأهالي عاداتهم بسيطة وأعمالهم محدودة في نطاق مُعَيَّن يوفي بضروريات الحياة اليومية. ويبدأ يومهم منذ الفجر يستيقظون للوضوء وأداء الصلاة ثم يبدؤون العمل اليومي، وعندما يشعرون بالتعب يضجعوا للراحة في العنقريب، وقد لاحظت أَنَّهم لا يضجعون على الأرض بل يشير الواحد منهم لأقرب رقيق لديه ليأتيه ببرش يضجعوا عليه. نلاحظ أيضاً أَنَّه في منازل ميسوري الحال يوجد عنقريب أو اثنين. أمَّا الفقراء مِن الأهالي فيستعملون البروش فقط. وعموماً فإنَّ الإنسان في هذه الأماكن لا يطيق الاضطجاع على الأرض مباشرة لمدة طويلة، لأنَّ الهوام التي تختبئ في الأرض مِن الممكن أنْ تقضي عليه فوراً. بالنسبة للرقيق فهم لا يملكون عنقريب للاضطجاع عليه، ومرقدهم مِن خشونته حتى أَنَّه يُخَيَّل للأوروبي إذا رآه، أنَّه نوع مِن تنفيذ عقوبة قاسية بالرقاد فوقه. فهو قش أو بساط مِن القصب سمكه مثل الأصبع، ومنسوج بطريقة متباعدة حتى يمكنك بسهولة أنْ تحصي عدد القصبات المصنوع منها، وعندما يقوم الرقيق منه فإنَّها تترك أثراً مطبوعاً على جسده. وقد كنتُ دائماً ما اسأل هذه المخلوقات التعسة، عن كيف لهم ان يناموا على سرير التعذيب هذا! فكانوا يردون عليّ بضحك واستهزاء أنَّه أحسن مِن النوم على التراب! ولا يعرف الناس في هذه البلاد استعمال مسند الرأس، وبدلاً منه يضعون حجر. وهم عند النوم يغطون أجسادهم ورؤوسهم بجلابيب، والشخص منهم إذا أهمل تغطية رأسه ليلاً، فإنَّه سوف يعاني مِن ثقل في الرأس وتوعك طوال يومه التالي.

في هذه البلاد الناس غير معتادين على تناول وجبة الإفطار أو مشروب البن الذي يأتي مِن الحبشة واليمن، وهما من ضمن البضائع التجارية التي تصل كردفان. لكن يوجد مقهى واحد في عموم كردفان في مدينة الأبيض، وهو مقهى مخصص للأتراك وليس للأهالي، ويرتاده معهم بعض أعيان الدناقلة الذين لا يتحرجون مِن تناول القهوة. فإذا زار أجنبي هذا المقهى في الصباح، فان أحد الوجهاء يقوم بإكرامه فيجلب له غليون للتدخين، مع

مريسة وصحن به وجبة دسمة لا يقوي الأوروبي على هضمها. وقد دعاني مرة أحد الجلابة الدناقلة لتناول هذه الوجبة، وقد أتيتُ مبكراً وأجلسني على عنقريب مفروش عليه سجادة جميلة، ثُمَّ قدَّم لي للضيافة غليون للتدخين ومشروب المريسة. لكنه لم يأتِ بطعام الإفطار، وطالت مدة انتظاري، ولم ألاحظ أي تجهيزات أو نار أوقدت لإعداد الطعام، ولم يكن لدي متسع مِن الوقت للانتظار، لذلك سألتُ أين وجبة الفطور؟ فأجابني مضيفي أنَّه سوف يكون جاهزاً في الحال، عندها أشار إلى حمل صغير كان يحوم في فناء منزله وقال: لا يُذْبَح هذا الحمل إلا على شرف حضوري. عندها قلتُ له إنَّ منتصف النهار قد أتى، وعليّ أَنْ أذهبَ لإنجاز بعض المهام المستعجلة، لذلك فإنَّني لا يمكن أنْ أنتظر حتى يستوي اللحم أو يُسْلَق في الماء، خاصة وأنَّه لم يوقد أي نار بعد لذلك. لكن مضيفي ردَّ عليّ أنَّ وجبة الإفطار ستكون جاهزة في الحال، ويمكنني أنْ ألحقَ أعمالي لأنجزها. وقد أثار كلامه هذا فضولي لأقصي درجة، وجلستُ لأعرف أي نوع مِن الوجبة التي سوف تُقَدَّم خصيصاً على شرف حضوري. وقد دُهِشْتُ كثيراً عندما رأيتُ أحد الرقيق يقوم مسرعاً بإشارة مِن سيده ويذبح الخروف بسرعة ويفصلُ الرأس عن بقية الجسم، ثُمَّ ينتزع المعدة ويبعد البطن والمصارين. بعدها قام بتنظيف معدة الخروف وتقطيعها لقطع صغيرة، وضعت على قَدَح وصبَّ عليه سائل الصفراء والليمون ثُمَّ الشطة الحمراء. لقد أعدَّ الطبقَ في فترة وجيزة وقدَّمه لنا، لكنني اعتذرتُ لمضيفي وشكرتُه في وقتٍ واحد، قائلاً له إنَّ معدة الأوروبي لا تقوى على هضم اللحم غير المطبوخ، وراقبتُ عندها رد فعله على رفضي، لكنه ابتسم بشفقة وقال إنَّ هذه إكرامية، وعينيه مِن جهة أخرى تقولُ إنَّ هذا الطعام لذيذ. وعندما فهمتُ أنَّ هذه أفضل وجبة تُقَدَّم لضيف؛ فإنَّني قمتُ بتناول القليل منها لإشباع فضولي وليس شهيتي، والحقيقة أنَّ طعمه كان مقبول بسبب إضافة سائل الصفراء والشطة إليه، والتي أزالتْ رائحة كرشة الخروف الكريهة. لكنني توقفت ولم آكل كثيراً مِنه، وقد علمتُ أنَّ هذا الطبق لا يقدم فقط في كردفان بل في سنار والحبشة

أيضاً يُعَدُّ الطبق الأفضل عندهم.

إنَّ الأهالي في كردفان لا يكلفون أنفسهم عناءً بكثرة العمل يومياً. ولم أجد أناس لا يعملون مثلما وجدتُ في كردفان. فأي منهم يسعي لامتلاك رقيق يؤدي أعماله بدلاً منه، وما عليه هو السيد إلَّا الاستلقاء على العنقريب في الظل طوال اليوم يتأمل في الفراغ. فالأهالي لا يميلون لتأدية كثير مِن العمل، لكنهم عند الضرورة يقومون بأداء البعض منه عندما يتطلب الظرف ذلك. أمَّا الذين يعملون في الزراعة فهم لا يبذلون كبير عناءٍ في العمل، فهم يقومون ببذر الحبوب في أوَّل فصل الخريف، ويقومون بالانتظار بعدها ثلاثة أشهر لحصد محصولهم. وقليلٌ مِن الأهالي يقوم بأعمال يدوية، وهم يصينون منازلهم أو يجددون بنائها كل 3–4 أعوام ولا يقومون بشيء غير ذلك. ونجد أنَّه مِن المناظر المألوفة أنْ تجد مجموعة مِن الناس مستلقين شبه نيام على الأرض.

بالنسبة للنساء فهن يؤدين بعض الأعمال العادية يومياً، بعدها فإنَّهُن يمضين جُلَّ اليوم نيام على العناقريب. والرجال ليس لهم أدوات تسلية لتمضية الوقت، ما عدا قليل مِن الدناقلة وبعض السود الذين يسلون أنفسهم بتدخين الغليون. لا يهتم الأهالي كثيراً برقص النساء، وعندما يسأمون مِن كثرة النوم يتجمعوا في مجموعات لزيارة الجيران، وتبدأ المجاملات للزيارة بتبادل التحية والسؤال عن الحالة الصحية، وهذه المجاملات تستغرق قرابة ربع الساعة، ومِن بعد ذلك يتحوَّل الحديث إلى الحاكم والكشاف، أو أمراض حيواناتهم مِن جمال وحمير. وهم لا يهتموا بالحديث في السياسة، لكنهم يهتموا بالحديث عن الضرائب التي عليهم دفعها عدة مرات في السنة، والتي يسبب لهم سدادها الكثير مِن المتاعب، حيثُ يجلسوا ليتشاوروا حول أفضل الطرق لسدادها. وإذا كان موسم الحصاد ناجحاً والمريسة متوفرة فإنَّهم يقضون وقت أكبر في شرب المريسة، عندها فإنّ أحاديثهم تغدو أكثر حيوية. وأداة الطرب الوحيدة هي آلة الربابة ذات الأوتار الخمسة، ومِن

الممكن أنْ يمضي الناس الساعات الطوال في الاستماع للألحان الرتيبة التي تصدر عن هذه الآلة، والتي تصاحبها مِن حين لآخر بعض الأصوات. ولكن لا يوجد لديهم كما يوجد في مصر مَن يروي قصص ألف ليلة وليلة. ورغم الضجيج والألفاظ النابية التي تُسْمَع مِن حين لآخر في قعدات المريسة، لكنهم لا يصلون لدرجة التشاجر، بل يكتفون بالحلف والشتائم مثلما يحدث في كُلِّ بلاد العرب. ولكن إذا حدث شجار، وهو نادراً، فإنَّهم يصلون مرحلة الضرب بالأيدي وخنق بعضهم البعض، لكن الموقف يُهَدَّأ بواسطة الأكبر سناً الذي يكون حاضر في المجلس. وعامة هم أناس كرماء وأي عابر سبيل يمر بمجلسهم يضيفونه ويجعلونه يشاركهم بهجتهم وسرورهم.

لقد شاهدتُ ظاهرة غريبة عند الدناقلة في معالجة قضايا الشرف، وهي نزاعات تحدث عادة بسبب العشق والغيرة. فعندما يرتكب شاب جُرْماً ضد شرف آخر متزوج، فإنَّ المتزوج لا يصرُّ على إثارة المسألة، ولكن يميل للتسامح ويعتبرها مِن توافه الأمور. لكن إذا أصرَّ الشاب على تبرئة ذمته عندما لا يحكم لصالحه، فإنَّهم ينتقلون لفضاء واسع في مجلس يكون فيه كل الأصدقاء والأقارب والحكماء حاضرين، ويُؤتَى بعنقريب في المنتصف، وينقسم الجمع إلى قسمين: كل شخص ينضم لمن يناصره من الخصمين ويأتي رابطاً ملابسه على وسطه، ويُؤتَى بسوط جلد فرس النهر ويمرر على الحضور لكي يلجئوا للصلح. لكن إذا أصرَّ الجمعان فإنَّه يُشَكَّل مجلسُ تحكيم، ويُقَدَّم السوط لشخص مِن الفريق الأوَّل؛ ليضرب به شخصاً مِن الفريقَ الثاني المقابل له حتى تسيل مِن ظهره الدماءُ. وهم يتحملون الضرب بالسوط بدون إظهار الألم أو التململ، في الأخير فإنّ الجميع يشعرون بالتعب، عندها يحسمون الخلاف بالصلح ويتصافحون بالأيدي. وضرب السوط هذا مؤلم جداً، فضربة واحدة منه كافية لجعل الجسم ينزف دماً. وأثناء ضرب السوط فإنَّ الحضور يكونون في حالة سكون يراقبون المشهد،

أما المجلودون فيظهرون شجاعة وجَلَد في تحمُّل الألم. بعد انتهاء الجلد يطلق الحضور صيحات تعبر عن الفرح، بعدها يغسلُ الفريقان المتبارزان جراحهم بالماء والمريسة المعدة لأجلهم. أحياناً تقع بعض الحوادث التي تسبب جراح خطيرة تصل لحد فقدان الأطراف، لكنهم لا يأبهون كثيراً لذلك. أمَّا الفتاة التي تكون موضوع النزاع، فلا يُؤتَى بها لفضاء فَضِّ النزاع بل تعتبر بريئة أو غُدِرَ بها.

ونجد بشكل عام في البلاد أنَّ النساء يرتبطن بأعمال التصنيع اليدوي أكثر مِن الرجال. فهن بجانب قيامهن بأعمالهن المنزلية المعتادة يقمن بصنع البروش وسِلال حفظ اللبن ومصافي المريسة. أيضا تقومُ النساء بأعمال هي مِن صميم أعمال الرجال في مناطق أخرى مثل دباغة الجلود. ولقد شاهدتُ نساءً يقمن بدباغة الجلود وأزواجهن لا يفعلون شيئاً، بل يقومون بالأنس والتدخين. إنَّ المرأة إنْ لم تلد تنحط مكانتها وتعامل مثل الخادم. فعدم الإنجاب يضع الزوجة في موضعِ الاحتقار والمذلة، بعد ما لاقته سابقاً مِن تدليلٍ وملاطفة. ويقومُ الزوج بتعزية نفسه بعدم الإنجاب مِن زوجته بالإنجابَ مِن نسائه الرقيق، والمرأة الرقيق عندما تنجب تعلو مكانتها وتعامل مثل الزوجة التي تُطَلَّق أو تُهْمَل إذا كانت عاقر، وإذا أنجبت الزوجة الرقيق لزوجها المولود الثاني فإنَّه إذا كان ميسور الحال يقتطع لها نفقة مالية خاصة بها، ويبني لها منزلاً منفصلاً تعيش فيه مع أبنائها. وعندهم أنَّ المرأة عندما تصل عمر 24 سنة تعتبر كبيرة السن ويهجرها زوجها لأجل امرأة أخرى أصغر سناً، لذلك فالزوجات في كردفان يلجأن للعرافات والفُكَيَا [الفُقهاء] لمعرفة نوايا أزواجهن تجاههن. ويُعَامَل هؤلاء الفُكَيَا رغم جهلهم الكبير مثل معاملة القديسين، فكُلّ الناس يظهرون لهم الولاء والاحترام. وقد شاهدتُ أنّهم عند تجوالهم في الطرقات فإنّ الكبار والصغار يوقفوهم لتقبيل رؤوسهم وأيديهم وحتى أرجلهم، ويقدمون لهم الهدايا وكُلّ شيءٍ يطلبونه، وهم يقابلون هذا التلهف بفتور تام كأنّهم لم يتلقون مِن

الناس أي شيءٍ. وهم دائماً مميزين في مظهرهم، فقد تجدهم ممزقي الملابس أو يلبسون ألبسة متسخة، ويكون أحياناً جزء مِن جسدهم عاري، لكنهم أحياناً يظهرون بأفخر الألبسة. أمَّا أقرباء وآباء هؤلاء الفُكَيَا يعرفون كيف يستغلون منزلتهم لمنفعتهم الشخصية، فهم يتقبلون الهدايا والعطايا مقابل بعض الوساطات والشفاعة عندهم، وعندما تتحقق رغبات من توسطوا لهم عند الفكي [الفقيه] فإنَّهم يتفاخرون بذلك. وعندما تسمع النساء ذلك فأنّهن يهرعن لهن بأعداد متزايدة غالباً لطلب الخصوبة والإنجاب، ويختص الفكي أو الفقير بكتابة الحجبات التي يلبسنها النساء في أذرعهن أو أيديهن، وهُنَّ على قناعة تامة أنَّ أمانيهن ورغباتهن سوف تتحقق. والفُكَيَا يقومون بأعمالٍ مربحة، فلقد شاهدتُ الكثير منهم مِمَّن جمع ثروته بهذه الطريقة، لأنَّهم يعرفون كيف يؤثرون على الآخرين ويفرضون عليهم إيحاءاتهم ويقنعونهم بشراء الحجبات.

عند انتهاء العمل اليومي تجتمعُ النساء والبنات للترفيه والرقص حتى منتصف الليل. والنساء مغرمات باللهو والرقص بعد أنْ ينتهين مِن أعمالِهِنَّ النهارية المرهقة، التي يمكن أنْ تهدَّ قوةَ أعتى الرجال. والنساءُ توَّاقات لتجديد أنفسهن، فعندما توقد النار مساءً أمام المنزل ويُسْمَع صوت الدلوكة تذهبُ عنهن كُلّ آثار التعب ويتجهن للرقص والتسلية، ويأتي الرجال بصحبة زوجاتهم ويكونون حلقة مِن الرجال والنساء لمشاهدة الرقص والغناء والاشتراك فيه، وهم يحفظون الإيقاعات المصاحبة بالتصفيق بالأيادي. تجد في هذه الأثناء صغار البنات وهُنَّ يُعَدِّلْنَ مِن مظهرهن استعداداً للدخول في حلبة الرقص، ورغم أنَّ نوعية الرقص التي يؤدينها غير معقدة الحركات، إلّا أنَّها تحتاج لجهد عضلي كبير يصعب على نساء أوروبا مجاراتهن في ذلك. يبدأ الرقص بأنْ تقومَ الجميلات السود بالتحرك ببطء وضرب أرجلهن بالأرض مع انحناءِ الرأس إلى الخلف واعتدال الأكتاف، ومِن مرة لأخرى يحني الجسم للخلف حتى يصل الرأس للأرض، بمصاحبة

إيقاع الدلوكة التي تضربُ بحماس حتى يرتخي جلدها، ثُمَّ يقمن بحمى الجلد في النار وشدِّهِ لتحسين إِيقاعه. وتجد بنت نحيفة ترقص بشكل مرهق تعجب كيف استطاعت تحملَ إِيقاعه؟ وهناك أيضاً رقصة أخرى يبدأ فيها الرقص بخطوات بطيئة، ثُمَّ تتسارع تدريجياً حتى تتحرك أجسادهم بخفة وكأنَّها أجسام مُكَوَّنة مِن الأسلاك المطاطية لآلة، وليس لإنسان بجسد آدمي يرقص، وعندما تشعرُ الفتاة منهن بالتعب تجلس على الأرض، وتأتي أُخرى بعدها وتحلُّ مكانها في الرقص. وإِذا كانت الفتاة جميلة فإِنّ الرجال يدخلون ويشهرون سيوفهم فوق رأسها، عندها تصمت الدلوكة ويتوقف الغناء، بعد بُرْهَة مِن الصمت ترتفعُ أصوات الصياح وزغاريد النساء مِن جديد. ويسعد الأهالي جداً أنْ يشاركهم غريب سمرهم ورقصهم، وهم يحتفون به ويتركون له مجالاً واسعاً ليجلس عليه، أو يرقص إذا أراد، ويقدِّمُوا له الكثير مِن المريسة. بالنسبة للنسوة المتزوجات أو كبيرات العمر فَهُنَّ نادراً ما يشاركن الرقص بل يكتفين بالمشاركة، وهُنَّ ينشغلن بأشياء أخرى، مِن قبيل تداول أقاويل الفضائح الجنسية، وغيرها مِن الأحاديث التي تستحي الفتيات الصغيرات مِن قولها.

إنَّ ملابس الرجال والنساء بسيطة المظهر، ما عدا الدناقلة الذين يعتبرون الأكثر ثراءً وسط القبائل، وملابسهم فضفاضة بيضاء اللون تتكون مِن جلابيب وسراويل وتِكَّة وطاقية وشال يُلَفُّ على الرأس مثل العمامة عند الأتراك. ومِن النادر أنْ تجد مَن يرتدي طاقية حمراء. والملابس البيضاء لا تستطيع أنْ تظلَّ ناصعة البياض أكثر مِن يوم واحد، بعدها تتحوَّل بفعل الأوساخ واستعمال الودك حتى يصير لونها أسود مثل لون لابسها. بالنسبة لملابس القبائل الأخرى نجدهم شبه عُرَاة يَلفون أوساطهم بثوبٍ مِن القطن حول الخاصرة، ويلفح على الكتف مع ترك الرأس حاسراً. وهم يتركون شعرهم يسترسل في النمو، لكنه لا يصل حتى ظهورهم، أو يقومون بضفرة إلى 10 أو 16 ضفيرة. يحملُ الرجال سكاكين محلاةً بالحجبات

تُرْبَط في ذراعهم الأيسر. وإذا أراد الواحد منهم الذهاب بعيداً في رحلة، فإنَّه يحمل معه سيفه ذا المقبض الجلديّ. أمَّا الشيوخ يحملون سيوف مقابضها فضية بحجم البيضة، وأحياناً تكون أغمادها محلاةً بحجر العقيق الكريم، أو قطع الزجاج الفاخر. ويحملُ الرجل منهم دَرَقَة مِن جلد الغزال يعلِّقُهَا على ظهره، معها حربة طويلة أو عدة حراب زريق صغيرة تُوضَع في غمدٍ مخصص لها. وأثناء السفر يجب أَنْ يرتدوا سروالاً قصيراً، لكي يستطيعوا امتطاء جمال الهجن. أمَّا المزارعون فهم لا يمتلكون جِمَالاً، بل يسافرون في رحلهم القصيرة على ظهور ثيرانهم. بالنسبة للنساء فإِنَّ ملبسهن قريب مِن الرجال، فهن يرتدين ثوب قطني أبيض مع قطعة منفصلة تلف حول الخاصرة وتلفح على الكتفين. وعند خروجهن إلى الشارع يغطين رؤوسهن، وأثناء العمل يغطين خصورهن جَيِّدَاً بثوب الملاية.

لم يكن الناس يعرفون الصابون، بل كانوا يستعملون لغسل ملابسهم لحاء شجر الهجليج المخلوط مع الليمون. ويتم الغسيل بوضع قطعة مِن الجلد على حفرة رملية. أمَّا نساء الدناقلة فيغسلون ملابسهم بالصابون، وملاياتهم جميلة تجدها محلاة بالزيق الأحمر، وهُنَّ لا يغطين رؤوسهن بل يقمن بلف شعرهن ويدهنه بالودك وزيت السمسم، أمَّا أجسادهن فيدهنها بخلطة خاصة مُكَوَّنة مِن السنبل والمحلبية والضفرة، التي يتم سحنها بالحجر ويسمونها «الدلكة». ويجعل الزيت والودك الشعر أكثر نعومةً، طالما بقي بعيداً عن الغبار، لكنه على أي حال يتحوَّل بسرعة ليخرج رائحة كريهة. والنساء اللاتي يردن أنْ يحافظن على تسريحة شعرهن، يضعن مسند تحت رؤوسهن عند النوم يكون عبارة عن خشبة منحوتة مِن الوسط، وترقد عليه المرأة لتحافظ على تسريحة شعرها. ولم أرَ في حياتي مسند مؤذي ومؤلم مثل هذا، ولكن النساء طالبات الجمال يتعَوَّدْنَ عليه، ولا يسبب لهن أي اضطراب عند النوم عليه. وهذا سلوك مشابه لما تفعله نسائنا الجميلات في أوروبا، عندما يقمن بشد الأحزمة الضيقة على خواصرهن. وتستعمل المرأة في كردفان ما

تجود به الطبيعة عليها للتجميل والزينة، وهن يأخذنْ وقتاً أكثر في تصفيف شعرهن مِمَّا تأخذه نساء أوروبا، بسبب نوعية مستلزمات تسريحهن، والفترة الطويلة التي تأخذها عملية ضفر الشعر ودهنه بالودك والزيت، اللذان إذا سالا على الملابس لا يمكن غسلها بسهولة. وهن بلا أمشاط ومِقَصَّات أَو مشابك ودبابيس مثل نساء أوروبا، بل هن يستعملن مخرز مصنوع مِن الخشب لأداء كل عمليات تسريح الشعر اللاتي يردنها. وتتزيَّن النساء بوضع خاتم في الأنف، وأخر على الأذن مِن الفضة أو النحاس، وقد اختفت أي حلى تزيين لديهن مصنوعة مِن الذهب. وبعض النساء يتزين بلبس الأساور المزينة بالمرجان والأجراس على الأيدي والأقدام. وأكثر الأساور تُصْنَع مِن قرون الأبقار أو عاج الفيل، وعرضها يصل إلى بوصتين. بالنسبة لحجول الأرجل التي تُصْنَع مِن النحاس تكون ثقيلة يصل وزنها إلى رطل كامل. وتربط النساء على رأسهن ورقابهن شريط مِن السُّكْسُك المصنوع مِن الزجاج البوهيمي الأزرق الداكن، بعضهن يَتَزَيَّنُ بوضع قطعة من الذهب أو الكهرمان بمقاس بوصة على جباههن. بالنسبة لأصابعهن فإنهنَّ يَتَزَيَنَّ بلبس الختم المُزَيَّنة بالمرجان. والنساء عامة مولعات بكل ما يلمع ويحببن الملابس الفاقعة الألوان، وطريقتهن اللاتي يرتدين بها الملابس مضحكة وغريبة لكنها ترضي أذواقهن جداً. أَمَّا الفقيرات مِن النساء فهن يَتَزَيَّن بقطع صغيرة مِن اللؤلؤ أو العقيق، مع لبس حجبة مجلدة بالجلد الأحمر تُوضَع فوق الجبهة. ويزين أياديهن بأساور مِن العاج أو قرون الأبقار، وأرجلهم تغطيها حجولٌ مصنوعة مِن النحاس أو السُّكْسُك الأبيض البني، ويربطن على أعناقهن زينة مِن السُّكْسُك الأزرق، وعلى الأنف نجد الزمام، وفي الأذن حَلَقٌ مِن النحاس الأصفر. ويتجوَّل النساء غير المتزوجات والفتيات على الطرقات شبة عاريات، يلبسن الرحط المُزَيَّن بالعقيق.

بالنسبة للأطفال الذكور حتى سن 12 عام فهم يتجولون عُرَاةً تماماً بدون ملابس. ونجد الرجال أيضاً يدهنون أجسادهم مثل النساء بالزيت

والودك وبعض الزيوت الأخرى؛ لمنع الجلد مِن التشقق، ولكي يصير أملس وجميل. بعض الرجال يمشون حفاةً، والبعض ينتعل صندل مصنوع مِن الجلد غير المصبوغ. أمَّا الدناقلة فينتعلون الصندل المدبوغ المزين بالسيور الملونة. في شهر يناير أثناء موجات البرد، يلبس بعض الأهالي جلد الغنم، مثلما يستعمل الألمان المشتغلين بالتعدين الجلد لفرشه والجلوس عليه؛ لتقيهم مِن الأرض الساخنة في مناطق عملهم. بالنسبة للرقيق الذين يوجدون في أغلب المنازل ليؤدوا الأعمال المنزلية، أو يشتغلوا في الزراعة، فتتم كسوتهم مرة واحدة في السنة عند حلول عيد الأضحى، وملابسهم بسيطة تتكون مِن قطعة قماش تلف على الخاصرة. لكن الرقيق بشكلٍ عام يعاملون مِن الأُسر معاملة حسنة، كأنهم جزء مِن أفرادها. ورغم أنَّ الرجال الرقيق قد تُقَيَّد أرجلهم أثناء العمل في المزارع خوفاً مِن هربهم، وهم يضربون الرقيق الذي يحاول الهرب، غير ذلك فإِنَّه طوال تواجدي لم أرَ أي إساءة معاملة، أو عقاب قاسي ضد رقيق مهمل في عمله. والنساء مِن الرقيق يتجوَّلن طليقات السراح، ويعاملن بلطف ورقة، لا سيما إنْ كانت شابة وجميلة وفَكَّر سيدها أنْ يتخذها له زوجة. فإذا أنجبت الرقيق أطفالاً فهم يصبحوا جزء مِن ملكية السيد ومِن حقه بيعهم. وفي مصر يعامل أبناء الرقيق كمواطنين ويمكنهم أنْ يقاضوا أسيادهم إذا عاملوهم كتجارة وحاولوا بيعهم، وفي الغالب بعد مدة مِن الزمن يلتحقوا بسلك الجندية، أو يباعوا لتجار رقيق يذهبون بهم لبيعهم في القاهرة الكبرى. إنَّنِي أنصحُ الأوروبي بأنْ يحذر بشدة مِن شراء امرأة رقيق، خاصة اللاتي يتحدثن العربية بطلاقة، فهن يجدن الحيل والدهاء. بالنسبة للرقيق الذي يعتنق الإسلام فهو لا يُبَاع، أمّا الرقيق الميت؛ فيُلْقَى في العراء مثل الحيوان. إنَّ أطفال الرقيق يعيشون على الفطرة ويتعاملون مع الأشياء الغريبة التي يرونها أوَّل مرة بحذر شديد، وخوف يجعل الشخص عندما ينظر إليهم يضحك مِن داخل أعماقه. فلقد حدث لي ذات مرة موقفٌ غريب، مثيرٌ للضحك مع فتاة مِن الرقيق، لقد كانتْ الفتاة تعاني مِن صداع شديد في الرأس، وسألتني قطعة قماش تربط بها رأسها مِن

الألم، فلم يكن لدي غير علم دولتي الذي كان يلازمني في رحلاتي، وهو شعار دولتي الذي أُعْرَف به، فأعطيتها العلم على أنْ ترجعه. وبعد مدة زرتُ الفتاة متفقداً حالتها، وكنتُ أحسب أنْ أجدها طريحة الفراش، فوجدتُها قد تماثلتْ للشفاء وزاولت حياتها الطبيعية، وعندما قابلتها في السوق، فإنَّه أمام دهشتي رأيتُ الفتاة الجميلة برفقة صاحباتها، وهي تلبس على جسدها علم بلادي، حيثُ أصبح شعار النسر ذو الرأسين على العلم ملفوفاً في وسط جسدها، وهي تتبختر به في زهو وخيلاء، فلم أتمالك نفسي أنا وبعض الأتراك الذين كانوا متواجدين في السوق مِن الضحك مِن هذا المنظر. ولقد كان العلم مصدر سروراً وإعجاباً للفتاة وصاحباتها، ولقد أعيتني كل الحيل التي استخدمتها معهن لاسترداد العلم، بعد أنْ أوضحتْ لهن قيمة هذا العلم بالنسبة لي، فهو مصدر تسهيل لمهمتي وحمايتي وأنِّي لا أملك غيره؛ فيجب أنْ يرجعنه لي لاستعماله في الوقت المناسب، لكنني فشلتُ في استرداد علمي، فالفتيات الجميلات اعتبرنه ملبساً زاهياً وجميلاً؛ يشعرهن بالفخر.

تتكون وجبة الطعام في كردفان غالباً مِن كسرة أو قُرَّاصَة الدخن والعصيدة والويكة. والدخن يُطْحَن في المرحاكة ويتحوَّل إلى دقيق، ثُمَّ يُعْجَن في الخمارة، ويُصَبُّ عليه مقداراً مِن المَاء حتى يصير سائلاً رقيقاً، بعدها يتمُّ وضع الدوكة أو الصاج فوق ثلاثة أحجار، ثُمَّ تبدأ المرأة في صناعة الكسرة أو القُرَّاصة، وهذه القراصة تكون على شكل الكيكة تقلب مِن الجانبين على الصاج لكي تنضج. إنَّ سُمْك القراصة كَسُمْكِ الإصبع، فهي صعبة الهضم على معدة الأوروبي، لأنها تسبب نفاخ المعدة وذلك لعدم غربلة الدقيق جيداً. ونجد فيها بعض الحبوب مِن بقايا القشرة الخارجية التي لم تتحوَّل إلى دقيق، وهي لا تكون ناضجة تماماً. أمَّا الناس ميسوري الحال فيستعملون في غذائهم دقيق ناعم مغربل جيداً يُعَاس بالقرقريبة. وعملية إعداد الخبز لاستهلاك العائلة تأخذ وقتاً طويلاً، فمجرَّد طبخ خبز لاستهلاك شخصين يستهلك ساعة كاملة. ويُعَدُّ الخبز الطازج بواسطة النساء، ولما لم تكن

بكردفان مطاحن غلال فإنَّ على النساء طحن ما يكفي للاستهلاك يومياً، لأنَّ العصيدة بالويكة هي الصحن المفضل لأهالي كردفان. والفقراء لا يهتمون بتنظيف غلة الدخن، أمَّا الموسرين فهم ينظفونها عدة مرات قبل طحنها، وتُصْنَع الويكة بتجفيف البامية التي تُدَقُّ في الفندق مع لحم البقر المجفف «الشرموط». هذه العملية يجريها اثنين، واحد يقوم بتحريك الماء المغلي بالبصل والسمن، والثاني بنثر المواد الجافة مِن ويكة وشرموط على الماء المغلي. وبعد أنْ تتم عملية النضج والطبخ، يصب الملاح على العصيدة فتصيرُ رائحتها لذيذة. هذا الطعام مغذي لأنه يحتوي على كمية وفيرة مِن اللحم. واللحم في كردفان رخيص جداً، فكُلّ بيت يربي أعداداً مِن الأغنام والخراف. وهي أكلة رخيصة لا يكلف الرطل منها أكثر مِن 20 بارة، رغم ذلك فإنَّ الأتراك والأوروبيين لا يأكلون الشرموط ولا يعرفونه. وهو يُبَاع في سوق الأُبيض كلحم صافي بدون عظم، وينخفض السعر في ضواحي الأُبيض لما يقارب النصف، لأنَّه لا توجد موازين معينة وإنَّما تقدر الكمية بالنظر فقط. وبلاد كردفان ليس فيها ندرة في اللحوم، فبجانب الأغنام والخراف توجد متوفرة لحوم الطيور والغزلان التي يعتبر أكلها مِن الترف الذي تمارسه العائلات الميسورة فقط، وخاصة في موائد العزومات.

ويتناول الأهالي في الأُبيض وجباتهم في منتصف النهار. يتناول الرجال أولاً الطعام، وبعد انتهائهم يتناول النساء والأطفال وجبتهم جلوساً على البرش المفروش على الأرض. والوجبة تتكون مِن قدح به عصيدة بالويكة يوضع في المنتصف، وبقية العصيدة والكسرة توضع على الطبق حيثُ يتم تناولهما سوياً. وكُلَّ من يتواجد بالغرفة سواء أكان مِن أفراد الأسرة، أو غريب عليها، يتناول الطعام دون دعوة أو استئذان مِن صاحب المنزل، ويجلسُ الجميع مُتَحَكِّرين في دائرة يوضع وسطهم قدح الطعام، ومِن ثَمَّ يُبَادِرُ صاحب الدار بقول البسملة، ومن بعد يدخل الحضور أصابعهم في الطعام في وقتٍ واحد، كُلٌّ منهم يأخذُ لقمة الطعام بأصابعه الخمسة

ويدخلها في فمه، ويستمرون في تناول الوجبة دون توقف إلى أنْ يقضوا على آخر لقمة مِن الطعام. فإذا صدف أنْ كان مِن بين الحضور مع أفراد العائلة شخص غريب يتناول معهم الطعام، ورفع يده عن الطعام قبل الآخرين، فإنَّ على صاحب الدار أنْ يصرَّ عليه أنْ يستمر في تناول الطعام، وهذا الإصرار ليس مِن قبيل الرياء، ولكنه مشاعر كرم حقيقية تجاه الضيف. وعموماً فإنَّه أثناء تناول الوجبة لا يتحدثون كثيراً، فكُلّ منهم يكون مشغولاً بسد جوعه. في القرى يُقَدِّمُون الكسرة واللبن الرائب في وجبة الغداء. والفقراء لا يأكلون العصيدة، وإنَّما الكسرة بالويكة واللبن. ومِن عادتهم أنَّه عندما يقترب الطعام مِن النضوب، فإنَّهم يرفعون أيديهم كل واحد بعد الآخر، ولا يقومون بشكر صاحب الدار على وجبته التي قدمها لهم، وهو بدوره لا يتوقع الشكر منهم. ومِن العُرْفِ أن يغسل الأهالي أيديهم قبل وبعد تناول الطعام، وأن يأكلَ كُلٌّ واحدٍ منهم حتى يكتفي. في أثناء تناول الطعام يُقَدَّم الماء في إناء من نبات القرع، وبعد شرب الماء تُقَدَّم المريسة.

والمريسة متوفرة في كُلِّ قرى كردفان حتى عند الرحل، ما عدا في المواسم التي يكون فيها الحصاد غير ناجح. وتُصْنَع المريسة بشكل أساسي مِن الدخن، ويتم تخميرها مِثل ما يحصلُ في ألمانيا، ثم يتم تجفيفها في الشمس، ثُمَّ تُغْلَا وتُقَطَّع على شكل قراصة، وتوضع في إناء مِن فخار يتم غَمره بالماء. تستغرق عملية التخمير بالماء يومين، ومِن بعد ذلك تُصَفَّى بالصفاية التي تصنع من لحاء نبات القنا. وتشرب المريسة بعد تصفيتها مباشرة، لأنَّه ليس لديهم مخازن لتخزينها مُدَّة طويلة، وإذا تَمَّ تركها فان حرارة الجو تحولها لمحلول حامض في غضون ثلاثة أَيَّام. والمريسة تُصَفَّى مراراً وتكراراً حتى تخلو مِن الشوائب، وهي مثل أم بلبل التي يضاف لها السكر وجوز الطيب والقرنفل وبعد العقاقير مثل السانسيوقت الذي يجعل مذاقها مقبول. وفي أجواء كردفان فإنَّ مَن يريد أن يحافظ على صحته عليه أنْ يشربَ أكبر قدر مِن المريسة، بدلاً مِن شرب الماء العادي، وهذه وصفة مُجَرَّبة أنصحُ بها كثيراً.

فمِن خبرتي فإنني عندما تعاطيت المريسة والعرقي، وأقلعتُ عن تناول الماء العادي، شفيتُ مِن الحمى ومرض الدوسنتاريا الذي لازمني طويلاً. وأنا أعرف بعض الأهالي الذين نذروا أنفسهم لشرب المريسة، ولا يشربون نقطة ماءٍ واحدة طوال العام، وهم جميعهم يتمتعون بصحة جيدة. والذين يشربون الماء العادي، يصابون بداء الحمى فِي فصل الأمطار خاصة فِي المناطق الزراعية، مثلما نجد حول جبل كردفان. والمريسة متوفرة بكثرة على مدار العام، ولا تخلو أفواه الناس مِن كؤوسها منذ الفجر وحتى أواخر الليل. يوجد بالأُبيض وبعض القرى منازل لبيع المريسة تُسَمَّى «الإنداية» ونجد في الإنداية بشكل دائم فتاة جميلة تقوم بتقديم المريسة للزبائن، وهي تجيد الرقص أيضاً؛ لجذب الزبائن. وهن بارعات في عملهن، حتى أنَّك تكون متأكد أنهنّ تلقين تدريب على فن الرقص والمعاملة في إحدى العواصم الأوروبية؛ والسبب أن إحدى طرق محمد علي باشا للتخلص من الغوازي في مصر كانتْ إبعادهن إلى كردفان وسنار مِمَّا جعلهن يُعَلِّمْنَ فتيات الإنداية المحلية أسرارهن. وعندما يقيم الحاكم أو أحد الأتراك احتفال، يأتي بهؤلاء الفتيات لإدخال السرور والبهجة في نفوس الضيوف، وهن يأتين بصحبة بعض المهرجين، ويرقصن بشكل خليع غير مستحسن عند المسلمين. لكنني رأيتُ بنفسي احتفالاً راقصاً أَدَّتْ فيه الفتيات حركات خليعة أمام الحاكم، ولا يتم منعها بل على العكس يضحك ويستمتع بها الجمهور. إنَّ مشروب العرقي محبب أيضاً للأهالي، وهو يُصْنَع مِن البلح الذي يُسْتَجْلَب من دنقلا، لذلك فهو غالي الثمن إذا أراد الشارب أنْ يسكر منه؛ لذلك فإنَّهم يفضلون عليه المريسة. فزجاجة العرقي تكلف 9 بنسات أو 45 سنت، والتي تساوي 2 شلن و6 بنسات. لذلك فالأثرياء والضباط الأتراك، هم الوحيدون الذين يشربون البراندي أو العرقي.

لا تُقَام فِي كردفان مهرجانات مثل تلك الموجودة في مصر، فالأهالي ليسوا بالثراء الكافي لصرف الأموال فِي هذه المهرجانات. وهم لا يقيمون

حفلات عند الزواج، فعندما يريد المرءُ أنْ يتزوَّج عليه أنْ يذهب مباشرة لوالد العروس التي اختارها دون أنْ يكون قد أجرى معها أي لقاء مباشر، يتم بعدها عقد الاتفاق للزواج وترتيباته مع والدها. يُقَدَّم مهرٌ للعروس مِن المال، أو الثيران، أو الأغنام، أو الخراف، أو أي أشياءٍ أخرى ذات قيمة مادية، ويتم شراء مستلزمات العروس. في العرس يتمُّ عقد الزواج بين والد العروس والعريس في طقوس احتفالية بسيطة. وتُقَام أيضاً دعوة غداء للجيران الأقربين بمصاحبة احتفال راقص. وإذا كان العريس مِن القبائل التي تختنُ النساء، فإن العروس تختن قبل الزواج. بعدها يجري قطع الرحط، ثُمَّ يأخذُ العريس زوجته إلى منزله حيثُ تُزَال بكارة العروس، ويُعْرَض الدمُ على قطعة قماش إثباتاً لعذريتها. ويمكن أنْ تُطَلَّق المرأة وترجع لأهلها بعد فترة قصيرة مِن زواجها. وإذا عُومِلَتْ الزوجة معاملة غير كريمة مِن زوجها أو لأي سبب مقنع، فإنَّ مِن حَقِّها أنْ تطلب الطلاق. وإجراءات الطلاق غير مُعَقَّدَة، فما على المرأة عند الطلاق إلا أنْ تأخذَ حاجياتها وتذهب إلى منزل أهلها، وإنْ كان لها أبناء فالبنات يذهبن معها، ويبقى الأولاد مع والدهم. والطلاق يحدثُ لأقلِّ الأسباب مثل أنَّ الزوج لم يوفر لزوجته الدلكة الكافية لدلك جسدها. وعند الرجال فإنَّ تطليق النساء يتم بكثرة عند كبرهن بالسن وبعد أنْ ينجبن للمرة الثانية، عندها يتزوج الرجل فتاةً صغيرة جديدة. ويمكن للمرأة الأولى المطلقة أنْ تحتفظَ بكوخ التُّكُل، وتحصل على مصاريف إعاشة لها ولأبنائها تصل 20 باره يومياً، أي بنس ونصف. لكن الأثرياء فقط هم مَن يستطيعوا الاحتفاظ بزوجتين أو أكثر. ويقوم الرجال أيضاً بتحويل رقيقهم من النساء إلى مَحْظِيَّات، خاصة إذا كانتْ نسائهن كبيرات العمر، ورغم أنَّ الدين الإسلامي يحثُّ على حفظ حقوق الزوجة إلَّا أنَّ أزواجهن لا يرعوهن كثيراً. وولادة الطفل ليست حدثاً كبيراً يحتفي به الرجل الأب، بل إنَّه يقوم فقط بدفع مصاريف الولادة والإعاشة، ولا يهتم بتقديم أي عناية خاصة، مثل تلك التي تحتاجها المرأة بعد الولادة. والرجال دائماً ما يعطون كبير اهتمامهم لأعمالهم الخارجية

اليومية. تجري عملية الولادة بواسطة الداية مع حضور النساء كبيرات السن والأقارب الذين ينتظرون قدوم المولود الجديد. وبعد الولادة وخروج المولود مِن رحم أمِّه، فإنَّهن يقدمن الشربات والبلح واللبن البارد والماء للأم. بعدها بفترة قصيرة، فإنَّ الأمَّ تعود لمزاولة أعمالها الاعتيادية. والآباء معجبون بأبنائهم، ولا يعاقبوهم على الأخطاء الصغيرة التي تظهر منهم. وتنشئة الطفل والعناية به حتى يقوي عوده، مِن صميم وظيفة الأم، ولا يبذل الرجال كبير عناءٍ في تربية أطفالهم. ويفطم الطفل بعد سنة مِن ولادته، بعدها تغذيه أمه بالكسرة المنقوعة في الماء. ويمكن أنْ تشاهد طفل صغير يقوم بمص بصلة، بمتعة تشبه متعة أطفال أوروبا وهم يمصون قطعة مِن الحلوى. أَيضاً يُغَذَّي الطفل بالفاكهة البرية، ورغم أنَّ هذا النوع من التغذية يكسب الطفل قوة ومناعة، إلَّا أنَّه نجد انتشار مرض تضخم البطن بينهم بسبب التغذية المستمرة بالماصة، ويصيب هذا المرض حتى الكبار منهم. ونجد أَنَّهم يضعون الأطفال حديثي الولادة على مرجيحة مُعَلَّقَة على عمود، مربوطة من أركانها الأربعة.

ويتم الختان وفقاً لتعاليم الدين الإسلامي، ويختن الطفل الذكر ما بين الرابعة والسادسة مِن عمره. ولقد رأيتُ بعض القبائل تجري ختان للإناث، وحقيقة فإنَّها عادة منتشرة، ورغم أنَّهم يضعون لختان الإناث قدراً كبيراً مِن الاهتمام، لكنها ليست مِن الدين في شيءٍ، والقصد منها إثبات عذرية العروس لعريسها الذكر. ونجد عند الأتراك طقوس احتفالية مثل هذه يقنع في نهايتها العريس نفسه بأنَّ زوجته عذراء، بمقارنة هذا مع عملية الختان، فإنَّ مثل هذا التحقق يصبح غير ممكن. ويتم ختن البنت مِن سن الخامسة وأقصي عمر السابعة. ويُقَام للختان حفل بهيج يُصْرَف فيه المالُ الكثير. يدخر الفقراء لمناسبة الختان المال لفترة سنة كاملة لتوفير مستلزمات الختان. وعادة يبدأ الاحتفال قبل 4-8 أيام مِن الختان يستمر فيها الرقص والغناء حتى منتصف الليل. أمَّا يوم الختان فيستمر الحفل حتى صباح اليوم التالي،

ويتم استئجار خدم ليقوموا بتجهيز المناسبة وتقديم المريسة للحضور. وتوفر للبنت التي سيجري ختانها كُلَّ أنواع المتع والبهجة، عسى أنْ تنسي الألم الذي ينتظرها مِن ذلك. عندما تأتي اللحظة الحاسمة لإجراء عملية الختان، يخرجُ كُلُّ الرجال وتبقى الأم ومعها بعض النسوة؛ لتثبيت البنت وتشجيعها لتحمُّل الختان. تستلقي البنت على عنقريب والنساء حولها يمسكن قدميها وساعديها ويديها ورأسها؛ لكيلا تتحرك، بعدها تبدأ عملية الختن. وأثناء إجراء العملية يكون الجميع في حالة صخب شديد، مَن في الداخل مع البنت المختونة، والحضور بالخارج يصفقون بعنف ويضربون الدلوكة حتى تشارف على التحطم، وتلتهب الأكف مِن شدة التصفيق، والحناجر مِن الغناء بأعلى صوتٍ. كل ذلك لأجل إخفاء صرخات البنت المختونة أثناء ختنها. ورغم ذلك يمكن أنْ تسمع وسط كل هذا الصخب والضجيج، أصوات الصراخ العالي الصادر بسبب الألم مِن الطفلة المختونة. تبدأ العملية الجراحية مِن أسفل إلى أعلى بإزالة الجزء الخارجي مِن الفرج. ويوقف النزيف بوضع الودك على الجرح، وبعد ذلك يُدَقُّ لحاء الشجر حتى يصير ناعم الملمس، ويُوضَع على الجرح عوَضاً عن قماش النسالة. ثُمَّ يُنَظَّف غصن شجرة بسمك ابرة غزل الخيط، ويُحْشَر في ثقب المهبل كي لا تلتصق حوافر الفرج وتقفل مجرى البول، بعدها يتم خيط الجروح. وتكون البنت المختونة مستلقية على العنقريب لمدة 20 يوماً حتى يبرأ الجرح بشكل جيد. في هذه المدة تشرب البنت قليلاً جداً، وتمشي على قدميها مرتين في اليوم. وفي بعض الأحيان تفشل عملية الختان، فتعاد مرة أخرى بعد سنتين، بسبب أنَّ البنات في كردفان يتزوجن في سن مبكرة. تجري عملية الختان الثانية بعد الاتفاق على الزواج بين العريس ووالد العروس، في هذه المرة تتحملها البنت المختونة بصبر وجلد لكي تستعد للزواج الذي سيتم بعد عملية الختن مباشرة، وغالباً ما تكون في خلال 20 يوماً منها. وعندما ينتهي العريس مِن قطع الرحط، ووضع الفركة على عروسه تكون مراسيم الزواج قد انتهتْ.

نجد أنَّ هناك عملية أكثر إيلاماً وتعذيباً تجري على الصبية الذكور مِن الرقيق الذين توكل لهم مهمة حراسة حريم الأتراك وبعض المسلمين، ألا وهي خصي الذكور. يجري عملية خصي الذكور في الأبيض شيخ يسمى سلطان تامة، دائماً ما يُؤْتَى له بالصبي ويكون في سن الثامنة أو العاشرة ليقوم بخصيه على الأرض مثل العجل، ويوضع على ساقيه وصدره جوالاً مليء بالرمال، وبسبب ثقل الحمل فإنَّ الصبي المسكين الذي يجده فوقه لا يستطيع التنفس الا بالكاد. وبقطعة واحدة باستعمال الموس الحادة تتمُّ إزالة العضو التناسلي للصبي. ثم يُعَالج الجرح النازف بنفس الطريقة التي تعالج بها البنت المختونة، عبر وضع الودك ولحاء الشجر المنظف جيِّدَاً على الجرح. وأيضاً يوضع في ثقب البول عود رقيق يحافظ على مجري البول من الانسداد، ويبقي بعدها الصبي المخصي 20 يوماً تحت العلاج. بعد أَنْ يبرأَ الجرح يُعَاد الصبي المخصي لسيده. ولكن لسوء الحظ فإنَّ أعدادا كبيرة مِن هؤلاء الصبية الرقيق يفارقون الحياة نتيجة لعملية الخصي، أو في الطريق عندما يكونون مصدرين إلى مصر، وقليلاً منهم مَن يبقى على قيد الحياة ليواصل الرحلة حتى مصر، فهناك أسعار الرقيق المخصي ضعف أسعار الرقيق غير المخصي. إنَّ عملية خصي الرأس الواحد مِن الرقيق تُكَلِّف عشرة ريالات وخمسة عشرة قرشاً، وفي بعض الأحيان عندما يُخْصَى صَبيَّان من الرقيق يأخذ أحدهم مقابل العملية، أما الثاني يرجع لسيده. وكذلك في سنار ومصر العليا، تجرى عمليات خصي الرقيق. لكن الذين تجرى لهم العملية بالأبيض فهم الأكثر طلباً.

عند الموت يُعْلَن عن المأتم بعويل وصراخ النساء الذي يدعي الولولة. ويشترك كل الحضور مِن النساء سواء كُنَّ مِن الأقارب أو مُجَرَّد حضور. ويستمر العويل على المَيِّت طويلاً حتى تغرب الشمس، ويعاد ذلك طوال الأيام التالية. وعملية تجهيز الميت تبدأ بغسل الجثمان ولفه بالكفن وهو قطعة قماش مِن القطن، ومِن ثَمَّ يُحْمَل الجثمانُ على العنقريب؛ ليوارى في القبر.

تدخل زوجة المتوفي في بيت حداد لا تخرج منه لفترة، وتلازمها صديقاتها حتى تهدأ مِن الحزن على زوجها المتوفى. وتَقِلُّ أَيَّام الحزن إذا كانت الأرملة شابة جميلة، وتنوي الزواج ثانية. هذه هي الطريقة المتبعة في طقوس المآتم. أمَّا عند موت الأطفال فلا تتم أي طقوس، لكن يستمر الحزن لأيَّام قليلة فقط. النسوة مِن الرقيق هُنَّ الأكثر صياحاً وصخباً عند الفرح والحزن، ولقد مررتُ عدة مرات على مأتم فرأيتُهُنَّ يَتَلَوَّيْنَ ويتمرَّغْنَ فوق الرمال، ويضربْنَ أكفهن حتى يسيل الدم تعبيراً عن حزن حقيقي وليس مجرد تمثيل استعراضي.

يحترفُ الأهالي الزراعة في بعض أقاليم كردفان، خاصة الذين يقيمون في القرى ذات الأراضي الخصبة والمياه الوفيرة. وعند فصل الجفاف وندرة المياه، يرحلون مِن قراهم الرئيسية حيثُ يزرعون، ويقيمون قرب مصادر المياه التي يحفرون فيها الآبار؛ لكي يسقوا منها. ولا تستطيع العائلات في مثل هذه الرحلات أخذ جميع مستلزماتها، وهو ما يؤثر عليهم بشكل كبير. إنَّ القبائل التي تحترفُ حرث الأرض لا تملك حميراً أو جِمَالاً كافية، ولكنهم يربون أعداد معتبرة مِن الثيران والضأن والماعز، ويستعملون الثيران للركوب عليها وحمل مستلزماتهم، وتُرَبَّى الثيران ذات القرون في بعض القرى، وعندما تساق قطعانها للرعي، يكون الراعي راكب على الثور ويسير القطيع خلفه. إنَّ كل بقرة لديهم لها اسم تُنَادى به، فإذا خرجت البقرة عن طريقها تنادى باسمها؛ فتستجيب بسرعة عندما تسمع اسمها وتعود للقطيع. والبقرة التي تتخلف أكثر، يعود إليها الراعي ويضمها للقطيع بكل سهولة. ورعاة الأبقار يجيدون الركوب على ظهور الثيران الخالية مِن أي غطاء أو سرج يقي مؤخرة الراكب من تأثير عظام الثور عليه، ويُثْقَبُ الثور المُعَدّ للركوب بين أنفه، ويُدْخَلِ حبلٌ بدلاً عن اللجام كشكيمة تسهل قيادته. في قرى كثيرة معزولة نجد أنَّ قطعان الأبقار لا تضل الطريق إلى مقصدها ولا تختلط مع قطعان أخرى، وترعى لوحدها بلا راعي يشرف

عليها. وفي الصباح بعد حلب الأبقار تخرج مِن الزريبة؛ لترعى وتعلف بنفسها، وتأخذ طريقها لوحدها إلى البئر لتُسْقَى الماء مِن وعاء مُجَوَّف مِن جذع الأشجار. بعد انتهاء سقايتها وشربها لما تحتاجه من مياه، تُجْمَع كُلَّ الأبقار في مكان واحد، ويُؤْتَى بثور؛ ليقودها لمكان الرعي دون مصاحبة راعي. ومِن المدهش حقاً رؤية هذه الأبقار تتبع الثور الذي يقودها لمرعى يبعد ساعتين، ثُمَّ يأتي بها راجعة عند المساء. أيضا مِمَّا يلفت الانتباه تجمع كل القطعان في مكان البئر قبل نصف ساعة مِن غروب الشمس، ورغم أنَّ المسافة تكون مِن ميل إلى ثمانية أميال فإنَّ الأبقار تعود لقريتها لوحدها. عند سؤالي عن سبب هذه الظاهرة، أكدوا لي أنَّ هذه عادة قديمة لا يمكن تحديد فاعلها الأوَّل، وهي تقضي بترك قطعان الماشية ترعى لوحدها ونادراً ما تضل الطريق. فإذا فقدت بقرة يتبع خط سيرها فيعثر عليها بسهولة. ولقد أخبروني أنَّه قبل مجيئي بأشهر قليلة فقدت بقرة مِن قطيع القرية، ولم تأتِ حتى مجيء الليل، فركب صاحب البقرة المفقودة جَمَلَهُ في أوَّل فجر اليوم الثاني مزوداً نفسه بطعام وماء يكفيه لأربعة أيام، وأخذ اتجاه الطريق الذي سلكته الماشية للمرعى في اليوم السابق، وعند وصوله بحث عن الأثر في كُلِّ الاتجاهات، حتى وجد آثر جمل وبقرة. وتتبع الأثر لمدة يومين كاملين، حتى انتهى إلى مكانٍ يسكنه الكبابيش، ووجد بقرته المفقودة على قيد الحياة واسترجعها بِكُلِّ سهولة. تُحْلَب الأبقارُ عندهم مرتين في اليوم، مرة في الصباح، وأخرى عند غروب الشمس، وفي بعض الأحيان عند المساء. لكنها تُعْطِي القليل مِن اللبن الذي يصير رائباً في مُدَّة ساعة مِن الزمن. تُحْلَب الأبقارُ في إناء مصنوع مِن لحاء نبات القنا، وهم لا يغسلون الإناء جيداً عند استعماله، مِمَّا يجعل الحليب يتخثَّر بسرعة إلى رائب. ولا يعرف الأهالي أي طريقةٍ لحفظ اللبن كحليب لمدة طويلة، لذاً فهم يصنعون منه السمن. يُصْنَع السمنَ بصب اللبن في قِرْبَة مِن الجلد تُعَلَّق على عامود وتُهَزُّ إلى أنْ تتكون الزبدة، ثم تضاف إليه بعض الثمار المحلية التي تساعد على تحويله سمناً.

يُقَام السوق في القرى مرَّة في الأسبوع، وعلى أي شخص أنْ يشتري مئونته لمدة أسبوع لأنَّه لن يستطيع الحصول عليها قبل مرور أسبوع آخر. وهم لديهم حاجة ضرورية لاستعمال التبغ يومياً. ويمكن أنْ أحكي قصة هنا تَدُلُّ على ذلك، ففي قرية يُقَام فيها السوق مرة واحدة في الأسبوع، حصل حريق قضي على كوخ تُكُل لرجلٍ عجوز ولم يترك له أي متاع، فما كان منه إلَّا أنْ تحوَّل لمتسول يستجدي الصدقات مِن الناس ويناديهم الله كريم، الله رحيم. وقد اعترض طريقي، ورجوته أنْ أعطيه صدقة مقابل أنْ يحكي لي قصته، لكن لدهشتي فإِنَّه رفض الصدقة، ورجاني أن أملأ كفيه بالتبغ لأنَّ مئونته منه قد قضى عليها الحريق.

الأهالِي في كردفان ذوو أخلاقٍ عالية رفيعة، فهم دائماً ما يستقبلون الرحالة بكُلِّ الود والترحاب وكرمٍ الضيافة. وإذا حل الرحالة على قرية في منتصف النهار أو في المساء، ما عليه إلَّا أنْ يختار أي كوخ وسيعده لضيافته الأهالي سريعاً، كما يمكنه أيضاً أنْ يبيت مع أي جار أو في العراء إذا أراد ذلك وكان الطقس ملائماً، ولو كان الرحالة يستطيع أنْ يطعم مِن طَعامهم فإنَّه يمكن أنْ يعيش بينهم أي مدة، بدون أنْ ينفق قرشاً واحداً لأكله أو لأكل خادمه، ويمكنه أيضاً أنْ يترك جَمَلَهُ يرعى في أطراف القرية. والأهالي يؤدون للرحالة كل الخدمات التي يحتاجها عن طيب خاطر ورضا، ودون طلب مال بالمقابل، وكمثال فإنَّه في مصر فإنَّ نفس هذه الخدمات لا تُؤَدَّى إلَّا مقابل مبلغ من المال. الشيء الوحيد الذي يمكن أنْ يُسَبِّب مضايقة للزائر هو تردد الأهالي له في مكان إقامته بأفواج كبيرة فور وصوله، فيأتي أولاً شيخ القرية والأعيان ويدخلون على الزائر في كوخه، وينتظر الأهالي في فناء الدار. بعد ذلك يبدأ الأهالي يحتفلون بالزائر بإمطاره بمئات الأسئلة مِن نوع: متى قدم؟ إلى أين يريد السفر؟ ماذا صادفتْ في الطريق؟ ولا يتركونه يتنفس مِن كثرة الأسئلة. وقبل أنْ يستطيع أنْ يجاوبَ أي سؤال يمطرونه بأسئلة أخرى وهكذا. أيضاً يعاني خادمه لأنهم يسألونه أسئلة مداورة لكي

يحصلون منه على إجابات. فهم يسألونه مَن هو هذا الغريب؟ أهو شخصٌ مهم؟ وإلى أي جنسية ينتمي؟ وأي أسئلة أخرى. وحقيقة فإِنَّ أي معلومات يعتبرونها مفيدة لهم. فإذا عرفوا أَنَّ الزائر إفرنجيّ تتدفق الأسئلة بكثرة، ويأتي كُلّ المرضي بالقرية إليه طلباً للعلاج؛ لأَنَّه لا يوجد لديهم طبيب، وهم يفترضون أَنَّ أي إفرنجيّ طبيب. وهو لا يستطيع الفرار منهم، وعليه أنْ يعطيهم وصفات دوائية ويعدهم بالشفاء العاجل مِن الله، ويمكنه أنْ يُعْطِي المرضى قهوةً أو سكراً أو دخاناً مِن التبغ الجيد الذي يرفع مِن معنوياتهم. كُلُّ شخص منهم يأخذ نَفَسَاً مِن الكدوس ثُمَّ يعطيه لجاره حتى تكتمل الدائرة. وبعد أَنْ ينفد التبغ والقهوة ينصرف الزوار مِن الأهالي بعد أنْ يكونوا قد أحدثوا الكثير مِن الضجيج. ولا مَفَرّ مِن التخلص مِن مضايقاتهم هذه إلا بادعاء التعب والنعاس، فعندما يشعرون أَنَّ الشخص بدأَ على عينيه النعاس ينصرفون بسرعة دون أنْ تحسَّ بهم، لكن عند التخلص مِن زيارة الرجال، فإِنَّ المشاكل لم تنتهِ بعد. عندها يأتي دور النساء اللاتي يصبحن مصدر عذاب مزود بغريزة حب الاستطلاع لرؤية الرجل الإفرنجيّ، وهن يتجمعن على مقربة مِن منزل الزائر، وينتظرن بقلق وترقب لحظة خروجه لكي يستطعن النظر إليه. في البداية يتوجسن منه، لكنه إذا أعطي أطفالهن قِطَعاً مِن السكر فإِنَّهُنَّ يشعرن بالطمأنينة تجاهه ويعاملنه بعفويةٍ، وكأَنَّه يقيم بينهم منذ سنين.

إِنَّ القرى التي بين الخرطوم ودنقلا كانت تعاني مِن مرور جنود محمد علي عليها خاصة ضباطه الأتراك. فهم عندما يدخلون قرية ينهبون أي شيء بسرعة، ولا يتركون فيها أي فرصة للأهالي لتخبئة أي شيء عنهم. وإذا لم يجلب لهم الأهالي ما يريدونه؛ فإِنَّهم يشرعون في ضربهم بالسياط؛ ليأخذوا ما يريدونه مِن أدوات وطعام بلهجةٍ آمرة. ويقوموا بجمع كل حيوانات القرية التي يربيها الأهالي لإعاشتهم، مِن دواجن وحمام وكُلّ حيوانات أخرى امتنع الأهالي عن تسليمها لهم، ليلقيها الضباط الأتراك في النار. ولا يدفع الجنود ثمن ما يأخذونه مِن القرى التي تقع على طريق حملة الفتح المصري؛ مِمَّا جعل

الأهالي يخفون احتياطيهم مِن المؤن الغذائية والدواجن والحيوانات الأخرى بعيداً عن أعين الضباط الأتراك ومساعديهم. لكنهم إذا سمعوا أنَّ الزائر لقريتهم إفرنجيّ وليس تركي، فإنَّهم يحضرون له كل ما يحتاجه ويعطونه بكروم وسخاء ودون مقابل. على عكس ما يفعلونه إذا ما أتاهم تركي. إنَّ أهالي كردفان مِن أرقى الناس إذا ما عاملتهم بلطف وتحضر، ويختلفون عن جيرانهم مِن سكان سنار رغم أنَّهم الاثنين يتبعون لحكم واحد وعلى خط عرض واحد، ونفس الجو ودرجات الحرارة، ونفس العنصر البشري. ورغم ما ذكرنا عن أخلاق أهالي كردفان، لكن قرى الحدود ليست على ما يُرَام مع بعضها. وعلى الرحالة عندما يمر بقرية الحرازة التي تقع في الطريق بين الاردي ودنقلا، أنْ يكون يقظاً ومحروساً ومستعداً، أيضاً عليه أنْ يأخذ حذره عندما يأخذ طريق القرى إلى الخرطوم أو دارفور، والتي تكون الأكثر خطورة بينهم. عندما كنتُ مسافراً في رحلة عبر قرية الحرازة التي لازمني فيها كثيرٌ مِن سوء الطالع، لأنَّ خادمي لم يستطع أنْ ينجو مِن استبداد شيخ القرية بخدعة مقبولة. عند سلوكك لهذا الطريق عليك أنْ تَتزود بمياه كافية لأنَّك لن تجد فيه مياه حتى تصل منطقة كجبر الواقعة مسافة يومين مِن أقرب قرية لها. وإذا أردتْ السفر لدنقلا عليك أنْ تَتَزَوَّد بماء يكفيك حتى تصل لمنطقة الكهوف الجبلية بقرية سمراية، والتي يوجد فيها شيخ يسيطر على آبار المياه غصباً ويمنع الناس والجلابة مِن ورودها إلا إذا دفعوا رسماً يبدأ مِن جنية حتى أربعة جنيهات؛ لملء قِرَب الماء. وعندما طلبتُ منه الماء طالبني بستة جنيهات اعتقاداً منه أنَّ الإفرنجيّ عليه أنْ يدفع مالاً أكثر. فهو لم يتعوَّد على الاعتراض على سلوكه الاستبدادي خاصة أنَّه رآني أسافر مع خادمي فقط، ولكني كنتُ مُهَيَّأً لمثل هذه الطلبات الاستبدادية، وقد نبهني الناس قبلاً على ألا أنصاع لطلباته، وأنّه ليس مِن حقه بيع الماء لصالحه، فالآبار ملك للدولة. لذا رفضتُ أنْ أدفع له المال الذي طلبه مقابل إعطائي الماء، وبإصرار وبعد جدل متبادل وافق على إعطائي الماء مِن بئر كانتْ بدرجة مِن العفونة يصعبُ على الجمل شربها. وعندما أبلغني خادمي

بذلك أمرته بدلق الماءِ على الأرض فوراً، وطلب ماء صالح للشرب مِن الشيخ، مع العلم أنَّه توجد على مسافة مجاورة آبار ماءها صالح للشرب، لكنه رفض أنْ يعطيني مِن الماء ثانية. لقد أثارني جداً السلوك الوقح لهذا الرجل فسحبتُ مُسَدَّسي مِن الحزام وصوَّبته على صدر الرجل مهدداً له أني سوف أطلق النار عليهِ، إنْ لم يصدر الأوامر لرجاله بتزويدي بالماء الكافي لرحلتي مِن الآبار التي ماءها صالح للشرب، لكن خادمي ترجاني ألا أطلق النار على الرجل. فأخذ خادمي ابن الشيخ بعيداً وهمس له بأني شخص لا يأمنُ جانبي في القتل، فقبل أثني عشر يوماً قتلت شيخاً في دنقلا على إثر مثل هذه الاعتراضات، وإنّه مِن حقي كإفرنجي أنْ أقتلَ مَن يقف أمام طلباتي المشروعة، وقد كان لهذه الخدعة تأثير رهيب على الرجل الذي كان يزدريني، فقد قلب تصرفه وأصبح وضيعاً يتذلل لي ويطلب الصفح مني، وعرض عليَّ أنْ آتي لمنزله حتى يأتي إليّ بما أحتاجه من ماء صالح للشرب، بجانب ذلك أهداني خروفاً سميناً لزوم مؤن للرحلة، ولم يطلب مقابله مالاً، وعبَّر عن استعداده لكي يلبي كل طلباتي. ويمتلك هذا الشيخ خيول مدربة على اصطياد الزراف الذي يُصَدَّر إلى أوروبا وأمريكا. وعندما قابلته كان يملك 24 من الأبناء، أولاد وبنات.

وقد كان عليَّ قبل أنْ أعدَّ لرحلتي لكردفان أنْ أتعرَّف على طبيعة الأناس الذين سأقابلهم أثناء رحلتي، مَن يستحقُّ التعامل بعطفٍ ولين مثل الزنوج، ومَن يستحقُ الصرامة والشدة معه وحتى اللؤم مثل العرب والدناقلة. إنّ معاناة التسعة أشهر التي قضيتها متجولاً في البلاد أكسبتني الكثير مِن التجارب، التي تتفوق على تجارب الرحالة الذين يدخلون إليها مصحوبين بفرق عسكرية وخدم قوقاز وغيرها مِن التجهيزات. فأنا لم اصطحب معي أحد، إلَّا خلال أيَّامي الأول كنتُ بصحبة خادم واحد. لكنني في رحلاتي الأخيرة كنتُ وحيداً. وقد ذقتُ الكثير مِن معاناة الجوع والعطش التي جعلتْنِي آكل كغذاء لحم الجراد والجِمَال النتن، ولم أرَ خبزاً البتة في تلك الأيَّام.

وقد مررتُ بأوقات عصيبة عانيت فيها لمدة (36) ساعة بدون ماء، وبدون أي آثار في مدى البصر سوي الرمال والصحراء. حتى دودة الأرض لم توجد لكي تكسر رتابة هذا المنظر الكئيب، ولم أصادف طوال هذه الرحلة إلَّا عظام الجِمال والبشر مدفونة في الرمال، وكانتْ الرياح الساخنة ترفع غبار الرمال حتى تختفي أشعة الشمس، حتى أنَّنِي تخيلتُ أنَّها سوف تصبح مقبرة لي. وقد رأيتُ أحدَ الجِمَال توقف مِن التعب، أثناء عاصفة رملية وغطته الرمال بالكامل. أثناء رحلتي مِن كردفان إلى سنار صادفتني العديد مِن المصاعب، لكنها لا يمكن أنْ تضاهي الصعاب التي قابلتها عند عودتي عبر الصحراء الكبرى الممتدة مِن أبو حمد حتى كورسكو على ضفة النيل، وبسبب أنَّنِي لم أكن أملك مالاً لأشتري جملين؛ فإنَّنِي اُضطررتُ للمسير يومياً ما يقارب 21 ساعة على أرجلي في الرمال وتحت هجير الشمس الحارقة، تاركاً الجمل الذي بصحبتي يحملُ أمتعتي وقِرَب الماء، وقد علمتُ أنَّه يمكنُ للإنسان مِنَّا تحمل الكثير من المشاق تتعدى ما يتخيَّل تحمله. في الأخير وصلت كورسكو، بعد رحلة دامت 8 أيام، وقد قابلني عند وصولي عالم الطبيعيات السيد كوتشسي، وهو الشخص الوحيد الذي يمكنُ أنْ يصف حالتي المزرية في ذلك الوقت مِن تعب وجوع وعطش، وقد استضافني في خيمته لمدة ثلاثة أيَّام وقد كان واصلاً حديثاً مِن القاهرة الكبرى. في الأخير فإنَّنِي أقولُ إنَّني خضتُ المصاعب، وتحملت بصبر غير عادي، ونجوت من كل ذلك بشق الأنفس.

ويجب على الرحالة المزود بجواز سفر أنْ يتوقع محن ومصاعب كثيرة أمامه؛ فرغم أنَّ سلطة الحكومة صارمة جداً في المناطق الحدودية خاصة في حدود دارفور وتقلي. وهم يتحققون مِن أي شخص غريب، حتى لو أتى لوحده. فإذا نُهِبَ أحدٌ أو قُتِل فإنَّ الشبهات تحوم في البدء حوله، خاصة إذا وُجد قُرب مكَان الجريمة. والأهالي لا يبلغون عن أي منهم، لأنهم يعتبرون أنَّ التبليغ خيانة، وهو ما يعني أنَّ الجُرْم يتلبسه وقد يفقد حياته؛ لذا على

الإنسان أنْ يدرس هؤلاء الناس ويتجنب الاحتكاك معهم. سأحكي قصة حدثتْ لي قرب ضفة النيل الأبيض، كادتْ أنْ تُودِي بحياتي وحياة خادمي المرافق، وستوضح ان معرفة صفات الناس وطريقة التقرب إليهم هي الوحيدة التي أنقذتني مِن هذا الموقف الحرج. تبدأ القصة أنَّنِي نصبتُ خيمتي في تلك المنطقة قريباً مِن النيل، وأرسلتُ خادمي ليأتي لنا بالحطب لإيقاد النار ليلاً، لأنَّها يجب أنْ تظل موقدة طوال الليل خوفاً مِن الهجمات الليلية لتماسيح النهر أو فرس النهر، وباقي الحيوانات المفترسة مِن أسود وغيرها، مِمَّا يمكنُ أنْ يهجمَ علينا في الظلام، لكنها تبتعد إذا رأتْ النار موقدة. وعندما ذهب خادمي للبحث عن الحطب لم يجد أي أشجار قريبة مِن مكاننا. عندها أتى زنجي مِن قرية قريبة ورسا بقارب يحمل على متنه حطب، فطلب منه خادمي بعض الحطب، فأعطاه نصف حمولة القارب. وبعد أنْ أدرت ظهري، فإِنَّ خادمي الطماع طلب مزيداً من الحطب، لكنه رفض إعطائه إياه. عندها ما كان مِن الزنجي حاد الطباع، إلا أنْ تشاجر مع خادمي ولطمه وبدأ العراك بينهما، ولم يتوقف عن ضربه، رغم أنَّ الخادم بدأ بالصراخ وطلب الرحمة. لقد كنتُ أشاهد العراك مِن على البعد، ولكن لم تتضح لي الرؤية، وأخيراً تَبَيَّن لي أنَّ خادمي في موقف سيء، فأخذتُ بندقيتي ذات الماسورتين وصوبتها نحو الزنجي، وأَمرتُه أنْ يوقف العراك، فما كان من الزنجي إلا أنْ قفزَ واقفاً على قدميه وأمسك بحربته وقذفها نحوي قبل أنْ أتبين مقصده، ولحسن الحظ لم تصبني، ولكن مَسَّتْ بابوشي papoosh-es الواسع مَسّاً خفيفاً. لقد صار الزنجي بإطلاقه رمحه نحوي مُجَرَّدَاً من السلاح، فصوبتُ عليه مرة ثانية، لكن الزنجي وقف في مكانه بصلابة، وقال إِنّه لا يهاب الموت. عندها ألقيتُ سلاحي أرضاً وتقدَّمتُ نحوه، وناقشتُ معه ملابسات الحادث من كُلِّ جوانبها، واعترفتُ بجُرْم خادمي وسعيتُ لاسترضائه، ووعدته بأَنِّي سوف أعاقب خادمي، لكن كَل محاولاتي باءتْ بالفشل، حيثُ وقف أمامي يخرج الزبد مِن فمه بسبب الغضب الشديد، وقال إنّه لا يمكنه أن ينازلنا الاثنين لوحده، عندها انطلق مهرولاً يصيح

بنداء الحرب لولولوا. وقد انتابني القلق عندها لأَنَّنِي علمتُ أَنَّنا لم نكن مهيئين لمثل هذا النوع مِن القتال، ولما لم تكن هناك فرصة للهرب، فكرت في حيلةٍ أخرج منها مِن هذا الموقف الخطير، وأنْ أتجنَّب اندفاع الهجوم الأول لأعدائي الغاضبين. عندها قمت بسرعة بربط خادمي بحبلٍ مِن يديه ورجليه وأخذتُ فرعَ شجرةٍ مِن الأرض، وتظاهرتُ أَنَّنِي أقوم بضربة بلا هوادة، وهو بدورة قام بالصراخ بأعلى صوت كلما لاحظ يدي وهي تلوح بالسوط. عندما أتتْ جموع الأهالي نحونا ورماحهم تلمع في أشعة شمس المساء، وصياح النِّساء من خلفهم لتشجيعهم على القتال. ورغم أنَّ موقفنا كان غاية في السوء، إلَّا أَنَّنَا واصلنا في تأدية أدوارنا بجدية، فقد صرخ خادمي حتى أغمي عليه. وعندما وصلوا إلينا، ورأوا ما ألحقتُه بخادمي من ضرب، أمروني أنْ أكفَّ عن ضربه، وعندما تركته بدأ الخادم يتلوى في الرمال كالمجنون، فتقدم مني الزنجي الذي بدأ العراك معنا وأمسك بيدي قائلاً: كفي فقد عرفتُ ما سبَّبَه لي خادمك وقمتُ بعقابه. بعدها تقدَّم رجلٌ عجوز، وحل وثاق يدي ورجلي الخادم، وأفهمني سبب ثورتهم، فهم كانوا يعتقدون أَنَّنَا مِن البقارة. عندها دعوت الرجل العجوز والرجل الأخر، وقدَّمت لهم كدوسي ليدخنا وأعطيتهم مشروب القهوة. بعدها سارتْ الأمور بيننا على ما يُرام وتصالحنا. ثم بدأا في سؤالي: متى أتيت؟ وإلى أي جهة أنت مسافر؟ ثُمَّ تحدَّثنا في مواضيع شتى أخرى. بعد أنْ حلَّ الليل، انسحب الجمع ما عدا خمسة منهم بقواً معي لحراستي، وقد احتسوا عدة جرار مِن المريسة، وحافظوا على النار متقدة طوال الليل، واستهلكوا كل الحطب الذي سبب لنا هذه المتاعب منذ البداية. وعندما غادر الحرس في الصباح أهدوني غزال لزوم مئونة لرحلتي.

وأعترفُ أَنَّنِي عاجزٌ عن وصف التقدير والعرفان والمودة القلبية التي أبداها أهالي كردفان تجاهي؛ فكلهم مدوا لي يد العرفان التي لم أكن أتوقعها حتى في بلادي، ومِن أقرب أقربائي. خاصة عندما حدث أنْ سقطتُ مريضاً

في الصحراء، واستلقيتُ على الرمال لأنَّني مِن ضعفي لم اقوَ حتى على ركوب ظهر جملي، وقد بقيتُ على هذه الحالة حتى أتتني نجدةٌ مِن أقرب قرية، والتي لحسن حظي لم تكن تبعد سوي مسيرة نصف ساعة، قد أتى رجلٌ بخصال نبيلة، وأخذني إلى منزله، واعتنى بي طوال 30 يوماً. ليس في مقدرتي أنْ أصف ما تكبده هؤلاء الأهالي مِن مشاق للاعتناء بي، فلقد كانوا يتنافسون في خدمتي صباح مساء. فالنساء كانت إحداهن تهشُّ الذباب عني، وأخرى تلطف على سخونة الجو بهبابه ريش نعام، بسبب أنَّ حرارة الطقس كانتْ في تلك الأيام تصل إلى 50 درجة مئوية داخل الكوخ، ولا يوجد هواء متجدد. وقد أبدتْ الخادمة الشابة الجميلة أم جمعة تعاطفاً ومودةً خالصة مع حالتي السيئة، وكانت تزرف الدمع كُلَّمَا اشتدتْ حالتي سوءً. ولم تنجدني كُلُّ الأدوية التي حملتها معي لأحافظ على صحتي، فقد كانتْ الحمى مستدامة، وبعد 5 أيام صرتُ مِن الضعف لدرجة أنَّني لم أقوَ على الحركة، واضطرتْ النساءُ لرفعي وتحريكي خارج السرير، وقد أحسستُ أنّ عمري شارف على الانتهاء، وقد قُمْنَ بربط الأحجبة على ساعدي، وتبخيري على رأسي لأجل أنْ يذهبن المرض عني، وقد استسلمتُ لممارساتهن، لأجل ألَّا أجرح مشاعرهن الطيبة تجاهي. وعندما تفاقم مرضي أكثر أرسلن إلى الوداعِيّة في القرية المجاورة لتأتي إليهن. وعندما أتتْ الوداعِيَّة، قامتْ برمي الودع على الرمال، وقالتْ لهن إنَّ هذا الإفرنجي لا يزال هناك بقية في عمره، وأنَّه لن يموت قريباً. بعد أنْ غادرتْ الوداعية، قامت النسوة برفعي مِن العنقريب، ووضعي على حزمة قصب وظهري على الباب ونزعن قميصي، ولما كنت على ضعف شديد لم أتمكن مِن الوقوف معتدلاً، فوضعن أيديهن على بطني ورفعنني. بعدها شعرتُ بصدمة شديدة تسري في جميع أجزاء جسدي، مِمَّا حبس أنفاسي لعدة دقائق. وكان السبب أنهُنّ دلقن سلة ماء باردة احضرنها مِن البئر، وصببنها فوق جسدي الملتهب مِن الحمى. وقد تحمَّل جسدي هذا الدش البارد بصعوبة. بعدها قُمْنَ بتجفيف جسدي وإعادتي مرة أخرى إلى العنقريب، وغطينني بشوال فارغ وفروة خروف، فشعرتُ ببعض

الراحة وذهبتُ في نوم عميق، بعد أنْ فارقني النوم منذ زمن طويل. عندما استيقظتُ أخبروني بأَنَّه تصبب بعض العرق مِن جسدي، ولكن بكمية قليلة، مما يستدعي حمام الدوش البارد للمرة الثانية. فوافقت فوراً على تكرار هذه التجربة التي لا مناص منها، فأعدن حمام الدوش البارد بنفس الطريقة الأولى، لكنه لم يسبب لي أي صدمة لأنِّي قد هيَّأتْ نفسي له. في المرة الثانية أصبح جسدي يتصببُ الكثير مِن العرق، وقد توهمتُ أنّني دخَلتُ في حمام آخر. بعدها بدأتُ أشعر أنَّني قد تحسَّنْتُ وخفت أعراض مرضي، وأصبح في مقدوري أنْ أنهض مِن العنقريب، وأتمشى تحت ظلال أشجار الدوم القريبة. انتقل خبر شفائي في القرية وتوافد الأهالي لتحيتي وتهنئتي بالشفاء، وأوقدوا النار أمام منزلي في الليل، ورقصوا تعبيراً عن فرحتهم بشفائي، فأمددتهم بالمريسة وكانوا في غاية مِن الفرح والسرور. بعد ذلك فإنّ صحتي تحسَّنت بسرعة مضطردة، وتمكنتُ مِن استئناف رحلتي. لكنني لن أنسي أبداً الدين على رقبتي بسبب ما قدَّمه لي هؤلاء الناس الطيبون الأنقياء، الذين يفعلون المعروف بلا مقابل. والذين شاركوني معاناتي، والذين اعتنوا بي في الظروف المحزنة التي مررتُ بها.

(5)

المميزات الشخصية لإنسان كردفان

لم تصادفني في العالم بلادٌ يختلف فيها السكان عن بعضهم البعض تماماً مثل ما هو حاصل في كردفان. فإنَّك إذا قمتَ برحلة لمدة نصف يوم مِن مركز لآخر، فإنَّه يُخَال للرحالة أنّه قام برحلة إلى بلاد تختلف عن تلك التي كان فيها، وأنَّه قد حطَّ رحاله ببلاد أخرى تحت حكم ودين يختلف عن تلك التي غادرها. فما ألقته ظلال التنوع العرقي على الشخصية المحلية أحدثَ فيها اختلافاً واضحاً. فحقيقة الأمر هناك (3) أجناس مِن البشر يتحدثون (3) لغات تختلف عن بعضها البعض:

1. الزنوج أو المواطنون الأصليون.
2. العرب أو الأحرار والذين يضمون قبائل البقَّارة.
3. الدناقلة وهم المهاجرون مِن دنقلا.

نجد الزنوج منتشرين في المركز الخمسة، وهم يعتنقون الدين الإسلامي، ويحترفون مهنة الزراعة ما عدا قليل مِن الرقيق. ونجد أنَّ احتياجاتهم المعيشية بسيطة مقارنة بالذين يحترفون التجارة، والذين علمهم تجوالهم بالبلدان أنْ يطلبوا متطلبات حياة مريحة صارتْ كالضروريات بالنسبة لهم. أغلب الزنوج مِن النوبة، وهم معتدلي المزاج وكرماء لأقصي حد، ومشاعرهم نبيلة، ويحبون أطفالهم بشدة، وفي بلادهم يتعاملون بصدق، ولا خوف مِن إقامة علاقات منفعة معهم. ولا أخالُ نفسي كاذباً إذا قلتُ إنَّ الأمان الذي يجده الإنسان في بلاد النوبة، لا يوجد في المدن الأوروبية، رغم ما يوحي بها مظهرها الخارجي مِن أمان! وهم أناس مخلصون يقدمون يد العون لبعضهم

البعض عند الحاجة. وهم محبون لوطنهم ولم يغادروا مساكنهم، إلَّا تحت حكم الدفتردار المرعب الذي تسبب بهجرة قرى بأكملها. ولكنهم دائما ما يتحينون الفرصة للثأر لأنفسهم. ورغماً عن ذلك فإنّ طبيعة مزاجهم المعتدل لا تترك لأنفسهم مجالاً أنْ يتملكها الغضب المتزايد. فإذا أغضبته ما عليك إلَّا بكلمات طيبة تهدئه بها، ولكن في بعض الأحيان الجدية مطلوبة. في الحقيقة فإنَّه لطبيعة تفكيرهم المحدود فإنّ على الشخص أنْ يعاملهم مثل الأطفال. وهم على أقل درجات الوعي الاجتماعي، بجانب أنَّهم لم يبذلوا أدني جهد لتطوير ملكاتهم العقلية، لذلك فهم يعيشون حياتهم مثلما كانت تُعَاش منذ مائة عام مضتْ. فمنازلهم باقية كما هي، وأدوات معيشتهم اليومية كذلك لم تتطور أو تتبدل، فكل شيء كما ورثوه عن أجدادهم الأولين، وعلى نفس الطريقة التي كانوا يؤدون بها أعمالهم، ومِن السهل على المرءِ أنْ يدركَ أنَّ طريقة حياتهم منذ آلاف السنين لم تتغير، ولا تجد الأفكار الحديثة منفذاً لعقولهم لأجل الإصلاح وابتكار أشياء جديدة، والشيء المحير فيهم أنَّهم يقابلون مجري التطور بهمم فاترة، وهم مرتبطون بأراضيهم لا يغادرونها، ويجدون حياتهم في ترتيب شَّئونهم، مثلما كانتْ الأمم السابقة الغير متحضرة. فحضارة هؤلاء هي الركود المستديم. رغماً عن ذلك نجد من بينهم القليل الذي يقرأ ويكتب، ولكنهم قلة غير مؤثرة. وأجدُ أنَّ أَدَقَّ وصف لحياتهم بشكل عام أنّها حياة يعمها الظلام. إنّ أثر المناخ واضح في تشكيل ذهنيتهم. وإذا طبَّقْنا القاعدة التي تقول إنّ المناخ يساعد على تفتح أو غلق الذهنية، نجد أنَّ ذلك صحيح، فالأوروبيين الذين مروا على هذه البلاد ومكثوا فيها بضعة سنين كانوا يعانون ضعفاً في مقدراتهم الذهنية، ومع مرور الوقت فقدوا بعض ما اكتسبوه مِن خبرات. فالكسل وفتور الهِمَّة هي مِن خلقهم، ولذلك هم لم يحرزوا أي تقدُّم حضاري، استثني منهم أهالي غرب أفريقيا الذين هم شواذ عن هذه القاعدة، ومِن الممكن أنْ يرتقوا حضارياً. وهم أناس عندما يتعرفون بشخص ويثقون فيه، يكونون صريحين معه ويفضون له بمكنونات أسرارهم؛ لأنَّ طبيعتهم صريحة لا تداري أفعالها عن الآخرين، إلَّا إذا ثبت

لهم أنَّ اتصالهم بالآخرين يضرُّ بمصالحهم الشخصية أو العامة. وهناك أيضاً أناس يقطنون البلاد المجاورة لهم ويماثلونهم في طبائع شخصياتهم.

والملاحظ أنَّ ما يُجْلَب مِن رقيق مِن هذه البلاد يستطيعون تحمل الكثير مِن العمل. وهم في غالبيتهم وثنيين، وهذا السبب الذي يجعلهم هم والقبائل المتحالفة معهم يتم معاملتهم بشكل قاسي. وعلي مَرِّ الأيَّام إذا اعتنق أحدهم الإسلام، فإنَّه يُعامل كأحد أفراد الأسرة رغم أنّه رقيق. فقدر هؤلاء المخلوقات التعسة سيء بسبب إجبارهم على تَحَمُّل حرمانهم مِن نعمة الحرية، وأداء الأعمال الشاقة مكبلين بالقيود التي تمنعهم مِن الهروب لجبالهم، التي على مقربة من مكان أَسْرهم. إنّ قيدهم ليس مثل القيود التي يُكَبَّل بها المجرمون في أوروبا. فهي تُصْنَع مِن حلقتي حديد، في كُلِّ رجلٍ توضع حلقة عند نهاية الساق مقرونة معها حلقة أخرى صغيرة في الحجم موصلة بقضيب حديد، ليجعل القدمين متباعدتين قليلاً، فمن المحتمل أنْ يستطيع الرقيق إخراج رجل واحدة مِن القيد، لكنه لا يستطيع إخراج رجليه الاثنين. ويضرب القيد جيداً ليلتصق مع بعضه البعض بحجر ثقيل، لأنهم لم يعرفوا المِطْرَقة بعد. وتترك مسافة بين أسفل الساق والحلقة؛ ليتحرك فيها أسفل الساق حركة مناسبة. إنَّ عملية وضع القيد على رجل الرقيق تتم باستلقاء الرقيق على الأرض، بعدها يتم وضع حجر كبير تحت القيد عِوَضَاً عن السندان، ويستعمل حجر آخر ثقيل كَمِطْرَقة. وعند بدء الطرق تتخذ كُلّ التحوطات اللازمة، والتي تحول دون إيذاء رجل الرقيق. وبعض القيود بها قفل لكنه يؤذي قدم الرقيق، مِمَّا يجعلهم في بعض الأحيان يلفونه بخرق مِن القماش لتخفيف الاحتكاك. وهم يعانون كثيراً عند فك هذه القيود عنهم. لقد صادفتُ مَرَّة أحد الرقيق كان مقيداً على شجرة وأريد فك قيده، فاتوا بثمانية رجال وربطوا حبلاً في حلقة القيد لإخراج رجل الرقيق، وقد استغرقهم ذلك قرابة ربع الساعة حتى استطاعوا فك القيد. والزنوج على العموم حديثي العهد بالعبودية، ولذا نجدهم كئيبين ويتكلمون قليلاً.

وفي حال إذا تحدَّث معهم أحد لا ينتبهون إليه، فتفكيرهم كله منصب نحو أوطانهم، والوسائل التي تمكنهم مِن الهروب، وكسر قيد الحديد الذي يكبلهم. وهم جميعاً رجال أقوياء، يقومون بالأعمال الزراعية الشاقة وقليل منهم مَن يتم إرسالهم إلى مصر. وأغلبهم يعرف أنّ خير وسيلة للتخلص مِن قيد الحديد هي التبول عليه حتى يتآكل، مِمَّا يخفف القيد تدريجياً حتى يتم التخلص منه، ثُمّ الهرب من المعسكرات. لقد أخبرني أحدهم مِن الذين تخلصوا من القيد الحديد وهربوا، لكن وشي به فأعيد مِن جديد للاسترقاق، أخبرني أنَّ عملية التبول على القيد حتى يصدأ أو يلين تحتاج إلى (14) شهراً كاملة، قبل أنْ يكون قابل للكسر بالحجر والتمكن مِن التحرير.

وهناك الكثير مِن الرقيق الذين يتجولون بدون قيد عليهم، والسبب أنَّهم مكثوا مع سيِّد واحد العديد مِن السنوات فصارت طباعهم مألوفة لديه. لكنهم حتى لو لم يكونوا مقيدين فهم في بعض الأحيان يتذكرون أوطانهم ويحنون لأهلهم ويقومون بالهرب. فأثناء إقامتي حدث أنّ هناك رقيق عاش في بيت واحد سبعة سنوات، لكنه هرب فجأة ودون سبب مقنع. عندها فإنَّ رقيق آخر مُقَيَّد بالحديد طلب مِن سيِّده أنْ يفك قيده، مقابل أنْ يحضر له الرقيق الهارب، وأنَّه يعده أنَّه لن يهربَ مثله، وسيظلُّ عبداً وفياً له باقي حياته. وقد غامر السيد ووافق على طلب رقيقه، وفكَّ عنه القيد وزوده بجمل ومئونة للرحلة، لكي يبحث عن الرقيق الهارب. وفعلاً بعد مدة قصيرة مِن الزمن أتى ومعه الرقيق الهارب، وحافظ سَيِّده على عهده ولم يكبله مرة أخرى، بل أتى له بأنثى مِن الرقيق كي يتزوجها. أمَّا مصير الرقيق الهارب المعاد فقد يكون أنْ يُكَبَّلَ بالقيد مدى حياته. فتيات الرقيق يتجَوّلن بحرية وبدون قيود، فلا يُخْشَى مِن أنْ يفكرن في الهرب، وإذا هربن، فمِن السهل إرجاعهن لأنهن جبانات جداً، ويسهل التعرف عليهم وقبضهم في أقرب قرية يدخلنها. لكنني شاهدتُ بنفسي رغم ذلك بعض منهن يهربن. والقصة أنَّه كان في الأُبيض تاجر رقيق يحتفظ بثمانية فتيات،

بغرض بيعهن بالقاهرة الكبرى كمجموعة واحدة. فقام بإغلاق الفتيات في حجرة بلا شبابيك، ولكي يطمئن أكثر عليهن، كان في الليل يأتي بعنقريبه وينوم أمام باب حجرتهن. في أحد الأيَّام وأمام دهشته الكبيرة فتح الحجرة ووجد جميع الفتيات قد هربن، فهرول جارياً يبحث عنهن كالمجنون. وقد استنجد بجيرانه ليساعدوه في إرجاع الفتيات الهاربات، لكن كل مساعيهم باءتْ بالفشل، واختفت الفتيات بدون رجعة، وأقنع التاجر نفسه أنَّ الشيطان هو مَن قام بتهريبهن، لكنه عند التدقيق في حجرتهم، انبعث ضوء مِن ثقب هربتْ عبره الفتيات، ثُمَّ قمن بعد هروبهن بتغطية الثقب ببرش مِن القصب. وقد قمن بترطيب حائط طين حجرتهم بالماء لأيَّام طويلة، حتى أصبح لين، وتمكنّ بسهولة مِن توسيعه ليخرجهن خارج الغرفة. ويُعَامِل أهالي كردفان رقيقهم معاملة طيِّبة وإنسانية. أمّا الأتراك والأوربيون فمِن المؤسف أنَّه خلال السنين القليلة الماضية تورط أوروبيون في جرائم قسوة ضد الرقيق، ولم يمنعهم عذاب الضمير مِن تلطيخ أيديهم بدماء هؤلاء المخلوقات التعسة. فهناك دكتور إيطالي، ربط حبلاً على رقبة رقيقه وخنقه بيديه حتى الموت. وكذلك طبيب آخر خصي رقيقه بمديته الخاصة، لجرم تافه ارتكبه، وهو ما تسبب في وفاة الرقيق. أيضاً فإِنَّ محمد بيه الحاكم الذي أقَاله محمد علي في عام 1838م، كان يعامل الرقيق بطريقة بربرية بدون أي سبب. فقد كانتْ بين حريمه أنثى رقيق تخدمهم، لكنها ارتكبتْ خطأً تافهاً، مِمَّا أثار حفيظته. فما كان مِنه إِلَّا أنْ أمر بإلقائها في بئر عميقة حتى تغرق. وبعد أيَّام صادف أنَّ أحد الخدم كان ماراً بالقرب مِن البئر، فشعر أَنَّ البنت على قيد الحياة بسبب أنَّ الماء منخفض ولم يصل حتى لساعدها، فأبلغَ الحاكم بذلك وأخذ إذنه لكي ينقذها. لكن الطاغية الذي لم تكن بنفسه رحمة تجاه الضعفاء المعذبين، أمر أنْ تطمرَ البئر بالرمال، ودفن ضحيته الأنثى حَيَّة.

إِنَّ العرب أو الناس الأحرار والذين ينتمي إليهم البقَّارة وبقية القبائل الرعوية، مختلفون تماماً عن السكان الأصليين؛ إذْ أَنَّهم يربون الجمال

وبعض المواشي، ولهم ارتباط ضعيف بعمل الزراعة، فكُلّ وقتهم يسعون في الرعي وراء حيواناتهم. وأكبر فرع لقبائل البقَّارة مِن: دغيم هبانية شياخة عبد المحمود، والحوازمة شياخة موسي، والمسيرية شياخة البيض، والمسيرية وهبانية حمر، وغيرهم. ولا يفوتني بجانب هؤلاء العرب ذكر الكبابيش شياخة صالح. ويُشَابه العرب الزنوج، وهم سود مثلهم، مع استثناء أنَّه توجد قبيلة مِن الهبانية لونهم نحاسيّ، لكنهم يعيشون في نفس منطقة العرب، وينتهجون نفس طرقهم في الحياة. وإنَّني أشك في الرأي التقليدي القائل إنَّ كُلّ هؤلاء العرب أتوا لإفريقيا مِن الجزيرة العربية، في فترة الهجرات العظيمة التي تمَّتْ في القرن السابع عشر؛ فأنا لم أسمع بقبيلة سوداء في جزيرة العرب، كما أنَّ مناخ أفريقيا لا يمكن أنْ يجعلهم سوداً كما هو حالهم الآن، ولو مرَّ ألف عام؛ فإذا كان يُعَوَّل في تفسير هذه الظاهرة على تأثير المناخ على لون البشرة، فلماذا لم يتغير لون البقَّارة الحمر كما يسمونهم إلى الأسود؟ وإذا قلنا أنَّ ذوي اللون النحاسي لهم قابلية أكبر للتحول إلى اللون الأسود مِن ذوي البشرة البيضاء، فإنَّ ملامحهم أيضا لا تشبه الملامح العربية أو الزنجية. فإنَّ لهم خدود بارزة وشفاه رقيقة مقلوبة، أمَّا شعرهم بعض الشيء أقل خشونة، ويمكن أنْ يُضَفَّر. وهم يعتبرون أنفسهم عرق نقي، لكنهم يتكلمون العربية بشكل سيء. مقابل أنَّنَا نجد أنَّ القبائل العربية التي عاشت بعيداً عن موطنها الأصلي، مثل قبائل البدو، حافظتْ على نقاء عرقها ولغتها العربية. والأقرب للاعتقاد أنَّ هؤلاء العرب هم في الأصل مِن سكان أفريقيا اللذين عاشوا على حدود ساحل البحر الأحمر والصحراء الكبرى منذ آلاف السنين. أيضاً فإنَّ البقَّارة الحمر كما يسمونهم، فإنَّهم يقيمون في المناطق المدارية، وملامحهم والطريقة التي يُضَفِّرُون بها شعرهم، تشابه طريقة سكان مصر العليا والنوبة. وهم يختلفون في سلوكهم بشكل كبير عن الزنوج، فهم أغبياء، مغرورون، ومرتابون جداً في الآخرين، ويحتقرون كُلّ مَن لا ينتمي لهم بصله، ويميلون إلى خداع كُلّ مَن يتعامل معهم. والرحالة عندما يكون بينهم لا يأمن شرهم. وإذا عقدتَ

معهم اتفاقاً، عليك أنْ تُحْضرَ واحداً مِن القبائل الأخرى أثناء الاتفاق، لكي تستطيع لاحقاً إجبارهم عَلى الإيفاء باتفاقهم معه. لكن يمكن الثناء كثيراً على عفة وبساطة نسائهم وبناتهم.

إنَّ الدناقلة هم العرق الأكثر انتشاراً في البلاد في عُدَّة طوائف، تجدهم في أَجزاء كبيرة مِن أفريقيا. وهم رجال ذوو بنيةٍ قوية، ترى فيهم ميلاً قليلاً للبدانة، لكن مع عضلات أكبر واقوي. وأوجههم وهيئتهم وسيمة، عيونهم غائرة برَّاقة، وذقونهم خفيفة مع شوارب كثيفة، ولحية تحت الشفة السفلي. ولا يظهر فيهم كبر السن، إلا الذين يصلون لأعمار كبيرة وتظهر على لحاهم الشيب الأبيض. وألوان بشرتهم مختلفة، تتراوح مِن اللون البرونزي حتى الأسود الفاحم، وسبب اختلاط ألوانهم هذا هو اختلاطهم بالتزاوج مع أمم أخرى. ولغتهم تشابه اللغة النوبية في مشتقاتها. والدناقلة هم أكثر سكان كردفان غني، لأنهم يحتكرون تقريباً كُلَّ تجارة التصدير والاستيراد عبر القوافل. وهم أيضاً يقومون بالتجارة الداخلية الأقل أهمية مع الزنوج في التلال، والتي تتم فيها المقايضة بالرقيق، العاج وغيرها. وقد هاجرَ الدناقلة مِن موطنهم دنقلا ليستقروا في كردفان، ويمكنُ أنْ تقابلهم في بلاد أخرى للزنوج، والتي أصبحوا فيها مقيمين بشكلٍ رئيسي لأجل القيام بأعمال التجارة. ويضطر الدناقلة للهروب أحياناً لبعض المناطق البعيدة، عندما يكونون مطالبين بدين أو مرتبطين ببعض الجرائم. وهم مرحين للغاية، لكنهم يتجنَّبُون كل أنواع العمل. وهم أكبر مَن يكذب وجهاً لوجه على الأرض، ولا يصادف أنْ تأتي الحقيقة لأفواههم، ويمكن أنْ يُفَضِّلُوا الموتَ على قول الصدق، لا سيما عندما تمسُّ مصالحهم الخاصة. وإذا دخلتَ معهم في تعامل تجاري لا تأتمنهم على نقودك، لأنَّه سيضيعُ بدون رجعة، وهم سوف يتخلون عن زوجاتهم وأطفالهم ولا يتخلون عن مالهم. وهم لا يعرفون العرفان والجميل، بل دائماً يتهربون منه. وإذا تقبلت منهم أي شيء، فعليك أنْ تكون متأكداً أنَّهم سيطالبون بشيء أضعاف قيمة ما أعطوه لك

في المقابل. ويجب تجنب مرافقة الخدم مِن هذه القبيلة، لأنَّ نسائهن لعوبات جداً. وأنصح الأوروبيّ إِذا أراد أنْ يقوم برحلة إلى كردفان أَنْ يستأجر خادمته المرافقة مِن القاهرة.

(6)
البقَّارة

البقَّارة مجموعة مِن القبائل الرعوية المقسمة لأقسام صغيرة وكبيرة، وليس لها موطن إقامة محدد، وتُغَيِّرُ موقعها بشكل مستمر عدة مرات في السنة. فهم مرة يقيمون جنوب مدينة الأبيض، وأخرى جنوب شرقها ومِن بعد جنوب غربها. وكُلُّ قبيلةٍ صغيرة أم كبيرة، تتخذ لنفسها شيخاً يكون بمثابة الملك أو الحاكم المطلق المدير لشؤونها، وأي مشايخ دونه يأتمرون بأمره، ويتبعون له بامتثال، ويدفع كُلُّ المشايخ ضرائبهم للحكومة، والتي تقدر بعدد 12 ألف رأس مِن الثيران، وبعض الذهب، وكمية قليلة مِن الفضة وكذلك الرقيق. تُجْمَع منهم الضرائب غالباً بالقوة الجبرية، ورغم أنَّ قبائل البقَّارة غير مستقرة في مراكز جمع الضرائب مثل بارا، خرسي، التيارا، أبو حراز؛ إلَّا أنَّه عندما يحِنُ ميعاد جمع ضرائبهم، فإنَّهم يذهبون لكل قبيلةٍ تلو الأخرى. والبقَّارة لا يشتغلون بالزراعة، باستثناء أنَّه إذا أقاموا حول بحيرة الرهد فإنَّهم يزرعون الأرز البريّ. ويربي البقَّارة عادةً قطعان البقر ذات الثيران الطويلة، بجانب الأغنام، ولهم عددٌ قليلٌ مِن الخيول والجمال. والبقَّارة شيوخهم أثرياء يمارسون التجارة أثناء ترحالهم، وهم يتاجرون في الأبقار والسمن والرقيق الذي يخطفونه مِن الأقاليم المجاورة. وهم محبون للهرب والنهب، ويكونون في حالة دائمة مِن الحرب والنزاع بينهم ومع جيرانهم القَبَلِيِّين. كمثال فإذا تقابل فرعين مِن البقَّارة، أو نزلا في ديار مجاورة، فهما حتماً سوف يسفكون دماء بعضهم البعض، وغالباً ما يستمرُّ القتال بينهم حتى تهلك الأضعف أو تقوم بالهرب. عند بداية أشهر الصيف يرحل البقَّارة للمناطق البعيدة خارج سلطة حاكم كردفان، وهي مناطق لا

يجرؤ على المغامرة بدخولها لجباية الضرائب؛ لأنَّها تُشَكِّل خطراً على جنوده، فالحكومة لا يمكنها تحمل تكلفة قوات كبيرة يمكن أنْ تواجه صعوبات جمَّة، لجمع عائدات ضريبة لا تكفي لتكاليف الحملة، مِمَّا يجعل خيارها الأجدى إيقاف عملية جمع الضرائب منهم. فلذلك كان البقَّارة يتمتعون بالإعفاء الضريبيّ في أشهر الجفاف. ولكن حقيقة الأمر فإنَّ هذا الإعفاء الضريبيّ لا يسبب للحكومة أي خسارة، لأنَّها تعلم علم اليَقين أنَّ البقَّارة في دورة ترحالهم سوف يتركون المناطق الآمنة مِن الضرائب خلف كردفان بعد مدة قصيرة، وأنَّهم سوف يعودون طوعياً، ويقعون في قبضتهم الطاغية مِن جديد. وأعتقدُ أنَّه ليس هناك قوم عنيفين وعدوانيين مثل البقَّارة؛ فكُلُّ القبائل الزنجية بلا استثناء تعمل لهم حسابها، لأنَّهم يضايقونهم في أي منطقة يحلون بها، بسبب خطفهم لأطفالهم ليبيعوهم كرقيق. مِمَّا يجعل القبائل الزنجية تسعى بكُلِّ الطرق للانتقام منهم. أمَّا الحكومة فقد استخدمتْ ما في وسعها لزيادة عذاب هؤلاء القوم مستعينة بكل الطرق الخبيثة لذلك، وأخيراً أشعلتْ فتنةَ التقاتُل بين القبائل. وبسبب هذه الأنواع العديدة مِن المضايقات التي يواجهها البقَّارة، فهم يضطرون لتغيير مواقعهم باستمرار.

إنَّ ابتلاءَ البقَّارة الأكبر يتمثَّلُ في حشرةِ اليوهارا Yohara التي توجدُ بكمياتٍ هائلة في إقليم وسط أفريقيا في الفصول الممطرة. فهي تلسع الإنسان ولكن لا تسبب له كبيرَ ضررٍ مثل الذي تحدثه للأبقار. وفي الوقت الحاضر، وما تمَّ تسجيله في الماضي، فإنَّ هذه الآفة قضتْ على أعداد كبيرة مِن قطعان الماشية في وقت وجيز. ونجد أنَّ الجِمَالَ التي لا يُمَكِّنُها ذيلها القصير مِن إبعاد هذه الذبابة، أكثر عرضة للهلاك. ففي إقليم الشلك وشابون ورنقة وكلا، لا يمكن أنْ تصادفَ فيها وجوداً للجِمَال. وهذه الأقاليم لا يمكنُ زيارتها، إلا في الفصول الجافة. أمَّا الجلابة عند عودتهم راجعين إلى بلادهم، يُمْنَعُون قبل فوات الأوان مِن دخول هذه المناطق، لأنَّ جِمَالَهُم سوف تهلك مِن لسعة هذه الذبابة. وهذه الذبابة هي السبب الرئيسي في عدم بقاء البقَّارة في الأقاليم

الآمنة البعيدة عن الأتراك، لأنَّهم لا يستطيعون أنْ يغامروا بأرواح قطعانهم، مِمَّا يضطرهم للرجوع وتسليم أنفسهم للأتراك.

عادات البقَّارة بسيطة جداً، فهم يشتغلون في رعي الأبقار، وممارسة الحرب. فقد حدثَ في إحدى المرات أنْ مررتُ على قبيلة مِن البقَّارة كانتْ تقيم في بحيرة الرهد، وسنحتْ لي فرصة أنْ أبقى بينهم لفترةٍ طويلة، مِمَّا جعلني أتمكن مِن التعرف عليهم واستيعاب عاداتهم وتقاليدهم. ولم يخفوا عني سرَّاً مِن أسرارهم، خاصةً عندما عرفوا أنَّني لست بتركي، ولقد طوَّقُوني بكرم فوق المعتاد. ولكن رغماً عن ذلك، فإنَّني لا أنصح الأوروبيّ أنْ يسلم مقاليد أمره لهم، أو يُغَامرُ بالاقتراب مِن مكان إقامتهم، إذا لم تكن له علاقة صداقة سابقة بشيوخهم، وإلّا فإنّ حياته سوف تكون مُعَرَّضة لكُلِّ أنواع المخاطر. فهم بدرجة مِن الَجهل تجعلهم لا يستطيعون التفريق بين الأوروبيّ أو الإفرنجي كما يطلقون علينا، وبين التركي. بل يحسبون أنَّ كُلَّ ذو بشرة بيضاء يكون مِن الأتراك أعدائهم الدائمين. ولكن إذا تعرَّفوا على الأوروبي، فإنَّه سيتلقى منهم الكرم الذي لا يوصف، ويمكنه عندها أنْ يضعَ فيهم ثقته الكاملة.

يتكون غذاء البقَّارة مِن اللحم واللبن بالأساس. واللبن متوفر لديهم لدرجه أنَّهم يقدمونه بكُلِّ طيب خاطر لخيولهم لكي تشربه. وكُلُّ الخيول التي رأيتُها خلال إقامتي معهم هي مِن السلالات النبيلة. والبقَّارة يأكلون قليلاً مِن الخبز، وهو مقصور على استعمال شيوخهم. أمَّا مساكن البقَّارة تتكون مِن خيام مُغَطَّاة بجلود الثيران، ينصبونها في أماكن متفرقة ويحيطونها بسياج شوكي به فتحة تسمح بخروج الأبقار. ويقيمون في الأماكن العالية منزل يخصص للحراسة، به رجال مسلحون، يحرسون على نظام الوردية اليومية، وغالباً ما تتكون الوردية مِن ستة شبان مزودين بالدرقات، ومعهم طبلة تضرب عند ظهور أي خطرٍ قادم على معسكرهم. وهم يجعلون النار في موقع الحراسة مشتعلة طوال الليل، ويقضون الوقت أثناء الحراسة في

الرقص لكيلا يتسرب النُّعَاسُ لأعينهم، ويكونون يقظين في حال ظهور أي هجوم مفاجئ ضدهم. أيضاً فإِنَّ نساءهم يقضون ليلة الحراسة مع أزواجهن وإخوانهن ويشاركن في الرقص معهم. إنَّ رقص البقَّارة يختلفُ تماماً عن رقص أهالي كردفان، فهو رقص ممتعٌ ومنظمٌ. وتوقد النار في أركان المعسكر الأربعة، ويتم تغذيتها بالحطب مِن فترة لأخرى، حيثُ يوجد بجانبها ضاربو الطبل والمغنون. يكون الرقص باصطفاف الرجال صفين، في المنتصف النساء قبالة الرجال الذين يحملون الحراب، ومِن حين لآخر يضربون الأرض أثناء الرقص. يبدأ الرقص بخطوات بطيئة تتسارع فجأة مع مصاحبة الرجال الصاخبين، الذين يلوحون برماحهم وهم يصرخون صراخاً مخيفاً، ويمثلون أنَّهم يطلقون رماحهم باتجاه النساء اللاتي يلعبن دور العدو الغازي في الرقص. وعند الهجوم الراقص فإِنَّ النساء يتظاهرن بالضعف، ويظهرن خضوعهن التام لهجوم الرجال عليهن. وليس هناك إمكانية لوصف رقصهم، إِلَّا بمشاهدة هذه المجموعة مِن الراقصين ليلاً؛ ليكوِّن القارئ صورة مرضية عنها.

ونساء البقَّارة وفتياتهم ثرثارات وودودات مع كُلِّ مَن يخلق معهن علاقة. فهُنَّ لا يعرفن الخجل، وجميعهن صافحنني بالأيدي وسألوني عن صحتي، وفي كُلِّ حين وآخر كُنَّ يسألنني عن هل أريدُ أنْ أشربَ أو آكل؟ لقد سنحتْ لِيَ فرصة أنْ أكونَ حاضراً في غرفة زينة زوجة الشيخ. كانتْ المرأة جالسةً على العنقريب، محاطةً بمجموعة مِن الفتيات الزنجيات، لكل مِنهُنَّ مهمة خاصة تؤديها. واحدة تهش الذباب بهبَّابة مِن ريش النعام الجميل، وأخرى تعتني بالشَّعْرِ وتقوم بفرده، وهي مهمة مضنية يصعب إنجازها وتستغرقُ عُدَّة ساعاتَ لإكمالها باستعمال مخرز خشبي مستدق المقدمة، وتوجد فتاة أخرى تغسل أقدامها. وواحدة تسحق مادة الكبريت الأصفر وتحوله لدقيق ناعم، وأخرى تحملُ قَرَعة المريسة الباردة لسيدتها لتكون جاهزة عندما تطلبها، وفتاة تحمل كأس به سمن سائل تصبه فوق رأس سيدتها حالما تنتهي

عملية ضفر الشَّعْر. والسمن الذي يسيل مِن فوق رأس السيدة، يُمْسَح به بقية جسدها، ومِن ثَمَّ يوضع مسحوق الكبريت الأصفر على رأسها، ويُخَلَّلُ باقي الشعر باليد لخلط السمن وإلصاق حبيبات الكبريت الأصفر بالرأس، بعدها يوضع الزمام على أنف السيِّدة، ثُمَّ تُوضَع العاجات التي عرضها ما يقارب البوصتين على أيديها. وعلى جبهتها تربط ثلاثة قطع صغيرة مِن حجر الكهرمان بحجم العملة الذهبية، وفي رقبتها تُعَلَّقُ مجموعةً مِن عقد السكسك البوهيمي. ومِن ثَمَّ يُؤتَى بقطعةٍ مِن القطن تلف حول الخاصرة، وتلفح على الكتف. بعد إكمال هذه العملية، تكون قد اكتملتْ زينة هذه الأميرة السوداء، فما عليها إلَّا أنْ تنظر لنفسها على المرآة، أثناء ما تُقَدَّم لها قرعةٌ مليئة بالماء لشربها. ولكن ليس علينا أنْ نتخيَّلَ أنَّ هؤلاء النساء يعترضن، أو يتضايقن مِن زينة الترف هذه التي تُفْرَض عليهن؛ رغم أنَّهُنَّ مثل نساء المناطق الحارة، مِن الممكن أنْ يخرجن عاريات تماماً إلَّا مِن قطعة قماش قطن تسترهن، أو رحط يُلَفُّ على خاصرتهن. ونساؤهم عموماً جميلات، والرجال يعاملون زوجاتهم بلطف، وعمل الزوجة الرئيسيّ هو طهي الطعام والقيام بالأعمال المنزلية الأخرى. وعندما يذهب الرجال للحرب، فإنَّ النساء يبقين بلا عمل، ويتفرجن على القتال ويحثون رجالهم عليه.

ونجد أنَّ الرجال يهتمون بقطعان الأبقار، ويقومون برحلات اصطياد الرقيق، وهم يملكون قليلاً مِن الجياد النبيلة، التي تُستعمَل في المهمات الصعبة. فعندما تحط قبيلة مِن البقَّارة رحالها على طرف جبل يسكنه النوبة، يُرْسَل الفرسان لاختطاف الأطفال أولاداً كانوا أو بنات. لكنهم لا يقومون بعملية خطف مكثفة، مثلما يفعل جنود محمد علي باشا. ويتمُّ الخطف كالآتي: يتجمع البقَّارة في مكانٍ يكون ملتقي الأطفال حيث ترعي الأبقار أو آبار المياه. فيكْمُن البقَّارة مستلقين على الأرض، فإذا أتى الأطفالُ قرب هذا الكمين يُقْبَضُ عليهم وبسرعة يحملوهم على الجياد، وينطلقُ الفارس بغنيمته بأقصى سرعة، ومِن الممكن أنْ يكون مكان الخطف بالقرب مِن القرى.

وأحياناً يهاجمون قبائل الزنوج ويأخذون أطفالهم عنوةً. وأثناء الخطف فهم لا يضعون أي اعتبار لمعاملة فريستهم المخطوفة، بل يكون كُلّ همهم حملها لمكانٍ بعيد يصعب على مطارديهم أنْ يلحقوهم به، لأنّهم في الغالب لا يملكون خيولاً مثل البقَّارة. ويعيش البقَّارة سعيدين في وحدة قبلية متماسكة. وقد أكد لي أحد شيوخهم ذلك بقوله: «عندنا خيول قوية، ونساء جميلات، وطعام دسم، ولا نعاني مِن شيء ونعتبر أنفسنا مِن الأثرياء، لكن أعداءنا الذين يحيطون بنا مِن كُلِّ النواحي، ينغصون علينا حياتنا. خاصة الذبابة التي تقضي على قطعاننا، والتي تجبرنا على ترك البلاد الآمنة التي نحتمي بها. ويهاجمنا السود الذين يجاورونا في مجموعات كبيرة؛ لكي يدمرونا انتقاماً لخطفنا أطفالهم. لذا فنحن مرغمين على اختيار أخف الأضرار، وتسليم أنفسنا للأتراك الذين يعاملوننا بفظاظة وقسوة، ويأخذون منا بالقوة كل ما لا نحب أنْ نعطيه لهم، ولكن الله كريم». فحقيقة أنَّ حكومة كردفان تعامل هؤلاء القوم بأنواع شديدة مِن القسوة، حالما يضطرون للرجوع مِن الأقاليم البعيدة للإقامة مرة أخرى في نواحي كردفان، عندها فإنَّ الحكومة ترسل قواتها لجمع الضرائب منهم، ولسوء حظهم فإنَّ هذه الإجراءات هي الإجراءات الاعتيادية لدولة الأتراك، وقد شاهدتُ بنفسي هذه الأساليب القاسية ولم أرَ منهم إلّا الابتزاز والبربرية الوحشية التي يتخذونها ضد هؤلاء الناس. فقد رأيتُ حملةً صدرت لها الأوامر بالتحرك مِن الأبيض لجمع الضرائب السنوية على البقَّارة، والتي قدروها بألف ثور تؤخذ من أقرب تَجَمُّع لهم. وقد كانتْ الحملة مُكَوَّنة مِن ضابط برتبة صاغ وثلاثة ضباط برتبة ملازم أوَّل، ومائة مِن جنود الصف المشاة، وقليلٌ مِن البدو يركبون على الجياد، وأربعين رجلاً مِن الجنود الغير نظاميين. فلما علمتْ القبيلة بمقدم أعدائها أعدَّتْ لهم في مدة وجيزة ما في وسعها مِن إكراميات، تمثّلَتْ في تزويدهم يومياً بكمية مِن الثيران والخراف، وكمية كافية مِن المريسة، وتوفير كُلّ أنواع الترفيه الأخرى، ولم يُقَصِّرُوا في شيءٍ لجعل إقامة معذبيهم هنيئةً طيبة، وقد طاب المقام للضباط والجند وارتاحوا في هناءٍ طيِّب لمدة

أربعة أيَّام، كان فيها كل شيء يُقدَّم لهم بسلام. لكن في اليوم الخامس، انقلب ميزان السعادة والسلام. حينها استدعى الصاغ شيخ القبيلة الذي أتى له، لكن الصاغ قابله بكل وقاحة وسبَّه بألفاظ نابية وبنبرة كلام عنيفة قال له: «أنت تذكر في العام الماضي أنَّك أعطيتني أسوأ وأضعف الثيران التي نفق أغلبها في الطريق، فما كان مني إِلَّا أنْ عوَّضتُ خسارة محمد علي باشا مِن مالي الخاص، ولذا فإنَّنِي لن أعانيَ هذا العامَ نفس خسارة العام الماضي، وقد أخبرتُك بذلك؛ لأنني سوف آخذُ تعويضَ ما لحق بي مِن مالك الخاص.» عندها أمر الشيخ بالرقود على الأرض لكي يجلده بسوط جلد فرس النهر، ولم تنجح كُلّ محاولات الرجاء لتعديل الصاغ عما عزم على تنفيذه. بل أتى جاويشين وأحاطا بالشيخ وألقياه أرضاً، تمهيداً لضربه بالسوط وترهيبه ليعطيهم أفضل ما يمكنه. عندها زادتْ التوسلات لاسترضاء الصاغ وطلب الرحمة للشيخ، وأكد له الشيخ أنَّه لن يعطيه في هذه المرة الأفضل مِن قطعانه فحسب، بل سوف يدبر له هدية شخصية تُعَوِّضه عن الخسائر التي لحقت به العام الماضي. عندها غير الصاغ مِن أسلوبه، فقد كان كلام الشيخ هو ما يتمنَّى الحصول عليه. بعدها سمح للشيخ المتضرع بالنهوض مِن الأرض والذهاب لمنزله لإحضار هدية الصاغ الشخصية التي وعده بها. فقام الشيخ مسرعاً وأتى بأربعة قطع كبيرة مِن الحلي توضع في الأنف، واثنين مِن الرقيق لكل ضابط من الضباط. بعد ذلك سارت الأمور على ما يُرام، وأُحضرتْ ثيرانٌ منتقاة مِن أفضل ما في القطيع. وبعد أنْ جمعتْ الحملةُ ضرائبها، أُصدِرَتْ الأوامر بالتحرك والرجوع إلى الأُبيض. وهذا التصرف ليس معزولاً في مرة واحدة، بل أنَّنا نجد أنَّه في كل مواسم جمع الضرائب فإنَّ الضابط المسؤول بعد جمع استحقاق الحكومة، يطلق العنان لنفسه لاَستعمال كُلّ أساليب القسوة والاضطهاد لابتزاز الهدايا لنفسه ورجاله. لقد أخبرني مَرَّة أحد شيوخ البقَّارة بحادثة حصلت قبل سنتين، وقد عزَّز روايته جنود سألتهم عنها. أخبرني أنَّه كان هناك صاغ جَمَعَ الضرائب مِن قبيلة صغيرة مِن البقَّارة، بعدها لكي يأخذ لنفسه هديةً معتبرة تقسم بينه

وجنوده فإنَّه قام بخطة مُحكمة أجبرتهم على ذلك. والخطة كانتْ أنَّ هناك جاويش ادعى أنَّه مخمور، وقام بانتهاك حرمة خيمة نساء شيخ القبيلة، وسلك معهن سلوك ينم عن العهر والتهتك. عندها طلبتْ منه النسوة مغادرة خيمتهن، لكنه لم يكترثْ لطلبهن، بل تمادى في سلوكه واحتضن إحدى نساء الشيخ، وحاولتْ المرأة عبثاً التخلص منه، وعندما لم تستطع قامت بالصراخ مستنجدة. وعند سماع صراخها هب لنجدتها مجموعة مِن البقَّارة كانوا متواجدين بالقرب مِن المكان، ودخلوا الخيمة وشاهدوا الفعل القبيح الذي يفعله الجاويش مع المرأة، مِمَّا جعل واحد منهم يقوم بضربة على وجهه. وقد كان هذا ما أراده وتوقعه الجاويش، فبدأ بالصراخ وذهب لقائده الصاغ وقال له إنَّ واحداً مِن البقَّارة تجرَّأ على ضرب أحد جنود محمد علي باشا. عندها استدعى الصاغ أحد ضباطه وأمره أنْ يصادر ممتلكات الشيخ، ويأخذ نسائه كرهائن في حوزته. وعندما أتى الشيخ أمام الصاغ، أمره بأنْ يحضر 200 ثور زيادة عن مطلوب الضريبة كتعويض عن الجريمة التي ألحقها أفراد قبيلته بعسكري يخدم فِي الحكومة. وقال له إنَّه إذا لم يرضخ فإنَّه سوف يقسم نسائه بين جنوده، ويعطي الجاويش المتضرر بعضاً منهن. عندها أصاب الشيخ الرعب مِن هذه الإجراءات، ووعد الصاغ أنْ يوفي بطلبه في أقصى سرعة. وبعد ساعات استلم المبتز الثيران الزائدة التي طلبها، والتي يكون حتماً قد قسَّمَها بين المخططين لهذه المكيدة.

ولم يرتح البقَّارة مِن عذاب أخذ قطعانهم بالقوة، إلَّا عندما أمر والي مصر بوقف تصدير قطعان الماشية إلى مصر. لكن هذا لا يعني أنَّهم لم يعانوا العذاب مِن الأتراك بطرقٍ وأساليب أخرى. لقد كانتْ المديريات الجنوبية مِن دنقلا، سنار، كردفان، عليها أنْ تُقَدِّم عوناً إجبارياً لمصر مقداره 12 ألف ثور لعدة سنوات خلت. تساهم فيها كردفان بعدد 8-9 ألف ثور. لكنه بسبب سوء إدارة ترحيل هذه القطعان لمصر، فإنّ أكثر مِن نصفها ينفق في الطريق. ولكي تقلل الحكومة مِن خسارتها، أمرت بإقامة رواكيب مِن

القش والقصب توزع كل واحدة على مسيرة يوم، طوال المسافة بين الدبة والقاهرة. لكن هذه المحطات كانتْ غير فعَّالة، بسبب الإدارة الفاسدة والمفتشين الذين يبيعون أغلب علف القطعان ويقومون بتجويعها. بجانب أنَّهم لا يريحون القطعان المُتْعَبة طوال الطريق، ويجبرونها على السير حتى تبدأ بالتساقط نتيجة للتعب والإِجهاد. وقد وصلت هذه الخسائر إلى فقدان نصف هذه القطعان. رغم أنَّه يمَكن تفادي هذا العدد الكبير، إِذا ساعدتْ مناطق شمال مصر، ذات الاستهلاك العالي لهذه اللحوم، فِي توفير مزيد مِن العناية وحسن المعاملة لهذه الحيوانات.

(7)

الكبابيش

الكبابيشُ قبيلةٌ رعوية صغيرة، تقيم في المناطق التي تقعُ شرق بحر أبيض (النيل الأبيض)، وهي متحالفة مع القبائل الموجودة في مقاطعة دنقلا. ويختلف الكبابيش في عاداتهم عن البقَّارة. وهم يقيمون طَوال العام في كردفان، ونادراً ما يُغَيِّرُوَن أماكن رعيهم. وهم قليلو الممارسة للزراعة، ويربون القليل مِن قطعان الماشية. ومهنتهم الأساس هي القيام بترحيل ما تريده الحكومة إلى دنقلا وسنار، وإمداد قوافل الجلَّابة بما تحتاجه مِن مؤن وجِمَال، لكي تَستعملها أثناء رحلاتها داخل جميع أنحاء أفريقيا. وهم يملكون القليل مِن الإِبل، لكنهم يشترون منها كميات كبيرة في البلاد. والكبابيش على درايةٍ مدهشة بمعرفة طرق الصحراء. وهم قادرون على تحديد مسارهم بالنظر للسماء ليلاً أو نهاراً، ويمكنهم أن يعينوا موقعهم أو يحددوا المسافة التي تبعد عن مقصدهم بطرق دقيقة. وهم يمتلكون حدة في حاستي السمع والبصر، فمِن مسافات بعيدة يُمَكِّنُهم أنْ يحددوا ويصفوَا ما يرونه بأعينهم، وإذا أراد الأوروبيّ أَنْ ينظرَ لنفس المكان، فإنَّه لا يستطيع رؤيته إلَّا باستعمال التلسكوب. وهم بسمعهم يعرفون حركة الجِمَال مِن مسافات بعيدة، وقليلاً ما يخطئون في تقدير أعدادها. والكبابيش بهم مسحة مِن العرق الأسود جاءتْ عن طريق الزواج مِن نسائهم. وهم لهم أهمية كبيرة بالنسبة للحكومة التركية وقوافل الجلَّابة، لأنَّهم يقومون بمهمة ترحيل المنتجات للبلاد المختلفة. إنَّ شيوخ الكبابيش سادة يعاملون رعاياهم مثل الأقنان، ويكسبون بالمقابل أرباحاً طائلةً مِن تزويد المسافرين بالجِمَال، رغم أنَّهم لا يصرفون على تغذيتها الكثير، لأنَّ الجمل يتغذى بما يجده على جنبات

الطريق. أمَّا راكبو الجِمَال منهم فإِنَّ الشيوخ يزودونهم بالقليل مِن دقيق الدخن الذي يغلونه مع الماء في النار. وبحجم كيس صغير مِن الحبوب، يقومون بإنجاز أصعب الرحلات؛ لأنَّهم يتحملون الجوع والعطش لفترةٍ طويلة وبطريقة مدهشة. وهم يعتبرون الجراد وجبةً شهيةً. ويُعَدُّ الجراد للأكل بالطريقة التالية: يجففُ الرأس والأرجل الخلفية، ثُمَّ يوضع في الفحم المشتعل حتى يخرج منه زيت. وعندما كنتُ في مرافقتهم، فإنَّني في البداية لم أوافق على تذوق جرادهم، لكن الجوع لُمدَّة يومين متواصلين جعَلني أعْدُلُ عن رأيّ، لكنني لم أستطع ابتلاع حبيبات البليلة الناشفة التي يأكلونها، لأنَّها لا تمرُّ بسهولة عبر حنجرتي؛ لذا اخترتُ الأخف بينهما، وواصلتُ في أكل الجراد. في البداية شعرتُ عند تناولها بالكثير مِن القرف ولم أتلذذ بأَكلها، لكنني واسيتُ نفسي بذكر يوحنا المعمدان ومقولة الله كريم.

عندما يجد الكبابيش جملاً مريضاً تخلَّف عن ركب قافلة، يقومون بنحره بقطع حلقومه وأعداد وجبة بائسة منه. بعدها يحملون باقي اللحم على جِمالهم ليأكلوه كطعام حتى لو غزته الديدان، وهم لا يستعملون الدوكة عند أعدادهم للخبز، لكنهم يتبعون طريقة تُشَابه طريقة القبائل الزنجية، بأنْ يضعوا مجموعة مِن أحجار الحصى في شكل دائري، لأنَّها تسخن بسرعة عند إشعال النار بقربها. بعدها يشعلونَ ناراً كبيرة، وعندما يتحوَّل الحطب إِلى فحم، يبعدون الفحم للأطراف، ويصبُّوا عجينة الدخن بسمك يقارب 3 أصابع، ثُمَّ يوضعون فوقها الفحم الملتهب مِن جديد، عندها فإِنَّ الخبز يستوي بسرعة مِن جانبيه الأعلى والأسفل، ويبقى وسطه نيئ كما هو. إنَّ رجال الكبابيش الذين يقومون بقيادة القوافل لا تدفع لهم أجور، ولكن تقدُّم لهم ملابس قطنية وبعد الجنيهات في عيد الأضحى الكبير. وعلى الرحالة أنْ يُحسن التعامل مع أطفال الصحراء هؤلاء، وإلَّا فإنَّه سيُعَرِّض حياته للخطر. فهم يؤذون كُلَّ مَن يعاملهم بقسوةٍ بطرقهم الخاصة، مثل ثقب قرب الماء بالمدية، ويجعلونه بالتالي يعاني مِن العطش. ولأنَّهم سلاطين الصحراء، فهم

لهم مقدرة على تحمل العطش لمدة يوم أو أكثر، لذا فعلى الرحالة أنْ لا يخطئ فيعاملهم بالسوءِ. وهم متصلبون، لكنهم إذا ما عاملتهم بالحسنى، فإنَّهم سيؤدون أي عمل تطلبهم منهم وبمقابل أَجر زهيد. وشيخهم يحاسبهم عن أي نقص، أو تقصير في البضائع عند وصولهم، لذلك فهم يعتنون بها على أفضل ما يكون. فأي شيء يُسْرَق أو يتلف نتيجة لإهمالهم، يفقدهم نصف مستحقاتهم مِن الرحلة. في أثناء رحلتي إلى كردفان قابلتُ 17 جَمَلاً محملة بالصمغ العربي والجلود، بالقرب مِن وادي سمريه، وبدون سبب فإِنَّ الكبابيش تركوا الصمغ والجلود بلا حراسة في الطريق، ورحلوا بجمالهم بعيداً عنه. لكن البضاعة لم تسرقْ أو يسطو عليها، بل سلمت لاحقاً كاملةً في مقصدها بالأُبيض. وقد حدث ذات مرة أنْ طالبهم الديوان الحكومي في الأُبيض بمبلغ تعويض بلغ (30) ألف قرشاً كتعويض لتلف حدث للبضائع. وأجبر الشيخ أنْ يدفع التعويض المقرر، رغم أنَّ أصل البضائع لم تكلف الحكومة أكثر مِن ألف قرش، فهي لا تدفع أكثر مِن (3) قروش مقابل جلد الثور، و(15) قرشاً مقابل قنطار الصمغ. وهذا الابتزاز هو الطريقة التي ابتكرتها الحكومة للتجني على هذه القبيلة، ومصادرة أموالها. مع العلم أنَّ الأجور الحكومية التي تُعْطَى لهم مبالغ زهيدة تخصم منهم جزء منها وما يصلهم لا يكاد يسد رمقهم. وكان مِن المفترض أنْ يجني الكبابيش أرباحاً طائلة مِن استثمار آلاف الجِمَال التي تُستخدَم في نقل بضائع الحكومة والجلابة، لكن الحكومة واصلت في منحهم مقابل لا يتناسبُ مع جهدهم. بجانب أنَّها استخدمتْ كُلّ الحيل والذرائع، لتحميل شيخ الكبابيش أي تلف طفيف، وتجبره على دفع مبالغ كبيرة كتعويض عنه. كمثال فإنَّه عند جني الصمغ مِن الأشجار، فإِنّ حمولة الجمل الواحد أربعة قناطير صمغ. وبعد أنْ يسير الجَمَلُ (20) يوماً مِن كردفان إلى دنقلا، فإِنَّه بفعل عوامل الطقس مِن رياح وحرارة، فإِنَّ الصمغ يجفُّ ويقلُّ وزنه، بجانب أنَّ تعبئته السيئة تجعل بعضه يتساقط طوال الطريق. وعندما يصل الصمغ إلى دنقلا، فإِنَّه يبقى فترةً أخرى في العراء، مِمَّا يزيد مِن نقصان وزنه، لكن الحكومة

تجبرُ شيخ الكبابيش أنْ يدفعَ مقابل نقصان الوزن المفقود، نتيجةً للعوامل الطبيعية، وهي تحسبُ التعويض بحسب المبلغ الذي تبيعُ به الحكومة قنطار الصمغ فِي الإسكندرية للأوربيين؛ لذا فإنَّنَا نجد أَنَّ الشيخ دائماً ما يتسلَّمُ ربع قيمة الترحيل المتفق عليها مع الحكومة، ورغم ضالة المبلغ؛ فإنَّه لا يُسَلَّم له نقداً، بل يرغم على استلامه مِن المنسوجات القطنية المُصَنَّعة فِي دنقلا، والتي تُعْطَى له مقابل (20) قرشاً، رغم أنَّ الحكومة تبيعها فِي السوق مقابل (12) قرشاً.

ونتيجة لهذه المعاملة السيئة التي تُعامِلُها الحكومة لشيوخ الكبابيش؛ فإنَّهم اُضطرُّوا للرحيل في عام 1839م مِن كردفان إلى دارفور. لكنهم لم يجنوا شيئاً مِن ذلك، فقد قام سلطان دارفور بالاستيلاء على جُلِّ جِمَالِهم، ولم يترك لهم إلَّا القليل، وأصبحوا يأكلون ما يصطادونه فِي طريقهم؛ مِمَّا اضطرَّهم مرة أخرى لتركِ دارفور، والرجوع ثانيةً إلى كردفان؛ ليقعوا تحت قبضة مُعَذِّبيهم الأتراك.

عند زيارة محمد علي باشا للسُّودان سمع بما لَحِق بالكبابيش مِن معاملةٍ سيئة، وقد استدعى شيخ صالح كبير مشايخ الكبابيش. وأتى الشيخ فِي حضرة محمد علي باشا، الذي بذل ما بوسعه لاسترضائه وأجلسه على يمينه كدلالة على تكريمه. وبعد أَنْ سمع محمد علي باشا بالسوء الذي ألحقه رجاله بالكبابيش، وعده بأَنَّه سيتخذُّ الإجراءات اللازمة لإصلاح ذلك وتعويض الكبابيش، وأمر وكيله أنْ يرفع إيجار الترحيل للجَمَلِ الواحد المُحَمَّل مِن (45) قرشاً إلى (80) قرشاً، وقد أرضى ذلك الأجر شيخ صالح. بعدها فإنَّ محمد علي باشا سألَ شيخ صالح عن أنّه ما يزال في ريعان شبابه، لكن رغم ذلك فإنَّ لحيته بيضاء! وأجابه شيخ صالح إنَّ التعذيب والإهانة التي ألحقها به رجالَه، جعلتْهُ كبيرَ العمر قبلِ أوانه. ورغم أنَّه ليس مِن عادات محمد علي باشا في هذه المواقف المهادنة، إلَّا أنَّه قام بتطييب خاطرة ومخاطبته بعبارات ودودة. فالحكومة فهمتْ أخيراً أهمية العلاقات الطيبة معهم، لأنَّهم يُقَدِّمُون

لها خدمات لا تُقَدَّر بثمن. وإنَّ أي قبيلة تضغط عليها بالقوة، يمكنها بسهولة أنْ ترحل وتقيم خارج كردفان، لكن الكبابيش لم تجديهم الهجرة إلى دارفور، أيضاً فإنَّهم هاجروا للمناطق الجنوبية الشرقية مِن كردفان، لكن ذبابة اليوهارا المُميتة قضتْ على جمالهم. لذلك في الأخير فإنَّهم قنعوا بالبقاء في كردفان، كما أَنَّهم تعلموا كيف يدافعون عن أنفسهم في حال تهديدهم بالقوة العسكرية. لقد حكي لي ضابط كان مشاركاً في حملة أُرْسِلَت لإخضاع الكبابيش، وتبدأ القصة بأَنَّ الحكومة قررتْ إرسال قافلة مكوَّنة مِن مئات الجِمال مُحمَّلةً بالبضائع خارج كردفان، وأَرسلتْ مندوباً يأمرُ الكبابيش بالقوة بتجهيز العدد الكافي لجِمال القافلة وإحضارها للأُبَيِّض، لكن الكبابيش رفضوا إطاعة أوامر مندوب الحكومة. عندها قامتْ الحكومة بإرسال فرقة عسكرية لإخضاعهم بالقوة. لكن الكبابيش عندما علموا بقدوم فرقة الحكومة عليهم، جمعوا كُلَّ جِمَالُهم وهربوا بها للصحراء، ولم يكن بمقدور فرقة الحكومة الوصول إليهم. وقد كانوا يحافظون على مسافة نصف يوم مسير بينهم وبين قوات الحكومة، مِمَّا مَكَنَّهم مِن معرفة أحوالها. ولما كانوا مُلمين بدروب الصحراء، فهم كانوا يزودون أنفسهم وجمالهم بالماء الذي يكفيهم، ثُمَّ يُخَرِّبُوا الآبار ويواصلوا سيرهم. وعندما تصلُ قوات الحكومة للبئر وتجده مُخَرَّباً تضطرُ للانتظار مسافةً حتى تتجمَّع لها المياه مرة أخرى. في الأخير فإِنَّ مساعي الحكومة لإخضاعهم فشلتْ، وجعلتها تقنع بأنْ تنتظرَ حتى يعود الكبابيش لمناطقهم بمحض إرادتهم.

يلبس الكبابيش قطعةً قطنية يَلفُّونها حول أجسامهم، والقليل منهم مَن يرتدي الجلابيب. وهم عادة لا يغطون رؤوسهم، لكنهم عند السفر يلبسون لباساً مِن جلد الضأن تقيهم حرارة الرمال، وهي تشبه ما يضعه عمَّال مناجم ألمانيا عند جلوسهم على الأرض الساخنة. وهم دائماً ما يحملون معهم حراباً ودرقاتٍ. وزائر هذه البلاد لا يمكنه أنْ يقيمَ رحلةً تجارية بدون أنْ يتصل بالكبابيش. في دنقلا يوجد لدي الدناقلة جَمَال للترحيل، ولكنني أنصحُ بالاستعانة بالكبابيش، وتدفع لهم الحكومة أجرةَ نقلٍ للجَمَل الواحد

مِن الأُبيض إلى الدبة أو دوليب على نهر النيل (80) قرشاً، ويدفع الجلاَّبة مقابل نفس المسافة من (40–60) قرشاً، ورغم أنَّ الحكومة تدفع لهم أُجرةً أكبر للنقل مِن الجلَّابة، فهم يفضلون التعامل مع الجلَّابة؛ لأنَّهم يدفعون نقداً بدلاً عن البضائع التي تجبرهم الحكومة على أخذها، أيضاً فإنَّ الجلابة لا يخصمون الكثير مِن المبلغ المتفق عليه، كما تفعل الحكومة.

(8)
دار حَمَر

لقد هاجرتْ قبيلة حمر إلى كردفان مِن دارفور منذ عدة سنواتٍ خلتْ، ولا زالت هناك مجموعات كبيرة منهم متواجدة بدارفور. فهم يحترفون تجارة الإبل والزراعة. وقبيلة حمر مشهورة بضأنها الصحراويّ، الذي يعد مِن أجود أنواع الضأن في كردفان، وهي قبيلة لا تشتغل بنقل البضائع كما يفعل الكبابيش، وإنَّمَا تجارتهم مقصورة على بيع الإبل والماشية للتجار الجلَّابة والكبابيش والقبائل التي تجاورهم. لقد طلبتْ الحكومة التركية مِن قبيلة حمر مدها بالجمال الضرورية، لاستعمالها في حملات لاصطياد الرقيق، والقوافل التجارية للقاهرة الكبرى. وأوكلت لقبيلة حمر مسؤولية حماية الحدود بين كردفان ودارفور. ودائماً ما نرى منهم آلاف الرجال يحملون الحراب والدرقات والسيوف ذات الحدين، في حالة استعداد لصد أي هجوم مِن دارفور. وفي الوقت الحاضر لم تتم أية غزوة مِن دارفور، ولكن تمَّتْ رحلات نهب مِن قبيلة حمر على القرى التي تجاورهم على حدود دارفور. ورغم أَنَّ الحكومة المصرية لم تكن تستحسن القيام بحملات غزو ونهب، إلَّا أنَّها كانت تمد قبيلة حمر بكل مساعدةٍ ممكنة، بما في ذلك فرسان الخيالة مِن القبائل البدوية لغرض السلب والنهب. فحقيقة الأمر كانت غارات السلب والنهب والاعتداء، تتم لصالح الحكومة مقابل أنَّ تدفع قبيلة حمر الإعداد الكبيرة مِن الإبل، والتي يطلب مِن شيخ حمر توفيرها للحكومة. ولا تستطيع القبيلة أنْ تُغَطِّي هذه الجزية المفروضة عليها مِن الحكومة، إلَّا مقابل القيام بغزوات سلب ونهب مِن دارفور. وبدأتْ هذه الحملات بعد أنْ أتى شيخ حمر إلى ديوان الحكومة بالأبيض متظلماً مِن فداحة

الجزية المفروضة على القبيلة، والتي ليس فِي مقدورها تسديدها. وفي المقابل طلب مِن الحكومة أنْ تسمح له بالقيام بغزَوات سلب ونهب مِن دارفور. ولم توافق الحكومة فحسب، بل قدَّمَتْ مساعدة للشيخ ومدته بمجموعة مِن فرسان البدو. وقد تمَّتْ غزوات النهب على قرى دارفور المجاورة بدون أدنى مسائلة مِن قبل الحكومة، وبدون حتى أنْ تقوم القبائل المنهوبة في دارفور بأي ردٍّ انتقامي على الغزوات التي تستهدفها.

ويقيمُ شيخ حمر على مسافة تبعد مسيرة (12) ساعة مِن الأُبيض، وفي البداية فإنِّني قابلتُ أقربائه في الأُبيض لكنني لاحقاً قمتُ بزيارته فِي دياره، وقد استقبلني بكرم جم. وقد سنحتْ لِي الفرصة أنْ أحضرَ ديوانَ الشيخ الذي يعقدُه فِي كوخِ التُّكُل، وفيه يجلسُ الَشيخ على عنقريب يُحَاذِي المدخل، وتجلس بجانبه إحدَى زوجاته الأربعة اللاتي يتناوب بينهن كُلّ يوم، ولكن الزوجة الكبرى هي التي تُشَرِّفُ مجلس الديوان بحضورها. فالشيًخ يضع على جنبه سيف العدالة ذا المقبض الفضيّ، على رأس المقبض توجد قطعة فضةٍ بحجم البيضة. وعلى الأرض أمام الشيخ يجلس المُدَّعِي والمُدَّعَى عليهم فِي شكل دائرةٍ، ويوجد أمام الزوجة الكبرى إناء كبير به مشروب المريسة، وتقوم بنفسها بتقديم كؤوس المريسة للحضور، بلا استثناء مُدَّعٍ أو مُدَّعَى عليه أثناء انعقاد جلسة المحاكمة. ويُقْصَد مِن هذا الطقس إظهارٍ أَنَّ الشيخ الذي يحكم بين المتقاضين هم عنده سواء لا فرق بينهم في المعاملة. وجلسات المحاكمة تكون دائماً قصيرة، وقرارات الشيخ حاسمة وتنفذ على الفور، لأنَّ هؤلاء الناس البسطاء يعتقدون أَنَّ شيخهم لا يجبُ الكذبُ عليه. إنَّ عادات وتقاليد أهالِي دار حمر لا تختلفُ عن عادات وتقاليد بقية سكان كَردفان، فأهالي دار حمر أُناسٌ مقبولون لدى النَّاسِ، ويصدرون صوتاً عندما يريدون نطق لا أو نعم مثل بقية سكان كردفان، وعلى الشخص السامع أَنْ ينتبه عند سماع الصوت للتمييز بين لا أو نعم. وطيلة إقامتي في كردفان لم أسمع أنْ قبيلة حمر ساءتْ معاملة أو نهبتْ الغريب، والجرائم بينهم قليلة

جداً. ولكنهم ينفذون رحلات النهب والسلب في دارفور، ولا يعتبرون ذلك عملاً مشيناً يُعَاقَب عليه، أو حتى يتم إخفائه عن الحكومة. وشيخ قبيلة حمر رجلٌ وسيم، يمكن تمييزه عن بقية أفراد القبيلة بسيفه ذي المقبض الفضيّ. وهو محبوب مِن قِبَل أتباعه وينفذون تعليماته بدقة، ويمكن القول إن القليلين مِن المسئول لدينا، مِمَّا يمكنهم أنْ يفتخروا بدقة تنفيذ تعليماتهم، مثلما تُنَفَّذ تعليمات الشيخ. عندما يريد شيخ حمر الخروج، يكون دائماً راكباً جوادَهُ المُهر مِن سلالاتِ الجياد الأوروبية النبيلة، وفي كُلِّ رحلاتي لم أرَ فرساً أجمل أو أكثر أصالةً منه.

دار حمر أرض معطاءة، وتحتاجُ لقليلٍ مِن الجهد لتفي باحتياجات أهلها البسيطة. ونساءُ حمر لسن جميلاتٍ جِدًّاً، ولكنهن مقبولات. وهُنَّ أيضاً يعملنٍ في الاعتناء بالأطفال وأعمالِ المَنزل، ويملأن ساعات فراغهن الطويل بالتزين والتجمل. وزيُّ نساء حمر يشابه زي نساء كل قبائل السُّودان، فالحمر لا يضعون غطاء على رؤوسهم، وحتى شيخهم لا يُغَطِّي رأسه. وهم يتركون شعر رؤوسهم يسترسل ويصير كثيفاً، حتى أنَّه تصعب على الشمس النفاذ فيه. مِن البداهةِ القول أَنَّه حيثُ لا يوجد ماء، لا يستطيع الإنسانُ أو الحيوان العيش، لكن أغلب أرض قبيلة حمر تمثل استثناءً لهذا، رغم أنَّ ذلك يبدو بعيداً عن التصديق. فمياه الأمطار تتجمَّع عندهم في برك صغيرة وتُسَمَّى الفولة، تقوم بالتبخر وتترك مناطق إقامتهم ليس فيها ولا ذرة ماءٍ لمدة ثلاثة أشهر في السنة. وهم لا يملكون آباراً تُستخرَجُ منها المياه، ما عداً منطقة آبار نجري. في القرى التي تبعد مسافة طويلة مِن هذه الآبار، يضطرون خلال الأشهر الثلاثة الجافة في السنة، والتي تنعدم فيها المياه، إلى إرسال نساءهم وأطفالهم وكبار السن والعجزة مع الماعز والضأن وبعض الإبل، لمواقع هذه الآبار في كجمر. ويبقي عددٌ قليل مِن الرجال والإبل في القرى. وقد ابتكرتْ قبيلةُ حمر بدائلَ تعوِّضُهَا عن ندرة المياه، وذلك عبر زراعة مساحات واسعة مِن الأراضي بالبطيخ الذي يحصد وقت الجفاف،

ويجمعون البطيخ يومياً ليستعملونه في عمل المريسة والعصيدة، وطبخ ملاح الويكة. وهم يتحايلون بكُلِّ الطرق على شُحِّ المياه، فلذلك لا يغسلون ملابسهم البتة، وحتى الذين يلبسون ملابس فاخرة منهم، لا يغسلونها حتى إذا توفرتْ المياهُ. والجِمَال الباقية في مناطق الجفاف بالقرى تُطْعَم بطيختين يومياً، تكفي لمد الجَمَل بحاجات جسمه الضرورية مِن سوائل. والجمال لا تعاني العطش، والقاعدة في الصحراء أنْ يُسقَى الجمل كُلّ يومين أو ثلاثة أيَّامٍ.

(9)
القبائل التي تجاور كردفان:
الشُّلُك، النوبة، تَـقَـلي

قبيلة الشُّلُك

على حدود مدينة كردفان وتحديداً على الاتجاه الجنوبي الشرقي منها، يقيمُ الشلك والدينكا أو الجانقي. وموطن الدينكا الأساس يقعُ على الضفة الشرقية للنيل الأبيض. تحتلُّ ديار الشلك منطقةً واسعةً مِن الأراضي التي تمتدُّ باتجاه الجنوب، حتى تصل غربي النيل الأبيض. وتتشابه قبيلتي الشلك والدينكا لدرجة التطابق، خاصةً في ملامحهما الخارجية والطريقة التي يشيدون بها منازلهم، أيضاً عاداتهم وتقاليدهم. لكنهم يختلفون في اللغة التي يتحدَّثون بها. في الماضي فإنَّ سلاطين الشلك كانوا أقوياء جداً، وقد امتدَّ سلطانهم حتى دنقلا التي قاموا بغزوها. وقد حكمت سنار حتى عام 1821م بواحدٍ مِن أفراد أسرة سلطان الشلك. بعدها وبسبب تفوق القوات المصرية عليهم، تَمَّ دحرهم وإجبارهم على دفع الجزية لمحمد علي باشا. ويقيم آخر أبناء سلاطين الشلك الآن في قرية صغيرة وسط ظروف معيشية صعبة. وقد قام محمد علي باشا بتعيينه مأموراً على القرية، مراعاةً لظروفه الخاصة. مِن السهل تمييز أشكال الشلك والدينكا وسط الأقوام الأخرى، فهم لديهم رؤوس مستطيلة، ويخلعون الأسنان الأربعة لقواطعهم الخلفية منذ عمر (12) سنة في طقس دينيّ يشبه طقس التعميد في أوروبا. وتكوين الشلك الجُسمانيّ متين، حَسُن البناء ورشيق.

لكن رغم ذلك تجدُ أَنَّ الرقيق منهم أقلّ سعراً مِن الرقيق القادم مِن

كردفان وسنار. وسبب هذا التعارض الواضح هو أنَّ الرقيق منهم، ما عدا الذين اُسترِقُوا منذ أعمار صغيرة، رقيقٌ بطيءٌ وكسولٌ وتصرفاته طفولية، لا يمكن العهد إليه بأيٍ مسؤولية. وهم ينشغلون طوال اليوم بالجري ولعب ألعاب طفولية، ولا يمكن تركهم لوحدهم بل يجب مراقبتهم طوال الوقت مِن قبل مشرفين عليهم؛ لذلك فهم لا يُستعمَلُون إلا في أقل أنواع العمل مثل العتالة. وقد أنشأ محمد علي باشا أوَّل فرقة مِن جنود المشاة يتمُّ تعيينها فقط مِن الزنوج. لكنه أصدر لاحقاً أمراً بأنْ لا يتمُّ التجنيد في الفرقة العسكرية مِن هذه القبيلة. فقد عُرِفَ عنهم أنَّ خدمتهم العسكرية ليست ذات قيمة، بجانب أنَّ رِقَّة عقلهم يمكن أنْ تؤدي لعواقب وخيمة. وتُحكَى حادثة مشهورة عنهم، وهي أنَّ بعض الجنود مِنهم عندما كانوا في وردية حراسة، أعطُوا بنادقهم المسكيت بلا أدني تردد لعابر سبيل عرض عليهم مقابلها هدية متواضعة. مِمَّا جعل الضباط يضعون مجندِّي هذه القبيلة تحت رقابة مشددة، ولا يثق فيهم لأداء أي مَهام عسكرية لوحدهم. وقد قرأتْ في بعض كتب الرحالة والجغرافيين أَنَّ الشلك آكلو لحوم بشر! لكن ذلك غير صحيح. وقد جمعتُ تقاريرَ مِن التجار الجلَّابة الذين يتاجرون معهم تفيد أنَّ هذا الادعاء عارٍ مِن الصحة، وأكدوا لي أنَّهم حتى لم يسمعوا إشاعة عن أي أكلٍ للحم بشرٍ في مناطقهم.

عندما وصلت منطقة التيارا على النيل الأبيض قادماً مِن كردفان، سمعتُ حال وصولي أنَّ هنالك أوروبِيّاً يقيم في ديار الشلك بصحبة مجموعة مِن الصيادين الأقوياء، لأجل اصطياد فرس نهر؛ لصالح محمد علي باشا، بغرض أخذ جلده وعينات مِن جمجمته ليتم وضعها في المتحف. وقد تحركتُ فوراً مِن التيارا، وسرتُ مسيرة يومين على ظهر جَمَل، حتى وصلت المكان الذي يتمُّ فيه اصطياد أفراس النهر. وقد وجدتُ الصيادين، لكنني لم أجد الأوروبيّ الذي يُدْعَى بارتلو، والذي كان قد غادر للضفة الشرقية متجهاً للخرطوم، قبل وصولي بأيَّام قلائل. أثناء إقامتي في ديار الشلك حضرتُ

اصطياد خمسة مِن أفراس النهر، لكن تمَّ سلخهم بإهمالٍ شديد، وأنا متأكد أنَّ هذه العينات قد تعفَّنَتْ وتشوَّهتْ، وألقيت بإهمالٍ بعد وصولها للقاهرة.

وقد أتاح لي سكني وسطهم أنْ أتعرَّف عليهم. فهم عاطلون عن العمل في ديارهم مثل حال رقيقهم بالخارج. ودائماً ما تجدهم مُتَسَكِّعين لا يعملون، وينامون خلال فصل الصيف في العراء خارج مساكنهم، مُتَجَمِّعين كباراً وصغاراً مثل القطيع. ومِن عادة الشلك التجول عراةً إلَّا عند الزواج، فهم يسترون عورتهم بشريط مِن القماش القطني. والرجال يعاملون النساء بشكلٍ سيء، وسبب ذلك غالباً بعض المعتقدات الخرافية التي يؤمنون بها. مثلاً إذًا كان الزوج في رحلةٍ للصيد ورمحه أخطأ هدفه، أو دخلت شوكة في قدمه، فإنَّ زوجته تكون هي السبب في ذلك، لأنَّها كانتْ تخونه لحظة مصابه، ويحملها مسؤولية خيانتها وتأثير ذلك عليه. وإذا اثبت الزوج ذلك عند شكواه لشيخهم، فإنَّ الشيخ يقوم بضربها بعصا معكوفة ثلاثة ضربات على رأسها، الأولي في منتصف الرأس، والاثنين الآخرين على جانبي الرأس، مِمَّا يجعل الدماء تسيل فوراً مِن رأسها. لكن هذا النوع مِن العقاب قليل الانتشار بين الشلك بسبب قلة تفشي الزنا وسطهم.

إنَّ ما يحصده الشلك مِن زراعة أرضهم قليل جدا، ينحصر في القليل مِن الدخن الذي يكفيهم بالكاد من موسم إلى آخر. وهم لا يضعون اعتباراً للطوارئ بتخزين الغذاء عند فشل موسم الحصاد، ويُقَال إنَّ لديهم عدد كبير مِن المواشي الموزعة في مناطق قليلة، لكن قطعانهم تبقى مهملةً بدون رعي أو رعاية كافية منهم. في بلاد الشلك لا يوجد الملح، وهم يحصلون على ما يحتاجونه مِن سنار أو كردفان. والأغلبية العُظْمَى منهم لم تذق طعم الملح. وإنّ كُلَّ ما ينتجونه مِن ضروريات لحياتهم لا تكلفهم كبير عناء، ويقومون بعدها بمقايضته مَع جيرانهم، وهم يعيشون على ما تجود به الطبيعة عليهم بدون أي تعب مِن قِبَلِهم. ويشبه أفراد قبيلة الشلك بعضهم البعض، مِن حيثُ حبهم للعطالة عن العمل ورِقّة العقل، لكنهم لا يمثلون خطورة على

الرحالة الذي يزور بلادهم، على عكس القبائل الأخرى التي تكون مستعدة دائماً للاعتداء على الأغراب. ويمكن أنْ نجد أحياناً بين الشلك مَن يحترفون النهب ويعيشون في وسط الجبال، لكن الشلك يقومون بتحذير الأغراب والتجار الجلّابة مِن الاقتراب منهم. ثروة الشلك الرئيسية هي العاج الذي يتحصّلُون عليه بدون كبير عناء. وهم يسورون بقرون العاج أكواخهم، ويبيعونه للجلّابة عندما يمرون بمناطقهم.

في ديار الشلك توجد قطعان ضخمة مِن الأفيال التي تسير في قطعان كبيرةٍ، يصل عدد القطيع الواحد منها لمئات الأفيال. وطوال العاَم لا تجد فيلاً يسير لوحده بدون قطيع، وفي الفترة التي تسبقُ نزول الأمطار مباشرةً تتجمّع الأفيال لتعبر باتجاه نهر فازوغلي. ودائماً ما تحدد منطقة عبور النهر لقطيع الأفيال أنثى فيل عجوز. ويصحب عبور الأفيال ضفة النهر ضجةٌ كبيرة، وعلى القارئ أنْ يتخيَّل جبالاً عائمةً تعبرُ النهر في وقتٍ واحد. يصحب ذلك لهو الفَيَلةِ بمليءِ خراطيمهم بالماء، ونثرها فوق رؤوسهم مثل النافورة، ورغم ضخامة جسد الفيل، إلَّا أنَّه قادرٌ بسهولة كبيرة على عبور النهر، وكأنَّه يقوم بحجز مياه النهر عن الجريان. تعبر بعدهم بعض القطعان المنفردة التي تخلفتْ عن القطيع الكبير. أثناء رحلة العبور هذه فإنّ الفيلة المهاجرة تتبعُ تعليمات أنثاهم القائدة بصرامة، وهي تقوم بجانب القيادة بتفقد القطيع والنداء على الفيل الذي يتخلّف عنه. وبعد عبور قطيع الفيلة النهر، فإنّهم يقطعون محيط القرية عابرين الأكواخ دون أنْ يؤذون الأهالي، فالأفيال مسالمة لا تؤذي أي أحد. والأفيال التي تحسُّ بقرب موعد موتها تتخلف عن باقي قطيعها عند عبور النهر، فيختارون العيش في الوادي بالضفة المقابلة حتى يدركهم الموت قبل أنْ يحين موعد رجوع القطعان مرة أخرى مِن رحلة الهجرة. ولا يتعرَّض الأهالي للأفيال التي تكون على وشك الموت، لكن بعد موتها تصير فريسة سهلة لهم. ويقوم الشلك بتسيير حملات لصيد الأفيال لكنهم لا يصطادون إلّا الأفيال المنفردة عن قطعانها،

لأنَّ الأفيال التي تسيرُ في قطيع تشكل مصدراً خطراً كبيراً على مَن يحاول صيدها. وتجارة الشلك الوحيدة هي العاج، بجانب الذهب المخلوط بالشوائب الذي يأتي مِن سفوح جبال النيل الأزرق. وسلطان الشلك الذي يسمي دناب ثروته الأساسية مِن العاج. وهم لا يعرفون قيمة الذهب، ولا يهتمون كثيراً بالحصول عليه، وما يحصلون عليه يقايضونه مع التجار الجلابة الذين يتاجرون معهم.

لقد حدَّثَني بعض الجلَّابة أنَّ في ارض الشلك يوجد حيوان غير معروف بتاتاً فِي ارض كردفان أو سنار. يسمي هذا الحيوان عند الأهالِي بالدنك Denk، وهو حيوان أكبر بعض الشيء مِن الفار، ولونه رمادي، وشكله كالقرد ويديه وقدميه مثل الإنسان، وذيله قصير جداً، وهو يتغذى على الصمغ ويتسلق الأشجار، لكنه لا يستطيع مثل القرد أنْ يقفز مِن فرع لآخر. ونجد أنَّه فِي ديار الشلك لا وجود للجِمال بسبب كثرة تواجد ذبابةً اليوهارا التي تفتكُ بها.

النوبة

تقعُ بلاد النوبة على مسيرة (20 أو 30) ساعة على اتجاه الجنوب والجنوب الشرقي مِن مدينة الأُبيِّض، ويعيشُ النوبة في بلادهم أحراراً. لكن جزءً منهم يتبعُ لكردفان، ويتمُّ جمع الجزية مِنه باستعمال القوة الجبريّة، ويشابه النوبة بعضهم البعض في القوام والملامح، لكنهم يتكلمون لغات مختلفة، فعلى مسيرة يوم واحدٍ يمكن أنْ تجدَ لهجات ولغات تختلفُ عن بعضها البعض، ولكن رًغم ذلك نجد أنَّ لغة أهالِي تقلي والكدرو والشوابنة ذات جذور واحدة. إنّ القبيلة الكبيرة التي تعرَّفْتُ عليها، والتي تُسَمِّي نفسها النوبة تحتلُّ مساحةً واسعة فِي سلسلة الجبال، والنوبة يعملون بشكل جماعي وتسود بينهم روح الجماعة، وهم شعبٌ واحدٌ، ولا يتبعون أي سلطة فوق سلطة شيخهم الذي يختارونه عبر الأغلبية، ويتوَلَّى سلطة الفصل في

قضايا الأهالي، لكن لا يتمُّ التقيد بتنفيذ قراراته، والشيخ شخصٌ سلبِي واختصاص سلطاته لا يتعدى قريته، فإذا كان أحد الشيوخ مكروهاً مِن قِبَل سكان القرية يُخْلَع مِن منصبه، ويُعَيَّن غيره فوراً بقرار الأغلبية. إنَّ شيخاً بهذه المواصفات لا يمكنُ فرض قراراته بالقوة؛ لذا فإنَّ كُلّ أعمالهم تتم بسلطة الإجماع. ولقد حدثَ عدة مرات أنَّ شيخاً كان يسعى لكي يصبحُ ملك جميع النوبة؛ لأجل مصلحته الشخصية وتنمية ثروته الخاصة، لكن محاولاته لم تنجح. وأحياناً يُقْتَلون بعد أقل شكٍّ في نواياهم المُضْمَرة، فشيوخ النوبة هُم مجرَّد رموز؛ لذا عليهم أنْ يكونوا متسامحين، وأنْ لا يتدخلوا في حرية وخصوصيات رعاياهم.

إنَّ قبائل النوبة تسكنُ في البلاد التي تمتدُّ بالتقريب طوال خط عرض (10) درجات. ومِن السهلَ التمييز بينهم، فبعضهم له قرصٌ على أذنه، والبعض له قرصٌ على أنفه، والبعض يقلعُ أسنان القواطع السُّفْلَى، وآخرون يثقبون الشفة السُّفْلَى حيثُ يُوضَع في الثقب سِنٌّ حيوان، وآخرون يَشِمُون وجوههم. وشعر رأسهم صوفِيٌّ خفيف يُغَطِّي الرأس بالكاد. شفاهم غليظة مفلطحة، وأنوفهم صغيرَة فطساء. وأغلب النوبة أقلُّ سواداً مِن سكان الجنوب، وليستْ لهم عظامٌ بارزة في الخدين، ورجالهم يتمتعون ببنية جسمانية قوية. وبناتُ النوبة لهن صدورَ جميلة مُحَدَّبة في الخلف ومقعرة إلى الأمام. النوبة يسكنون في القرى التي يبنونها على الجبال، والتي تُقام في مواضع دفاعية مُحَصَّنة يصعب العثور عليها. مساكنهم مُشَيَّدة مِن القصب ومسَوَّرة بالشوك، وبعض المنازل تُبْنَى بالحجارة، ومِن ملاحظاتي أنَّ القبائل التي تكون تحت سلطة ملك واحد، يعيشون في سلام، أكثر مِن الذين يعيشون بشكلٍ جماعي، لأنَّهم يشعلون الحروب بينهم لأتفه الأسباب. وإذا ما كانت هناكٍ قبيلة قوية فإنَّها تقوم بسبي أفراد القبائل الضعيفة وتبيعهم كرقيق.

إنَّ مناخ بلاد النوبة صحي أكثر مِن مناخ كردفان. ولباس الأَهالي في غاية من البساطة. فالبالغون يلبسون قطعة قماش قطنية، أمَّا البقية العظمى

يلبسون شريط على عرض اليد، يمرر على الوركين ويُشَدُّ برباط على البطن والظهر. بجانب ذلك فإنَّهم يتزينون بوضع حَلَق مِن النحاس الأصفر، أو أسلاك الحديد على آذانهم، وترتدي النسوة سلاسل مِن الزجاج البوهيميّ، وسكسك مِن الزجاج الفنتياني. وبعضُ الرجال يرتدون أقمشةً بمقاس ذراع، يلفونها حول خواصرهم. ويتطلَّبُ وضع هذا الشريط حول الخصر مثابرةً وجهد، كما أَنَّه مُكَلِّفٌ جداً في صناعته، فهو مُرَصَّع بأزرار صغيرة مِن قشر بيض النعام المثقوب مِن المُنتصف، حيث يتمُّ إدخال خيطاً يتم بِه ضم الزراير جميعا مع بعضها البعض، ولقد قمتُ بنفسي بعد زراير أحد الأشرطة، ووجدت عددها وصل إلى (6,860) زرارة. ويُزَيِّنُ أعلي الشريط وأسفله بمشابكٍ مِن الحديد، وزراير مِن الزجاج؛ فإذا وضعنا في الاعتبار أَنَّ رجال النوبة لا يمتلكون آلات حادة لتساعدهم في صناعة هذه الأحزمة. ومِن عادة النِّساء في بعض الجبال صبغ شعورهن بمادة حمراء، تستخرجُ مِن الأحجار الرملية حمراء اللون تُسْحَن وتُحَوَّلُ لمسحوقٍ ناعم، يخلط بالشحم ليكون كريم عطري يدهن به ضفائر الشعر، ويبقى لاصقاً في الشعر لعدة أيَّام، لكنه لا يزيدهن بهاءً. وتَتَزَيَّنُ المرأة أيضاً بحفر شلوخَ على خديها، ووضع أوشام على ساعدها وصدرها وبقية الجسم.

أثاثُ بيت النوبة يتكوَّن مِن أدواتٍ متواضعة جداً، تُوجَد آنية فخارِيّة؛ لحفظ المياه والمريسة والطبخ، بجانب بعض الكؤوس مِن نبات القرع للشربِ. وتملأُ الفتيات كأسَ القَرَع بالماءِ لكي يستطعن أنْ ينظرن لصورتهن عليها ويتفحَّصن زينتهن عدة مرات خلال النهار. لا يفارق الرجال سلاحهم في حلهم وترحالهم، ويتكون سلاحهم مِن الدرق والحراب ذات الرؤوس الحديدية أو الخشبية، والتي تكون مسمومة غالباً، مع سكين ذات الحدين ومِنْجَل طوله قدمين على شكل قلب، جزءٌ منه مستقيم ثُمَّ ينحني بعد ذلك، وكذلك أداة قتال تسمي السفروك، مصنوعة مِن الخشب تستعمل في الحرب لاتقاءِ ضربات السيوف، أو تقذف على أرجل الأعداءِ عند المواجهة. إِنَّ

شغل النوبة الشاغل هو تدخين التباكو، وأنت لا تراهم خلال اليوم إِلَّا وهم يضعون على أفواههم غليون التدخين، ورغم أَنَّ الفتيات لا يدخن، إِلَّا أَنَّ النساء العجائز لا يضعن نهائياً الغليون عن أفواههن، خاصةً عندما يجلسون للمسامرةِ. وعندما يضع الواحد منهم غليونه يصير شكله مدعاة للاستغراب، وغليونهم يصنع مِن الطين أو الخشب، وغليون الخشب يكون سمكه سمك الأصبع، وتوجد بداخله أنبوب حديدي بطول ثلاثة بوصات، يستعمل كمبسم يدخلُ فِي الفم. وهم يزرعون نفس نوع التبغ الموجود فِي كردفان، والذي يكون رقَيق الأوراق وسميك الساق. ويمكنُ القول أَنَّهَم يدخنون منذ القدم، مِمَّا يعني أَنَّ أصل التبغ ليس مِن أمريكا.

يتعاطى النوبة وجبات أحسن مِن وجبات أنحاء كردفان الأخرى، فالأبقار متواجدة بكثرة في كل جبالهم، بجانب الماعزِ والضأن والخنازير والطيور والسمن والعسل. والفئران وجبة مفضلة فِي كُلِّ الجبال بلا استثناء، لكن أشكال فئرانهم ليست مقززة مثل فئران أوروبَا. فهم يشونها بجلدها، ثُمَّ مِن بعد ذلك يُزال الجلد، ويقتاتُ الكثير منهم على حرفة الصيد، فهم بارعون عبر الشِّرَاك التي يضعونها فِي اصطياد صغار الزراف والنعام والأرانب، وأنواع أخرى مِن الغزلان. والخبز إحدى احتياجاتهم الرئيسية؛ لذا فهم يهتمون بالزراعة بشكلٍ كبير. وقد حَدَث لهم في سنوات جفاف أنْ فقدوا معظم محاصيلهم، وعدةً مراتٍ قضى عليها زحف الجراد. ويتعرَّض إقليمهم لنهب الأتراك خاصة عندما تكون هناك ندرة في الغذاء، وهي ندرة مخيفة تؤدي إلى نتائج كارثية، فقد حدث مِن قَبْل أنْ باعَ أبوان أطفالهم مقابل حفنة مِن الدخن. وقد شاهدتُ بنفسي فتاة صغيرة اشتراها أحد الجلابة مقابل 40 كف مملوءةً بالحبوب. أيضاً فإِنَّ أحد الجلابة استبدل ثمانية ثيران، مقابل حمولة جَمَل مِن حبوب الدخن، والتي تساوي تقريبا ثلاثة قناطير. واستلمَ جلَّابي آخر ثمانية أطفال مقابل نفس المقدار، ونجد عموماً أَنَّه خلال أزمات الغذاء فإِنَّ قيمة الإنسان تتساوى مع قيمة الحيوان. ومِن المدهش أنْ

تضرب مجاعة بلاد تتوفر فيها المراعي الخصبة، لكنهم لا يضعون أي اعتبارٍ آخر لغذاءٍ غير الحبوب. وعندما تقع المجاعة فإِنّ تبعاتها مأساوية، حيث تقوم القبائل بالهجوم على قرى بعضها البعض بحثاً عن الغنائم وسرقة أي شيء يقع تحت أيديهم، وهو ما يؤدي إِلى تفشي الحرب بينهم، ويقهر الأقوياء الضعفاء ويَسْبُونهم ويبيعونهم كرقيق.

أهم صادرات بلاد النوبة الصمغ وريش النعام والعرديب والعسل وأخيراً الرقيق. وتتم كل عملياتهم التجارية عن طريق المقايضة، وقد ازدادت أهمية الصمغ بعد إعلان محمد علي باشا احتكار تجارته؛ مِمَّا جعل شحن الصمغ يكلف أضعاف ما كان يُدْفَع سابقا، وهو ما سبب تعفن آلاف مِن قناطير الصمغ التي تنتجها مئات الأسر. والنوبة لا يعرفون قيمة المال، ولكن يقايضون بضاعتهم ببضاعة أخرى. ويجلبُ الجلَّابة القطن والنحاس الأصفر وأسلاك الحديد وسكسك الزجاج وأشياء أخرى، ويقايضونها ببضائع النوبة. وتتمُّ المقايضة أيضاً في تبادل التبغ والملح والودع. ويجمعُ الشوابنة المجاورون للنوبة الذهبَ الذي يستخرجونه مِن حواف الجبال، ويحفظونه داخل بيض الطيور المفترسة. وبشكلٍ عام فإِنَّ النوبة لا يضعون كبيرَ أهميةٍ لمَعْدِن الذهب، وقد أتتْ إليهم حُمَّى جمع الذهب مِن الدناقلة الذين هاجروا منذ زمن بعيد إِلى بلادهم لأجل التجارة، واختلطوا مع سكان المنطقة، وقد اهتمَّ الدناقلة بجمع مَعْدِن الذهب والتكسُّب منه. وفي كردفان فإِنَّ الذهبَ المحفوظ داخل بيض الطيور يستعمل كنقودٍ، أو يحوَّل لحُلْقَان مِن الذهب. مِن الواضح أَنَّ نوبة شيبون لا يمتلكون بوتقات لصهر الذهب، مثل تلك التي لدى قبائل الجالا الزِّنجيّة. وكما ذكرتُ مِن قبل فإِنَّ الدناقلة اختلطوا مع النوبة في العديد مِن المناطق، حتى لغتهم اختلطت بلغة النوبة. فتجد أسرة ذات أَبٍ دنقلاويّ، يتحدَّثُ لغة الدناقلة لكن ابنه الذي تكون أمه مِن النوبة يتحدَّثُ اللغتين.

يعتنق أغلب النوبة وقبائل شيبون الدِّيَانة المحمدِيَّة، لكن معرفتهم بالدين

محدودة جداً، ولا يقومون بأي شكلٍ مِن أشكال التَّعبُّد. ويعتقد النوبة فِي الذات الإلهية، لكنه يمثل درجة أقلَّ مِن اعتقادهم فِي القمر، لذا نجد أَنَّ أواخر الشهر القمريّ عندهم تعتبر أيَّام مقدَّسة. وكثيراً منهم يعتقدون أَنَّ الشمس هي الذات الإلهية، لأنَّها تجلبُ المطر الذي تنمو به كُلُّ الأشياءِ. وهم يقومون بتحديد مواقيتهم بمواعيد نزول الأمطار، حيثُ يُمَثِّلُ بداية نزول المطر شهر كادي Cadi. والنوبة وثنيين مرتبطين بالخرافة، ولا يقومون بأي عملٍ بدون أنْ ينتظروا فألاً معيناً يحددون على ضوئه كيفية إتمام أعمالهم. مثلاً عندما يحط طائر بوم على رأس أحد المنازل، ويقوم بالنعيق فإنَّهم يعتبرونه فأل شؤم، ونذير بقرب موت واحدٍ منهم. أيضاً فإنَّ الغراب الأسود له تأثير كبيرٌ علىً مجرى حياتهم، فإذا حدثَ أنْ حطَّ غرابٌ أسود فِي رأس شجرةٍ أو منزل بقرية؛ فإنَّ أهاليها يصابون بالرعب ويوقفون كُلَّ المرح والأغاني والموسيقي والرقص، لأنَّ وصول غراب أسود يعني نذير شؤم على قرب وصول الأتراك لنهبهم، وسلبهم وأخذهم ليباعوا كرقيق. ويعتقد النوبة بشدَّة في الأرواح، وهم يحتفلون في بعض الجبال سنوياً فِي زمنٍ محدد لأجل موتاهم، وعندما تُقَام هذه الاحتفالات فإنَّهم يوقدون ناراً هائلة فِي مكان فسيح قرب الماء، ويحمل كُلُّ رجلٍ منهم فرع شجرة مشتعل لإنارة الطريق، ثُمَّ يتجه جميع حاملي الشُّعَل إلى مقابر الموتى وبيوتهم التي ماتوا فيها، عندها يقذفون المشاعل في الهواء في طريقة تشبه الطريقة التي يحتفي بها بمنتصف الليل في بعض الأقطار الأوروبية. أيضاً يُقَام احتفالٌ شبيه بعد نزول أوّل المطر، وعند وقت الحصاد. وهم يحضرون معهم أثناء الاحتفال كُلَّ مؤن البهجة والسرور، مِن طعام وشراب وخاصة المريسة التي يوفرونها بكثرة.

عند الحصاد يُفَضِّل النوبة الغناء والرقص، وكُلُّ مَن له مقدرة على الرقص حتى العجائز والمعوقين يشاركون في الاحتفال. وحقيقة إنَّ النوبة مولعون بالغناء والرقص، ولا يمرُّ يوم بدون أن يجتمعَ أهل القرية فِي الفناء الواسع بعد مغيب الشمس؛ ليمضوا باقي ليلهم فِي الرقص والغناء.

وغنائهم يصحبُه تصفيقٌ بالأيدي يحفظُ الإيقاع ويناغمُه مع إيقاع الطبول والآلات الموسيقية المصاحبة. وفتياتهم مغرمات بالغناء طوال اليوم، وكُلُّ عملٍ يقمن بتأديته يكون مصحوباً بالغناء. وفي جبال النوبة فإنّه بعد مغيب الشمس تُشْعَلُ نيرانٌ هائلة في كُلِّ القرى، ويَبدأُ بعدها الرقص. وينبعثُ صدى الغناء مُرتحِلاً مِن جبلٍ إلى آخر، كُلُّ جبل يرد على التحية الصوتية التي تصله. والنوبة أُناس لطيفون معتدلو المزاج، عكس ما هو متوقع مِن أقوام يعيشون في حالة شبة بربرية. وهم إذا اطمئنوا أنَّ الرحالة الغريب لا يقصدُ إيذاءهم، فإنَّهم سيطوقونه بكرم فيَّاض، رغم أنَّهم عانوا الكثير مِن المعاملة السيئة التي أذاقها لهم الأتراكُ، والتي شبَّعَتْهُم بأفكار خاطئة عن الرجل الأبيض بشكل عام. أيضاً فإنَّ تُجَّار الرقيق يملأون رؤوسهم بأفكار خاطئة عن الرجل الأبيض، حيثُ يؤكدون لهم أَنَّ أي رقيق يقع في قبضة الرجل الأبيض فإنَّ مصيره أنْ يذهبوا به لبلادهم لتسمينه وذبحه. والجلَّابة الذاهبون بقوافل الرقيق مِن كردفان إلى القاهرة يملأون عقول الزنوج بهذه الأفكار الخاطئة، لكنهم يخبرونهم أنَّ العرب والأتراك البيض يؤمنون بالله ولا يأكلون لحوم الزنوج، لكن البيض الكفار مِن الفرنجة يأكلون لحوم البشر؛ لذا فإنَّ الرقيق يبكي بحرقة عندما يباع لإفرنجي، لأنَّه يعتقدُ أنَّه سوف يقوده للمسلخة. لقد حدَّثني بكل برود زنجيّ في القاهرة مِن الذين أجادوا اللغة العربية قائلا: «نحن السود خيرٌ منكم أيُّها البَيض، لأنَّكم عندما تأخذون أطفالنا لبلادكم تذبحونهم، ونحنُ في مقدورنا أَنْ نفعل بكم مثل هذا، ولكن نحنُ أُناس خيرون، لذا نحن أحسن منكم».

والزنوج قومٌ سُذّج بسطاء، يمكنُ باللطف والمودة أنْ تأخذَ منهم ما تريد، ولكن إذا استعملتَ القسوة والقوة فإنَّ النتيجة ستكون عكسية؛ فحالما يشعرون أَنَّ هناك عنفاً سيستعمل ضدهم، ينفعلون ويصيرون شديدي الغضب حاقدين وعنيدين إلى درجة بعيدة. فهم قومٌ جُبلُوا على الحرية، ويفضِّلُوا أنْ يخسروا حياتهم على أنْ يتقبَّلُوا الاضطهاد؛ لذا إذا أردتَ

أنْ تطلبَ منهم أداءَ أي خدمات ضرورية لك، يجبُ أنْ يكون مدخلك حَسُن يحافظُ على هدوء مزاجهم، وإلّا ستكون العواقب وخيمة؛ لأنَّهم يفضلون الموت على أداء أي عملٍ بالإكراه حتى لو كان بسيط.

إنَّ تعدد الزوجات ليس مِن عادات النوبة، فغالباً ما يتخذ الرجل لنفسه زوجةً وأحياناً زوجتين. لكن شيوخ النوبة لهم العديد مِن الزوجات، ويتمُّ الزواج عندهم بأنْ يختارَ الرجلُ فتاةً يريد الزواج منها، ثُمَّ يذهبُ لوالدها مباشرة ويتفق معه على المهر الذي سيدفعه للفتاة. يختلف مبلغ المهر مِن شخص لآخر، حسب عمر الفتاة وجمالها بجانب أي مميزاتٍ أخرى تتمتعُ بها. ويتكوَّن المهر عادة مِن بعض الأبقار والأغنام والضأن، التي ستكون مستقبلاً ملكاً للعروس، وبعد أنْ تتمَّ الموافقة على الزواج، تبدأ الإجراءات ويذهب العريس مصطحباً معه شباب القرية إلى منزل العروس، التي تسلِّم له بواسطة والدتها وقريباتها، ويتمُّ ذلك في حفلٍ بسيط، بعدها يُزَفُّ العروسان بصحبةِ الأغاني ودقّ الطبول والآلات الموسيقية الأخرى حتى منزلهما، حيثُ يتمُّ بقية الحفل، ويتناول الضيوف الطعام مجتمعين. بعدها يُخْتَمُ حفلُ الزواج بالرقص والغناء الذي يشارك فيه جميع الحاضرين. وهم يعيشون حياة عائلية ودية، فإذا حدث أنْ وقعتْ مشكلةٌ بين الزوجين وتسببتْ في انفصالهما؛ فإِنَّ المرأة تلجأ لبيت والدها ويتمُّ ردّ المهر للرجل.

إِنَّ حرفةَ النوبة هي الزراعة، لكنها تتطلبُ منهم جهداً بسيطاً، فالتربة خصبةٌ لا تحتاج لتسميد، وبعد انتهاء العمل مِن بَذْرِ الحقول، يأتي سريعاً وقت الحصاد الذي يتمُّ في زمنٍ وجيز، بعدها لا يكون لهم عمل سوي تنظيف الأعشاب بآلة الحشاشة، في الفترة ما بين بذر البذور والحصاد. وهم يقوموا بزراعة الدخن في أوَّل بواكير الأمطار. وتتم زراعة الدخن بنفس الطريقة التي يزرع بها في كردفان والتي سأقوم بتوضيحها لاحقاً في الفصل الثاني عشر. والنوبة يزرعون التبغ بكمياتٍ كبيرة لأنَّهم مدمنين على تدخينه بشكلٍ غير عادي، فبعد أنْ تنضج بالكاملِ أوراق النبات، يتم تجفيفه بسبب

تعرضه للرطوبة، ثُمَّ يُحفَظ على شكلِ أقراص. فإذا أراد الواحد منهم أنْ يُدَخِّن، ما عليه إِلَّا أنْ يكسر قطعة تبغ بالحجمِ الذي يكفيه، ثُمَّ يفركها بيديه ويحولها لمسحوقٍ يملأُ بها غليونه. وتبغ النوبة قوي التأثير على الإنسان، فإذا أراد الأوروبي تدخينه، عليه أنْ ينقعه في الماء لمدة (25) ساعة ليصير خفيف التأثير، ثُمَّ يقوم بعدها باستعماله. ورغماً عن ذلك يكون طعمه لاذع على الأوروبي، الذي يصعب عليه أنْ يُدَخِّنَ غليونين قصيرين بدون أنْ يتأثر بشدة. ويزرع النوبة كامل حقولهم بالدخن والتبغ، ويقايضونها بالمواد الأخرى. وأثناء الفترة الفاصلة بين بذر البذور والحصاد، يشغلون أنفسهم بتربية القطعان والصيد والتدرب على قذف الرماح. وأشقُّ عملٍ للنوبة هو جمع العسل، فبسبب أنَّهم يكونون في حالة مِن العُري الكامل، فلا يوجد ما يسترهم مِن لسعات النحل الهائج. وعند أخذ خلية نحل فإنَّهم يطردوا النحل منها باستعمال فروع الأشجار؛ مِمَّا يجعل النحل الغاضب مِن تخريب مسكنه يهاجمهم في مجموعات كبيرة. عندها فإنّهم لا يجدون مخرجاً إِلَّا التمرغ في الأرض ودلك أجسادهم بالرمال، لكن رغم ذلك فإنَّ تأثير لسعات إبر النحل يؤلمهم لعدة ساعات بعدها.

يقضي النوبةُ جزءً مِن وقتهم فِي التدريب على قذف الرمح، ومداراة أجسادهم خلف الدرق لحماية أنفسهم. وتبدأ التدريبات باستعمال أعمدة مِن قصب الدخن يقومون بقذفها على بعضهم البعض بدقة لا تخطئ هدفها، وهم ضليعون في استعمال الدرق، ويصدُّون القذيفة بجدارة، ويكورون أجسادهم خلف درقاتهم بشكلٍ يُصَعِّب مِن إصابتهم. عند الهجوم على أعدائهم تقوم نساء النوبة المتواجدات خلف المحاربين بإصدار أصوات عالية. تصحبها حركات سريعة مِن المجموعة المهاجمة، مع توقف للطرفين لترتيب أوضاعهم؛ فحسب تكتيكهم القتالي، فإنَّه إذا قضت الضربة الأولي على مقدمة المحاربين، فإنَّهم لا يقومون بهجمة أخرى، بل يكمنون في أقرب موضع آمن قريب لهم. والحروب بينهم شرسة لا تتوقف، إِلَّا إذا أخضعتْ

مجموعةُ المجموعةَ الأخرى لها لكي تسبيها وتبيعها كرقيق. وغير العداوات التي تنشأ بينهم، فإنَّ لهم أعداءً آخرين هم: الأتراك والبقَّارة. فالأتراك ينتزعونهم بالقوة مِن بلادهم كرقيق، والبقَّارة يأخذونهم بالحيلة ويتربصون لهم حتى تأتي فرصة مناسبة للهجوم عليهم وهم في غفلةٍ، لذا فإنّ النوبة يراقبون قراهم ليلاً خشيةَ أنْ يهاجمهم البقَّارة، ويوقَدون النار طوال الليل، والتي تسبب لهم الكثير مِن العناء، ليس بسبب كمية الحطب الكبيرة التي تستهلكها، ولكن بسبب الحاجة لمراقبة النار كي لا تخرج مِن دائرتها وتحرق قريتهم. وعند المصاب أو أثناء خروجهم في رحلة صيد أو أي أعمال أخرى بعيدة عن قراهم، فإنَّهم يلجئون لطرق بدائية لإشعال النار. حيث يتم إحضار عودين من الحطب يثقبُ أحداهما بالسكين أو برأس الرمح المصنوع مِن الحجر بحيثُ يسمحُ بإدخال رأس العود الثاني، ومِن بعد يُطرَح العود المثقوب على الأرض، ثُمَّ يُفرَك رأس العود القائم في ثقب العود المطروح على الأرض لتتم عملية الاحتكاك، ومِن حين لآخر تُصَبُّ ذرات من الرمل على الثقب لزيادة الاحتكاك. وتحتاج هذه العملية لجهدٍ عظيم يتناوب اثنان على أدائه. ويتمُّ وضع حشائش جافة أو خِرْقَة بالية قطنية خلف العمود، لكي يقع عليها الشرر المُتَوهج من الاحتكاك. وتزيد مدة اشتعال النار في الخشب بعد تحوله إلى فحم. وفي كردفان يتبعون نفس الطريقة في إشعال النار. فإذا حدثَ أنْ خَمدتْ النار في قريةٍ صغيرة أثناء المطر، فإنَّ الأهالي تصيبهم ربكة عظيمة لأنَّ الخشب والحشائش تكون رطبة لا تقبل الاشتعال، خاصة إذا كانتْ المسافة بعيدة بينهم وبين أقرب قرية لهم. لقد أخبرني أحد الشلك أنْ حدث في قريته التي تقع على مبعدة 10 ساعات من أقرب قرية لها، أنَّ أهاليها لم يتمكنوا مِن إيقاد النار لمدة (20) يوماً. وقد حاولوا (40) مرةً أنْ يجلبوا فرع شجرة مشتعل مِن أقرب مكان، لكنهم فشلوا في إيصالها مشتعلة حتى قريتهم بسبب المطر المتساقط. وقد مررتُ بنفسي بهذا المأزق، فقد كنتُ محتاجاً لحجر زناد لأشعله لأجل الإضاءة، وكنتُ أعتقدُ أنَّني سوف أجده في السوق، لكنني اكتشفتُ أنَّه لا يُبَاع. عندها قام خادمي الشلكاوي بإيجاد

حل، بأنْ ذهب لأحد الجنود، واشتري منه حجر الزناد الخاص ببندقية المسكيت، وقد انتزعها مِنه أثناء دورية عمله، وقد اشتراه منه خادمي بمبلغ كبير بلغ (5) ونصف قرش.

قبيلة تَقَلي

تعيشُ قبيلةُ تَقَلِي على مسافة تبعد أربعة أيَّام جنوب شرق كردفان. وعليها سلطان يقيم بقريةَ طاسي يتحكَّمُ في كُلِّ شؤونها، وأغلب رعاياه يعتنقون الإسلام. في سابق الزمان عندما كانتْ كردفان وما حولها تحت سيطرة ملوك دارفور، كانتْ قبيلة تقلي تدفع الجزية لحكومة دارفور، واستمرَّ الحال كذلك حتى عندما استولى محمد علي باشا على كردفان. عندما أتي الأتراك أرادوا جمع الجزية مِن قبيلة تقلي بالقوة الجبرية، وفي رأيهم أنَّ كُلَّ ما كان يُدفَع لحكام الفور في السابق يجبُ أنْ يُدفَع للحكام الأتراك الحاليين. لكن الأتراك لم يتوقفوا عند ذلك في مقدار الجزية السنوية، بل استعملوا قاعدتهم الذهبية لرفع الضرائب في كُلِّ أماكن سيطرتهم كيفما أرادوا، لأنَّهم يعتقدون أنَّ هذه الأماكن أصبحتْ بحكم ملكيتهم الخاصة؛ وهو ما جعل سلطان تَقَلِي يرفضُ دفع هذه الضرائب الجديدة، وقاوم الأتراك بحمل السلاح ضدهم. عندها فإنَّ محمد علي باشا أرسل ثلاثة حملات تأديبية للمنطقة، لكنها كلها مُنيتْ بالفشل. مِمَّا اضطره في الأخير لإلغاء حملاته العسكرية، بعد أنْ تكبَّد فيها خسائر وسط جنوده وصلتْ إلى مقتل نصف عددهم. السبب في ذلك أنَّ قبيلة تَقَلِي كانتْ لها جموع كبيرة مِن القوات الغير نظامية، ذات بأس وشجاعة كبَّدتْ المصريين خسائر فادحة. فقد باغت مقاتلو تَقَلِي الأتراك في كُلِّ مكان، وكانوا يتركونهم يتجمعون في مكانٍ واحد، ثُمَّ يقومون بالقضاء عليهم، بعدها يقومون بالانسحاب باتجاه جبالهم الحصينة التي يصْعُب على الأتراك ملاحقتهم فيها. وعندما ظهر لقائد أركان الجيش المصري عدم قدرته على هزيمتهم، لجأ للانتقام وقام بحرق جميع المحاصيل

التي وقعتْ تحت يده، ثُمَّ انسحبَ إلى كردفان وأنهى فصلَ القتال بينهم وبين قبيلة تَقَلي، ولم يعد الأتراك إليها مرةً أخرى. فقط كان الجَلّابة مِن الأبيض وبارا يجوبون بلاد تَقَلي بتجارتهم دون أي اعتراض، مثلما يقوم بذلك تُجَّار تَقَلي الذين يتاجرون مع كردفان. وكذلك هناك مجموعات مِن الدناقلة قد استقرَّت في منطقة تقلي، وقد تحمَّلُوا في سبيل ذلك مخاطر كثيرة.

إنَّ تقلي هي منطقة جبلية مِن كُلِّ الاتجاهات، تحصنها سلاسل جبلية متصلٌ بعضُها بالبعض وكأنَّها جبلٌ واحد، حيثُ يستغرق عبورها يومين كاملين. نجدُ أنَّ عدد قبائل منطقة تقلي بعدد الجبال التي تقطنها، فقبيلة تقلي تسكن 99 جبلاً، ويسكن النوبة جبلاً واحداً؛ ليصير مجموع الجبال 100 جبل. لكن أعداد النوبة أكثر مِن أعداد أهالي تَقَلي. وعموماً يجبُ ألَّا تُؤخَذ هذه الأرقام حرفِيّاً، لأنَّهم يقولون لكُلِّ عدد يتعَدَّى (33) بالرقم (99)، وبدلاً مِن أَنْ يقولوا (40) أو (80) خروفاً فإنَّهم يقولون (99) خروفاً. وقد قابلتُ شخصياً زنجيّ يقطُن في النواحي البعيدة معرفته بالحساب محدودة جداً لا تتعدى رقم (5) التي يشير إليها بعدد أصابع اليد. الإبهام يرمز له بالرقم 1، والسباب للرقم 2، والوسط للرقم 3 وهكذا. فإذا سألتَ أناساً بهذه المحدودية بمعرفة الأرقام الحسابية، فمن المستحيل أنْ تتحصلَ منهم على إجابة مقنعة.

إنَّ أهل بلاد تقلي أكثر اهتماماً بتصنيع منتوجاتهم مِن بقية أهالي بلاد كردفان الأخرى. ومع ذلك لهم اهتمامٌ كبيرٌ بالزراعة. وهم أيضاً بارعون في حصاد القطن، وتصنيعه في مغازلهم الخاصة، وإنتاج بعض السلع التجارية الأخرى. وتمتلك قبيلة تقلي القليل مِن الجياد النبيلة، وعلى الشخص إذا أراد أنْ يمتطي فرساً مِن تَقَلي، أنْ يكون فارساً جريئاً وماهراً في امتطاء الجياد حتى يحافظ على نفسه مِن أنْ يقعَ مِن على ظهر جيادِهم المسرعة. والأهالي يُقَدِّسُون هذه الجياد ولا يفارقونها. وقد سنحتْ لي فرصة أنْ أقتني حصاناً مِن جياد تَقَلِي بشرائه مِن بقَّارة قاموا بنهبه مِن جيرانهم في تقلي، فقد قُتِل أحد

أفراد تَقَلي وصار حصانه غنيمة للبقَّارة المنتصرين، فاشتريتُه وأنا على قناعة تامة أنَّ شَجرة سلالة هذا الحصان النبيل مِن دارفور.

إنَّ الزنوج في تقلي يصطادون الفيلة ويتاجرون بالعاج مع كردفان، وفي أنحاء تَقَلي حَيثُ لا توجد جياد، يصطاد الأهالي الفيل بواسطة حفرة يوقعونه فيهاَ. أمَّا في المناطق التي يمتلكون فيها الجياد، فإنَّهم يتبعون طريقة أخرى لاصطياد الفيل تتم بهذه الطريقة: يمتطي فارسان جواديهما ويذهبان للصيد معاً، ثُمَّ يختارا فيلاً مكتنزَ اللحم لأجل أنْ تزيد فائدتهم عند اصطياده. ويقوما بالعدو وراء الفيل، أحداهما يجري بجوادِهِ أمام الفيل على مسافة (100) ذراعاً بحيثُ يكون على مرمى مِن نظر الفيل، والآخر يكون راكباً جوادَه خلف الفيل على بعد مسافة (100) ذراعاً وراءه. ومِن ثَمَّ الذي مِن الخلف ينزلُ خلسةً مِن جوادِهِ ويستلُّ سيفه ويضرب به مِن ناحية المؤخرة رجلي الفيل الخلفية في العرقوب مسبباً له جرحاً خطيراً؛ مِمَّا يجعلُ الفيل يصيرُ في حالة هياج وغَضب، فيزيد مِن سرعته للحاق براكب الجواد الذي أمامه؛ وبسبب الجرح النازف لا يقوى على مطاردة الجواد لأنَّه يكون قد انطلق سريعاً، ولأنَّ الحصان أكثر سرعةً مِن الفيل. وبعد أنْ تثقلَ أقدام الفيل فإنّه يصبحُ غير قادرٍ على الجري بسرعة أكبر، مِمَّا يجعله ينهارُ ساقطاً على الأرض بعد أنْ يكون قدْ نزفَ الكثير مِن الدماء. عندها فإنَّه يصبحُ فريسةً سهلة للصيادين. عندما كنتُ في كردفان لم يكن السلاح الناريّ معروفاً عند أهالي تَقَلي. فعندما يريدون قتل الأسود، تكون طريقتهم بأنْ يقتفوا آثر الأسد إلىَ عرينه الذي يأخذ فيه راحة قيلولة منتصف النهار. ويجب لقتل الأسد أنْ تكون منطقة عرينه مجموعة مِن الأشجار المعزولة والمتفرقة، وبعد أنْ يُحدِّد الصياد عرين الأسد، فإنَّه يذهب إليه قبل أربعة ساعات من منتصف النهار موعد رجوع الأسد. ويكون الصياد عندها متأكداً مِن غياب الأسد في جولة افتراس، وأنَّه سيعود مرة أخرى عند اشتداد حرارة الشمس بين الساعة (10 – 11) ظهراً. عندها فإنَّه يتسلق شجرة مقابلة للموقع الذي

يرقدُ فيه الأسد، وعندما يرجع الأسد، فإنَّه يكون زاهداً في أنْ يشغل نفسه بما الذي يفعله إنسان فوق شجرةٍ. عندها فإنَّ الصياد يكون كامناً بمكمنه حتى تأتي الساعة 1ظ موعد حرارة الشمس الشديدة، ويكون معه شوال ملئ بالحصا، وعدد مِن حراب الزريق الصغيرة. عند اشتداد الحرارة فإنَّ قدما الأسد لا تتحمل وطء سخونة الأرض مِن تحتهما. عندها يبدأ الرجل بالشجرة بقذف الأسد مُصَوِّباً على رأسه، والزنوج بارعون في إصابة هدفهم بالأحجار. في أوَّل الأمر فإنَّ الأسد لا يهتم بأوَّل ثلاثة أو أربعة حصا تصيبه، ولا يعتبرها مِمَّا يستدعي القيام مِن النوم، لكن عند توالي الأحجار، وخاصة إذا أصابتْ إحداها عينيه فإنَّه لا يصبر أكثرْ، وينهض مِن نومه ويصدرُ زئيراً مخيف علامة على استعداده للانتقام، وبقفزة واحدة سريعة يكون الأسد تحت جذع الشجرة التي يعتليها مَن أقلق مضجعه، عندها فإنَّ الصياد بالأعلى يقذفه بحربة. وعندما يصير زئير الأسد أكثر رعباً بسبب غضبه الشديد مِن الألم، لكن بسبب معاناته مِن سخونة الأرض تحت قدميه يقوم بالرجوع مِن فوره للاحتماءِ في عرينه. بعدها فإنَّ الصَّياد في الشجرة يقومُ مرةً ثانية برميه بالحصا، وعندما يثب إليه الأسد مرَّة ثانية يقذفه بالحراب. في الأخير يضطر الأسد إلى الانسحاب مِن قرب الشجرة ليزأر مِن الألم، وجسمه ينزف بغزارة وقواه مستنفدة. عندها فإنَّ الصيَّاد في الأعلى يراقب الأسد مِن بعيد حتى يسقط ميتاً.

إنَّ سكان تَقَلي مِن عنصر نبيل، وكُلُّ الذين قابلتهم هادئين ورزينين. والعامة منهم يلبسون زي يشبه أزياء الزنوج الآخرين في البلاد، لكن الأثرياء يرتدون قمصان بيضاء أو زرقاء. وعاداتهم وتقاليدهم مثل عادات وتقاليد نوبة الشمال. ومِنهم قلة استثنائية تعتنق الديانة المسيحية. ويُقَال عن سلطان تَقَلي أنَّه إنسان فاضل، وكُلُّ مَن تشرَّف بمعرفته يتحدَّثُ عن أفضاله. فحقيقة هو رجل محبوب عند رعيته. والأهالي لا يأتون له إلَّا راكعين، ويدعون له في صلواتهم. وليس هناك مَن يجرؤ على القيام مِن الأرض قبل

الملك، أو القعود في مجلس يكون فيه السلطان حاضراً، قبل أنْ يعطيهم الإشارة بذلك. والديوان الذي يستقبل فيه سلطان تَقَلي زواره، عبارة عن صالون كبير مَشيد مِن الحجر ومُزَيَّن بالسيوف والحرابَ ومعدات الحرب التذكارية. ودائماً ما يكون الحضور في مجلس السلطان ما بين (8 أو 20) مِن حرسه الشخصي مُسَلَّحين بالحراب، يكونون في وسط الصالون مشكلين ما يشبه الدرع البشري أمام السلطان. ويأتي السلطان ديوانه يومياً بعد صلاة الصبح مباشرةً؛ ليستمع للشكاوي ويصدر أحكامه فوراً. وسلطان تَقَلي مغرم بالصيد، ونسائه اللائي يُقَال أنَّ عددهن يصل (300) امرأةً يَقِمن فَي منزل حريم السلطان بطاسي، في مبني مِن الحجر مِن الصعوبة الدخول إليه، بجانب أنَّ له بابٌ واحد فقط.

عند إقامتي في الأُبيض صادف أنْ حضرَ لمنزلي أحد الجلَّابة بصحبة أخ سلطان تَقَلي، وكان يرتدي قميصاً أزرق وصندل، لكن بدون ارتداء طربوش على رَأسه، فلما كانتْ لي رغبة سابقة أنْ أقوم برحلةٍ إلى تقلي، لأنَّها بلاد لم تطأها قدم أوروبي بعد، وهو ما حضَّني على التعرف على أمير تَقَلي الذي يأتي للأُبيِّض سنوياً. بعدها أصبح أمير تَقَلي يزوروني يومياً في منزِلي أثناء إقامته بالعاصمة الأُبيض، ويزودني بكُلِّ المعلومات والأخبار التي تخصُّ بلاده. وأكد لي أنَّ أخاه السلطان سوف يستقبلني بترحاب في بلاده، ولذا فإنَّه ليس ثَمّة ما أخشاه، وأنَّ السلطان له رغبةٌ عارمة للتعرف على الإفرنجيّ. لكن الحكومة والضباط الأتراك نصحوني أنْ أعدلَ عن مشروع زيارة تَقَلي، مؤكدين لي أنَّني سوف أتعرَّضُ لكُلِّ أنواع المخاطر، لأنَّ الأتراك، وكُلّ الرَجال البِيض مكروهين في تَقَلي، وأهالي تَقَلي لا يميزون بين البيض ويعتبرونهم كلهم عثمانيين. ومِن ثَمَّ اُضطررتُ لإلغاء مشروع زيارة تقلي، واقتنعتُ بالمعلومات التي تلقيتُها مِن هذا الأَمير وصاحبه الجلَّابيّ الذي يجوب تلك البلاد. ولكنني عرفتُ مِن حديثي مع أخ سلطان تَقَلي وصاحبه أنَّ هذه الأفكار مُختلقة وغير صحيحة، وأنَّني أرى أنَّ الأوربيينَ لو زاروا

تقلي فلا يوجد خطر على حياتهم. فإذا كان الأوروبيّ على علاقة مع السلطان، فإنَّه سوف يرسل مَن يصطحبه مِن الحدود إلى داخل تَقَلي بِكُلِّ أمانٍ. لكن مع خلق علاقات مع أخ السلطان أو الجلَّابة الذين سيطمئنون السلطان أنَّ الزائر جنسيته إفرنجيّ، وليس جاسوس تركي. وقد أكد لي أمير تَقَلي ذلك، وقال أنَّ أخاه الملك يتوق لزيارة أوروبي لكي يتعَلَّم منه بعض الأمور، خاصة التكتيكات العسكرية الحديثة. وهو عرض مقبول لدي العسكريين الأوروبيين، وأنا مقتنع أنَّ واحداً منهم إذا ذهب فإنَّه سوف يجد التعامل معه كخبير أوروبي على أفضل ما يمكن، ويمكن له عندها أنْ تُتَاح له فرصة جمع معلومات حقيقية عن بلاد تَقَلي والبلاد التي تجاورها. وقد كان أمير تَقَلي يزوروني مِن وقتٍ لآخر ليحثَّنيَ على السفر معه، وقد تجاوزتُ كُلّ المخاوفَ الخاصة بمغامرة الرحلة إلى تَقَلي، ولكن الظروف أجبرتْنِي أنْ أُغَيِّر خططي. وقد قمتُ بصنع طربوش لأمَير تَقَلي أعطيتُه له كهدية قبل مغادرته لتَقَلي. لكنه في اليوم المحدد للمغادرة، أرجعَه لي لحفظه له ليلبسه في المرات القادمَة، لأنَّه لا يجرؤ أنْ يلبسه فِي تَقَلِي، إِذْ أنَّ أخاه السلطان ليس له طربوش مثله.

على رأس قوات تَقَلي غير النظامية قائد يسميه الأتراك سر العسكر، ويتمُّ اختياره بواسطة السلطان، ويكون هذا القائد ملزم حسب التقاليد المتبعة في بلاد تَقَلي بِأنْ يُمَيِّز نفسه بإظهار شجاعته وجسارته، وأنْ يثبتَ لجنودِهِ أنَّه يستحقُّ احترامهم؛ لذا فإِنَّه يجبُ عليه أنْ يعدَّ لغزوة على البلدان المجاورة لتَقَلي، أو يخوض نزالاً لإثبات شجاعته. لكن أحياناً فإِنَّ المحن تصيب الطموحِ، فقد حدثَ في عام 1838م أنْ خرجَ قائد جيش تَقَلي وأصبح ضحيةً لشجاعته الفذة. فقد عبر حدود بلاده مع مجموعة مِن جنوده تقارب (100) مسلحاً بالحراب، وهاجموا قبيلة مِن البقَّارة، ولكي يثبتَ القائد شجاعته لجنودِهِ، قام بمهاجمة مغربيّ مِن مواطني الصحراء كان يركبُ فرساً، واندفع القائد نحوه ملوِّحاً بسيفه عازماً على قتله، لكن المغربي تفادي ضربة السيف واستلَّ مسدسه وبطلقةٍ واحدة أردى قائد جنود تقلي قتيلاً.

عندما رأى جنودُ تَقَلي قائدَهم يُصرَع، ما كان منهم إِلَّا أنْ فروا هاربين، واستولى البدو على فرَس وسلاح القائد القتيل. ويمكن أنْ تظهر لنا هذه الحادثة وضع وطبيعة جيش تَقَلي.

وتُصَدِّرُ بلادُ تَقَلي الرقيقَ الذي يأسرونه في حروباتهم مع جيرانهم مِن الزنوج. ورغم أَنَّهم غُزاة، إِلَّا أَنَّهم لم يسلموا مِن هجمات البقَّارة الذين يهجمون عليهم لينهبوهم ويخطفوا أطفالهم عنوة أو بالمكيدة، ويبيعونهم لتجار الرقيق. أنا نفسي شاهدتُ فتاةً في منزل أحد الأوربيين بالقاهرة سُرقتْ هي وأختها الصغرى مِن والديهما بطريقةٍ مدهشة تختلط فيها الحيلة والمَكر معاً، مِمَّا لا يمكنُ أنْ يصدرَ مِن هؤلاء القوم السُّذَّج. وتدلُّ هذه الحادثة الصغيرة على ما يتعرَّض له السود في بلادِهم وخارج بلادهم. فقد حدثَ أنَّ هناك رقيق سُرِق مِن تَقَلي وبيع في الخرطوم بواسطة تركي، لكنه بعدها نال حريته بعد موتِ سيِّدِه حَسب التقاليد المتبعة. عندها رجع لبلاده، ووجد شيخ قريته رجلاً مِن أصول أثيوبية سكن في البلاد منذ زمن طويل واعتنق الإسلام وتزوَّج فتاة زنجية. وعند عودة الرقيق للقرية استضافه شيخُها، لأنَّ والديه ماتا منذ زمن، وليس لديه أقارب يقيمُ معهم. وبقي الرجل في بيت الشيخ عدداً مِن الشهور حتى فاز بثقة أهل البيت فيه، بسبب معاشرته الطيبة وتعامله الحسن مع أطفالهم، وأصبحوا يعاملونه مثل واحد مِن أفراد الأسرة. في أحد الأيام تركته زوجة الشيخ مع أطفالها بسبب أَنَّها تريد أنْ تزور مريضاً مِن أقاربها يسكنُ على مسافةٍ بعيدة، وكان الشيخ يعمل بعيداً في المزرعة. فأصبح الرقيق يُسَلِّي الأطفال ببعض الألعاب المختلفة، وفجأة تركهم وحدهم لفترة قصيرة من الزمن، ثم عاد ودعا البنت التي كان عمرها (11) عام وأختها الصغرى للذهاب معه لإحضار والدتهما. لم تكن الطفلتان تشككا في نواياه، فوافقتا بترحاب على اقتراحه، وتركتا المنزل بصحبته. وفوراً ذهبَ بهما خارج القرية متصنعاً أَنَّه يريهما أقرب طريق إلى منزل أقارب والدتيهما الذي ذهبتْ لزيارته. وفي أثناء الطريق كان يشتت

انتباههما بأنْ يروي لهما بعض الحكايات، ويريهما الأزهار، ويقطف لهما بعض الثمار، لكيلا يشعران أَنَّه يقودهما إلى طريق غير مطروقٍ مِن قبل. وبعد عدة ساعات قضياها في سماع الحكايات المسلية، وصلا إلى ضاحية في فناءِ الغابة حيثُ توجد مجموعة مِن الرجال المختبئين رقوداً وسط الشجيرات القصيرة وتاركين خيولهم ترعي. بدأ الرقيق الجلف ناكر الجميل يؤكد للفتاتين أَنَّهما بعد قليل سوف يكونا مع والدتيهما بصحبة هؤلاء القوم، وأعطاهما بعض الأشياء المسلية. وعندما عمَّ الليلُ المكان وبدأ الرجال بالرحيل، أردف مغتصب البنتين في ظهر جواده. البنت الكبيرة أمامه والصغيرة خلفه، ثم قال لهما عمَّا قريب سوف يوصلهما لوالدتهما التي سوف تكون في انتظارهما. وكان طوال الليل يتحاشى ان تقع البنتين مِن على ظهر الجواد، وفي آخر الأمر ذهبت البنتان في نوم عميق مِن عناء الطرق، فخاف عليهما أنْ تنزلقا مِن ظهر جواده، فربط البنتين بحبلٍ على جسده. إنَّ البنت الصغرى لا زالت تصدِّق أنَّه سوف يأخذهما لمنزلهما، أمَّا الكبرى فقد كانتْ تصرخ بألم وتقول أَنَّه سوف يبيعهما كرقيق. وما كان مِن هذا البربري عند سماع حديث البنت الكبرى، إلَّا أنْ غَيَّر مسلكه معهما، فقام بضرب البنتين في الرأس والوجه وهددهما بأَنَّه سوف يقتلهما إذا بدر منهما أي حديث. لقد استمرَّتْ الرحلة أربعة ليالي كان يسير فيها هؤلاء البقَّارة النهَّابين ليلاً، وفي النهار يختبئون في الغابات أو في أي مكان معزول متحاشين أنْ يكتشفهم الأهالي فيهاجمونهم. أخيراً وصلت رحلة النهَّابين إلى معسكر الجيش المصري، فترك المغتصب البنتين للضابط قائد المعسكر كهدية مقابل شيء ما في نفسه مساوي للهدية. ولكن القائد رقَّ قلبه لدموع البنتين وحاول تهدئة روعهما، وأعطاهما بعض الأشياءِ المسلية، وسألهما متى قَدِمَا إلى المعسكر؟ لما أخبرا القائد التركي باسم والدهما ومكان سكنهما، وأوضحا له الطريقة التي استخدمها هذا الشخص الوضيع ناكر الجميل في سرقتهما مِن والديهما، أصابتْ القائد حالة غضب شديد وأمر بجلد سارقهما عدة مئات مِن جلدة الفلقة. ومِن بعد هداهما مِن البكاء والنحيب ووعد بإرجاعهما لبيتهما، وأنَّ أبوهما وصل قبل يومين

للمعسكر يبحث عنهما لكنه لم يعثر عليهما. فقد كان القائد المصري صديق لوالديهما، الذي كان قد أسدى له معروفاً منذ سنوات خلتْ. وعلى الفور أمر القائد أحد أتباعه للمثول أمامه، وأصدر له الأوامر أنْ يكون مسؤولاً عن البنتين، ومِن ثَمَّ يقوم بإرجاعهم لوالديهما. وعندما يصل منطقتهم في الحدود أنْ يرسل له مذكرة بذلك. فقام الشخص المكلف بإرجاع البنتين بتجهيز جَمَل، وكان يمنيهما بأنَّه سوف يصلا حدود تقلي بعد يومين، ومِن ثَمَّ سوف يجد وسيلة آمنة لإرجاعهما إلى والديهما. ولكن كان يخدعهما حتى أوصلهما للخرطوم بعد (10) أيَّام، فبدتْ لهما مدينة غريبة لم تشاهداها مِن قبل، عندها أظهر السارق وجهه الحقيقي واقتادهما عنوةً إلى ضفة النيل الأزرق، واستأجر قارباً للذهاب للقاهرة، لكنه اُعتقل وقُدِّمَ للحاكم. وعندما تَمَّ استجواب هذا السارق متى أتى؟ وبأي سلطة يصطحب معه الرقيق؟ تظاهر بأَنَّه تسلَّم أمراً مِن قائد القوات بالحدود لإيصال البنتين للقاهرة، وعندما طلب الحاكم منه مكتوباً يثبتُ ذلك، تظاهر العريف أَنَّه فقد تصريح سفره. لكنه عُرِف أَنَّه خاطف للبنتين، وتَمَّ تجريده مِن رتبته وحرمانه مِن استحقاقاته، ومِن ثَمَّ سُلِّمت البنتين لزوجه رقيب للاعتناء بهما، وأخبرتا بأَنَّهما سوف ينقلا في الإرسالية القادمة للضابط قائد القوات المصرية، والذي هو صديق لوالدهما، وسوف يدبر عندها أمر إرجاعهما لوالديهما. ولكن يبدو دائماً أَنَّ الحظ السعيد ليس مِن نصيب البنتين. إنَّ الرقيب الذي عُهِد إليه الاعتناء بالفتاتين لم يكن أميناً، فقد صادف أنْ قابل أحد الجلَّابة في المساء في منزل معين، بعد المقابلة أتى بالليل وأيقظ الطفلتين مِن النوم، وأخبرهما بتجهيز نفسيهما للرحيل لبلادهما، ثُمَّ قادهما لشاطئ النيل الأزرق حيث عبرا النهر وركبا في جَمَلٍ كان منتظراً لاستلامهما. وفي أول الصباح الباكر سُلِّمت البنتان لتاجر رقيقٍ باعهما لتركي في القاهرة، ومن بعد اشترى أوروبي الفتاة الكبرى التي قابلتُها في منزله. ويمكنُ مِن هذه القصة أَنَّ نعرف القدر القاسي الذي يُلاحق هؤلاء السود التعساء أينما حَلُّوا، وكذلك العبودية مِن دون أمل الهروب مِن مصيرهم المحتوم.

(١٥)

الحياة الدينية

إِنَّ الغالبية العظمى من سكان كردفان مِن المسلمين، ولكن لا نجدُ بينهم أُناساً متعصبين دينياً كما نشاهد في البلاد الأخرى التي تعتنقُ الإسلام. خاصةً إذا وضعنا أَنَّه لا يوجد بالبلاد مسيحيون أو يهود في هذه النواحي مِن بلاد السودان، وبالتالي ليس هنالك بغضاء أو خلاف بسبب العقيدة. ولكن رغماً عن ذلك نجد في البلاد أَنَّ مجموعة الدناقلة هي الفئة الوحيدة الأكثر تمسكاً بالقرآن حرفياً. أمَّا الآخرون فإيمانهم بالعقيدة أقلّ تعصباً، ولا يعيرون أهمية للديانات الأخرى وممارستها، بل يعيشون في حالةِ جهلٍ تام بالديانات الأخرى غير الإسلام، فهم يؤمنون بالله ويتوسلون في دعائهم بنبيه. ونجد أنَّ تعاليم القران لا تتبع بتشدد، بل كل فردٍ يأخذُ مِن تعاليمه ما يقدرُ عليه، وما رسخَ في عقله ووجدانه مِن أساطير ومعتقدات تُمَارَس في حياته اليومية، أو التي تعلَّمها مِن أبويه وتُمَارَس في الحياة الاجتماعية. فالأهالي لديهم إيمان قوي باثنين هما: الله والأرواح الشريرة. ويضمُّ هذا الاعتقاد الوثنيين، والجلَّابة رغم إسلامهم إلَّا أنَّهم أيضاً يؤمنون بالخرافات. وسبب كُلّ هذا الجهل هو أنَّ الحكومة لم تسعَ في إزالته عن المواطنين. ورغم ذلك توجد بعض المدارس لبعض القبائل. ولهذا نجد عدداً قليلاً مِن السكان مِمَن هم ملمون بالقراءة والكتابة يكونون إما فُكَيَا (جمع فكي أو فقيه) أو أتراك. وخلوة الفكي تُمَثِّلُ مكاناً لدراسة القرآن والوعظ والإرشاد. وهم يُعَلِّمُون في الخلوة كتابةَ بعض نصوص القران في ألواح مِن خشب، ويطلبون مِن الطلاب نسخها مراراً وتكراراً بالكتابة في الألواح وحفظها بترديدها، وحضور حلقات الدرس والوعظ، وهم يخرجون الطلاب لكنهم بعد عام ينسون كُلّ ما تعلموه.

ويشتغل الفكي بما يعلمه من نصوص قرآنية في كتابة الحجبات والتمائم للمواطنين، وهو يقيم علاقات مع العائلات ويزورهم في منازلهم مثل ما يعمل رهبان الكنائس في إيطاليا، ويتدخلون في أخص خصوصيات الأسَر، ويقدمون لهم النصح عند المشورة، ولهم أحياناً سلطة على العائلات أكثر مِن سلطة رب الأسرة، ولا شيء يتمُّ في الشؤون الأسرية دون مشورتهم ورأيهم. أيضاً فإِنَّ الفُكَيَا يقومون بصنع البارود. ووظيفة الفكي يتم توارثها بين أعضاء الأسَرة مِن أب إلى ابن، ولا تخرج من العائلة إلى أخرى. نجد أنَّ الفُكَيَا ينذرون لله كثيراً، فهو ينذر لله ألَّا يدخن طيلة عمره، ولا يشرب المريسة والقهوة. وكُلُّ فكي منهم يختار لنفسه حياة التقشف والقسوة على النفس التي يقوم باتباعها وتطبيقها. وهم أشبه بالدراويش في تركيا، مع فارق كبير أَنَّهم ينظرون لأنفسهم كشخصياتٍ مُقَدَّسة. ولقد شاهدتُ أَنَّ أغلبَ الفُكَيَا مِن الدناقلة متعصبون للديانة المحمدِيّة، إِلَّا أَنَّهم يتعاطون نبيذ الشربوت. والفُكَيَا لا يحترفون الزراعة بل يمارسون التجارة والسمسرة، وهم مشهورون بمعرفة القراءة والكتابة، ويضعون السبح الطويلة متدلية مِن أعناقهم، وفيهم غالبية عظمي مِن الدجالين، ومِن الأحسن للفرد تجنبهم.

أمَّا المسلمون الزنوج فإِنَّهم يعيشون في جهل تام، ولا يوجد بينهم فُكَيَا، ومعرفتهم بالديانة المحمديّة محدودة. ولهم أفكار غريبة عن الإيمان بالله والخلق، فنجد أَنَّ اعتقاداتهم الخاصة بالله والخلق مخلوطة بما ورد في القرآن. فقد حكي لي عجوزٌ زنجي أنَّ الله أسكن الإنسان الأبيض والأسمر والأسود الجنة، ولكن عندما ارتكب أبينا آدم الخطيئة الأولى أنزلهم مِن السماء، وكان الله ينزلُ مِن السماء يومياً ليراهما إذا أطاعا أوامره، وكسبا رزقهم بعرق جبينهم. وكانت أمنا حواء، كما سماها الزنجي العجوز، تلد يومياً عدة مئات مِن الأطفال، فكانتْ تعرضهم على أبونا آدم الذي يرسلهم إلى جميع أنحاء الدنيا وهناك يتكاثرون. صادف أَنَّ حواء أنجبتْ عدة مئات

مِن الأطفال السمر، وعندما أتى الأب ووجد الأطفال قام بإرسالهم إلى أثيوبيا. وبعد حين أنجبت حواء أطفالاً سُمْر مرةً أخرى، وخوفاً مِن أنْ يقومَ الأب آدم بإرسالهم بعيداً عنها خبأتهم فِي الفرن. وعند حضور الأب شكَّ فِي أنَّ حواء قد أنجبتْ مزيداً مِن الأطفال فبحث في الفرن ووجدهم داخله. وعند إخراجهم من الفرن كانوا كلهم ملونين بالسِّنَاج أسود اللون، فما كان مِن الأب آدم إلا أنْ استشاط غضباً وحلف أنْ يظل الأطفال سوداً كما خرجوا مِن الفرن، تذكيراً بجريمة أمهم الأولى، ومنذ ذلك الحين لا ينجح أي فعل في إزالة لونهم الأسود، فهؤلاء الأطفال هم الأصل الأول للزنوج. والزنوج المسلمون يخلطون دينهم بخرافاتهم ويتمسكون بها بشدَّة، ومِن الصعب استئصال أفكارهم الخاطئة وإعادتهم للدين الصحيح. فهم يؤمنون بتناسخ الأرواح، وأنَّ القرود الموجودة فِي الدنيا ما هي إِلَّا بشر مثلنا في السابق حلَّت عليهم اللعنة نتيجة جرائم ارتكبوها، فتحوَّلُوا إِلَى قَرَدَة. وفي القبر يعذبون كقرود، لذا نجد أنَّهم لا يؤذون حيوان القرد لهذا الاعتقاد، بل يعطفون عليهم ويوفرون لهم الطعام. ولقد حدثَ أَنْ وبَّخَني زنجيٌّ عجوز عندما رآني أضربُ القرد الذي كنتُ اصطحبه معي، لخطأ وقع منه. وقال لي غاضباً: يا هذا لماذا تضرب القرد؟ ربما يكون أحد أسلافك حلت روحه في هذا القرد بعد موته. وهم كذلك يقدسون الأفيال والطواويس مثل القرود. ويعتقدون اعتقاداً جازماً أَنَّ تصرف القردة العقلاني، ومسلكه الذي يشابه مسلك الإنسان، ما هو إِلَّا نتيجة لروح آدمِيّة حلَّت به.

كما فِي مصر نجد فِي كردفان أَنَّ الشيوخَ أو الشخصيات المقدسة يُنْظَر إليها بتقدير وإجلال. أمَّا البلهاء الذين بهم مسٌّ مِن الجن، فإنَّهم يقومون بعلاجهم والاعتناء بهم، فإذا تعذر شفائهم تحبسهم عوائلهم في مكان قصي بالمنزل، ولا يسمحُ لهم بالاختلاط بالغرباء. عند جولتي فِي مديرية كردفان تعرَّفتُ على شخصين فقط يحظون بتقديس يشبه العبادة أثناء حياتهم وحتى بعد مماتهم. الأوَّل مات منذ سنين، لكن يفد إلى زيارة قبره مسلمي البلاد

مِن كل جهة، للتبرك بقبره الذي يقع على مسافة ساعتين مِن الأُبَيِّض. وهم ينذرون للشيخ الفكي إذا دعوا واُستجِيبتْ دعوتهم وقُضِيت حاجتهم، فيذبحون الخراف على ضريحه، ويصنعون غلة الذرة بليلة. ودائماً ما تنحر الذبائح فِي يومي الاثنين والثلاثاء، وتُقَسَّم على المساكين والعُمْيَان الذين يتحلَّقُونَ حول ضريح الشيخ صالح ليطعموا. ومِن ثم يقوم الشخص مُقَدِّم النذر بأداء صلاة شكر، بعدها تنتهي عملية زيارة الضريح والنذر. أما الشيخ الذي قابلته حَيّاً فيسمي بدوي، وهو رجل تقي لا تحوم حوله شبهه الدجل والخرافة. وهو عالم بأحوال الناس مِن حوله. فهو رجلُ فكر وهداية يقدم النصيحة إلى كُلِّ مَن يأتِي إليه طالباً، يُقَدِّمُها لوجه الله تعالى وبلاً مقابل. ولم يُسمَع عنه أَنَّه مَيَّز شخصاً على الآخر، أو أخذ هديةً أو صدقةً مِن أحد. فهو رجلٌ بسيط يعيش على الكفاف، ويقتات على ثمار القرض الذي زرعها مِن أجل أنْ يطبخَ منها طعامه، ولا يأكلُ اللحم إِلَّا مرة واحدة فِي السنة. ولقد زرتُه مرات مختلفة وتحاورت معه في مواضيع شتَّى، مِمَّا جعلني أقتنعُ أَنَّه رجلٌ يمتلك حسّاً قوياً، ومُلِمّاً إلماماً جيداً بأحوال وقضايا عصره. ومع ذلك لا يُفَرِّطُ في أمور دينه، ولا يقبل المساس بعقيدته. فهو مدافعٌ غيورٌ عن الإسلام، ولم أسمع عنه أَنَّه سبَّ المسيحية، أو الأديان الأخرى كما يفعل الدراويش في تركيا. وهو دائم الرثاء على حال هؤلاء الجهلاء المشعوذين الذين لم تتحْ لهم الفرصة لمعرفة الإيمان والدين الحقيقي. ولقد أدخلَ آلافَ الزنوجِ الوثنيين في دين الإسلام. فقد كان يتجوَّل طوال أيام العام فِي الجبال ساعياً بينهم لنشر الإسلام، داعياً الزنوج الوثنيين لاعتناق الديانة المحمديّة. وكان مجاهداً مع وثني الجبال بالكتاب والسيف. وقد فقد أحد أبنائه فِي معاركة الجهادية مِن أجل نشر الإسلام في الجبال. ويخشاه كثيراً الفُكَيَا الدجالين مُدَعِّي العلم، ولا يأتون بأفعالهم أمامه أو قرب مكان إقامته. وهو كذلك كان يحتقرهم ويحتقر أفعالهم.

إِنَّنِي أرى أَنَّه قد حان الوقت لجمعيات التبشير الأوروبِيّة أنْ توجه

أنظارها ونشاطها لهذا الجزء مِن أفريقيا. وإذا تأخروا أكثر مِن ذلك وتركوا الزنوج يعتنقون الإسلام، فإنَّه لا شيء يغريهم مستقبلاً بتبديل دينهم. ولقد علمتُ مِن بعض المصادر الأصلية ان هناك بعض الأقاليم لم تصلها الديانة المحمديَّة. وللجلَّابة التجار القِدْح المُعَلَّى في جعل الزنوج يعتنقون الإسلام، ولقد حالفهم الحظ في ذلك. ومِن ملاحظاتي أرى أَنَّ على المبشرين والمنظمات الكنسية البروتستانتية أنْ تتسارع إلى أفريقيا، وعليها أَنْ تبتعدَ عن المناطق التي دخلها القرآن، لأَنَّ ذلك يجعل جهودهم التبشيرية وأموالهم تضيع هدراً. إنَّ سنار وكردفان ليست أرضاً صالحة للتبشير، فحتى لو نجح تنصير الزنوج في الأقاليم النائية بشراء الزنوج بأسعار رخيصة، وإرسالهم لمناطقهم الأصلية للقيام بعملية التبشير، لأَنَّه يمكنهم أَنْ يتفاهمون مع المسلمين باللغة العربية التي اكتسبوها، فإنَّ هذا شيء كاف لإفشال كامل عملية التبشير. لكن رغماً عن ذلك لم يفت الوقت للتبشير في مناطق النوبة، كدرو، شلك، رنقا، كلي ومناطق أخرى. ويجب الإسراع بأقرب وقت وإلَّا سوف يفقد التبشير المسيحي فرصته السانحة في هذه المناطق.

(11)

الأمراض

في كُلِّ الرحلات التي قمتُ بها لم تقابلني بلاد مناخها غير صحي وكثيرة الأمراض مثل كردفان. فإنَّ كُلَّ فردٍ سواء أكان مِن الأهالي أو الأغراب في هذه المديرية معرَّض للأوبئة، ولكن الأوروبيين أوَّل مَن يقع ضحية لها. إنَّ ثالث أوروبي تطأ قدمه البلاد، توفي نتيجة لهذه الأمراض. وكذلك الأتراك والمصريين الذين في خدمة محمد علي باشا، فإنَّهم أيضاً يعانون كثيراً مِن هذه الأمراض، لذا يتمُّ استبدالهم مِن حين لآخر بقواتٍ جديدة. إنَّ (16) أوروبيّ مِن الذين خدموا في مجال الطب الصيدليّ لمده 17 سنة، ماتوا في البلاد نتيجةً للأمراض. علاوة على ثمانية إنجليز بُعِث بهم للبلاد للخدمة في مجال التعدين، مات منهم ستة في أقل مِن شهرين، والاثنين الباقين هربوا بجلودهم مِن هذا الإقليم غير الصحيّ. وكذلك توفي في عام 1831م الكابتن ود فول Wood Fall الانجليزيّ متأثراً بالمناخ غير الصحيّ. عند فصل الأمطار تتضاعفُ الأمراض مرتين، ولا ينجو مِن ذلك منزل أو كوخ، وكل كردفان تتحوَّل إلى مستشفى كبير. لقد توفي جميع الأوربيين العاملين في الجيش في القطاع الطبي في مدينة الأُبَيِّض، وأثناء تواجدي بالمدينة كانوا قد ذهبوا أو مات بعض مَن قَابلتهم منهم. إنَّ الذين خدموا في البلاد مِن الأوربيين دفعوا حياتهم ضريبةً للمناخ، أو صاروا غير قادرين على تقديم المساعدات للذين يعانون. وليس هناك نقص في المعالجين المحليين، ولكن علينا أَنْ نتخيل ما يعانيه المريض على أيدي هؤلاء المعالجين المحليين وأنظمتهم العلاجية المتبعة. زِدْ على ذلك مقولة (الله كريم!) التي يعتمد عليها المسلمون، فإذا فهمنا ما تعنيه (الله كريم!) بالنسبة لهم، لعرفنا سبب عدم لجوئهم للوسائل العلاجية مبكراً

للسيطرة على المرض حتى لا يستفحلُ ويتحوَّل لمرضٍ خطير. فالآباء عندما يُصَاب طفلهم بمرض قبل أَنْ يوفروا له الجو المناسب للعلاج، أو قبل أن يرزق الوالدان بمولود، فإِنَّهم يستشيرون الفكي أو كاتب الحجبات وكل المختصين في شئون الخط وقارئ الغيب، ولكن نجد أنَّ كل نصائحهم لا تؤدي إلى نتيجة.

هناك أمراض رئيسية في كردفان هي: الحمى والدسنتاريا، والخراج حول الرقبة (يسمي الضرر) والاستسقاء والجدري ودودة الماء والأمراض الجلدية عموماً والزهري. ونجد أنَّ أي مواطن يسكن البلاد مصاباً بالحمي، وكُلّ التحوطات المبكرة لتفادي هذا الداء تنتهي إلى لا شيء. لقد تعرفتُ في البلاد على بعض الأشخاص الذين يقولون إنَّ الخمور الجافة مثل النبيذ والمريسة وأم بلبل، إذا تعاطاها الإنسان، فإنَّه لا يُصاب بالحمى أو الدسنتاريا. عكس الذين يعالجون الحمى باستعمال الوصفات الغذائية، وبعض الوسائل الوقائية فنجدهم يصابون بهذه الأمراض، ويكونون مِن ضحاياها. فأنا نفسي قد شاهدتُ هذه الطريقة مِن الحياة، ولكن لسوء الحظ كانتْ مغايرة لما شاهدتُه في أوروبا أو في أي بلاد ذات طقس صحيّ. وفي مدة (11) شهراً عشتُها بالبلاد لم أذق طعم الصحة، إلَّا أسابيع قليلة لم أكن فيها مريض بالحمي أو الدسنتاريا. وكل الأدوية التي جلبتُها معي أثناء رحلتي لم تكن مُجْدِية. ولكن بعد أَنْ اتبعتُ نصائح بعض عجائز البلاد عن صحة استعمال العرقي والمريسة بطريقةٍ معقولة، غادرتْنِي كلُّ الأمراض التي أصابتني. والأسباب الرئيسية للأمراض كما ذكرتُ ترجعُ للتغير المناخي المفاجئ واستعمال مياه الشرب. فأغلب المياه متعفنة كريهة الرائحة، مُلَّوثة بروث البهائم. وهي إِنْ لم تُغْلَ بالنار أو تخلط بالعرقي، فإِنَّها لا تكون صالحة للشرب. وهذه الطريقة ليست فقط خاصة بتفادي مرض الحمي او الدسنتاريا، بل بالنسبة لكل الأمراض. فإِذا لم تتبع هذه القواعد بانتظام فإِنَّ الحمى أو الدوسنتاريا سوف يعودانك مِن وقتٍ لآخر.

إِنَّ طُرُق العلاج المعتادة في وسط أهالي كردفان مختلفة، وهي كلها تجتمع على الطب الشعبي مثل أوروبا، زيادة على بعض الخرافات العلاجية. فالذين يصابون بالحمى بعد التداوي بالحجبات وبعض الأسرار الخفية وإِنْ لم يشفوا؛ عليهم تناول رطل مِن السمن المُجَمَّد يومياً لمدة ثلاثة أو أربعة أيام، مع مقدارٍ كبير مِن اللبن يُوضَع به عود مِن الصندل لمدة (24) ساعة. إِنَّ كُلَّ هذه الأدوية تمدُّ المريض بطاقة فعَّالة، ولقد شاهدتُ عدة أشخاص شفوا مِن الحمى بهذه الطريقة الفعَّالة. لتسكين آلام الدوسنتاريا يستعملون اللبن الرائب المخلوط بمسحوق التبلديّ الذي يستخرجُ مِن ثمر شجرة التبلدي، ويتمُّ نقعه طوال الليل، وله مقدرة على إحداث إمساك للبطن وإيقاف الدوسنتاريا. أيضاً يستعملُ هذا المسحوق بكمية قليلة كمطهر. ورغم أنَّ هذه الطريقة العلاجية مفيدة في معالجة الأهالي إِلَّا أَنَّها يمكنُ أنْ تسبب هلاك الأوروبيين.

بالنسبةِ لمرضِ دودة الماء، فإِنَّه عندما تظهر مكان الإصابة، فإِنَّها تُحَمى بآلةٍ مِن حديد ويُكْوَى بها مكانَ الإصابة، فتحدث ثقباً تخرج منه الدودة، فهذه الطريقة في المعالجة تشبه طريقة استخراج الدودة الشريطية، وتتم بأَنَّهم يقومون بمسكِ الجزء الذي يخرج مِن الدودة بالفتحة، وبعناية يقومون بلفه على عود رقيق، ويستمرون في لفها حتى تبلغ الدودة نهايتها. ويجبُ أنْ تخرجَ الدودة كاملة، فإذا حدثَ أنْ تمزَّق جزءٌ مِن الدودة المستخرجة فإِنَّها تنمو ثانيةً، ويرجع المَرض مِن جديد. في علاج مرض الجدري الكاذب يقوم الأهالي بمعالجته بمسح جميع أجزاء الجسم بالطين حتَّى تنفجر الدمامل، بعدها تكسو جسم الإِنسان مِن الخارج قشرة تبقى ملتصقة بالجسد حتى تجفّ. لقد كان هناك زِنجي مصاب بداء الجدري الكاذب، أصبح شكله مضحك عندما جفَّت القشرة الخارجية لجلده، فقد صار جلده مُبَقَّع بنقط بيضاء تحوَّلت تدريجياً لنقط حمراء، لكن بعدها اكتسب جلده اللون الأسود مِن جديد، وقد صار أثناء تعافيه يشبه طائراً أصلع مبرقعاً. إِنَّ الأهالي يعانون

أشدّ العناء مِن هذا المرض، ولا يحتملون ارتداء ملابسهم أو وضع أي قطعة قماش يسترون بها أجسادهم، وبذلك يكونون معرضين لعذاب لا يُحتمَل. ورغم انتشار المرض بينهم إِلّا أنَّ غالبيتهم قد شُفِيتْ منه.

أمّا المرض الذي يظهر حول العنق على شكل أورام خراجية (يسمي الضرر) فهو ينتشر في الفصول الممطرة. ويعتقدُ الأهالي أنَّ مسبب هذا المرض هو البرد. وهم يقومون بعلاج أورام الرقبة الخِراجية بكيها، وبعد إزالة موضع الخِراج يُوضَع مكان الجرح مرهم يكون عبارة عن خلطة مِن السمن والطين. إنَّ مرض الزهري لم يكن معروفاً بين الأهالي لعدة قرون، ولكنه ظهر فيهم بعد دخول الجيوش المصرية وعسكرتها داخل المديرية. ويمكنُ أنْ نتخيَّل ما يحدثه هذا المرض في مواطنين بسطاء لا يعرفون طبيعته، ويقومون بتجاهله عند إصابتهم به، ولكن يبدو في الوقت الحاضر أنَّهم قد تنبَّهُوا له، ومِن ثَمَّ لجأوا لبعض العلاجات التي أدَّتْ لبعض النتائج الطفيفة. وعموما فإِنَّه أثناء موسم الأمطار فإِنَّ أي محاولة لإيقاف الزهري تكون غير ذات جدوى، وينتشرُ المرض ويصبح داء عُضال. لذلك تكون معالجته فعالة في الفصل الجاف، لكن عند رجوع فصل الأمطار يرجعُ مَرَّة أخرى، لأنَّ الأدوية المستعملة غير ملائمة لطبيعة المرض، وهي غالباً ما تكون مسكنة للمرض أو علاج مؤقت له، لكنها لا تستطيعُ استئصاله مِن جذوره. ونجد أَنَّ أكثر علاج مستعمل يسمي التربة، والذي يكون له مفعول تطهري بعد ترسيبه، وهو يحضر بجلب ورك طائر بعد استخراج مخ العظم منه، وإدخاله في أمعاء خروف ليستعمل كأنبوب، ثم يصب خلاصة محلول القرض فيه، ومِن ثَمَّ يُدخَل عظم الطائر في دبر الشخص المراد علاجه، ويتم الضغط عندها على قناة الهضم حتى يصل محلول القرض للأمعاء.

وحال مجال الطب سيء في البلاد، بسبب قلة العلاج ونقص في الدواء والقذارة التي يعيش فيها الأهالي. ومِن الصعب وصف المعاناة التي يعانيها الأهالي فِي أكواخهم عند الإصابة بمرض، وتكون أكواخهم أحياناً مزدحمة

بالمرضى، مع انعدام وجود أي خدمات تمريضية مُقَدَّمة. فكُلّ إنسان يُترَك لمصيره، مِمَّا يجعلُ نسبة الموت بينهم كبيرة، وكان يمكن بتوفير القليل مِن العناية التمريضية إنقاذ الكثير مِن الأرواح، لكن كما يقولون (الله كريم!). عموماً فإنَّ في كُلّ البلاد لا توجد أي خدمات وقائية ضد المرض، ولا أعرف نصيحةً مِن جانبي يمكن أنْ أقدمها للرحالة الأوروبي الذي يريدُ أنْ يزور البلاد، أكثر مِن تحذيره مِن شرب اللبن والماء مباشرة. فيجب أنْ يتمَّ غلي اللبن أو الماء. أما في فصل الأمطار فيجب التواجد في أماكن دافئة والحفاظ على الأقدام جافة ودافئة، وتقليل الأكل مع استعمال أكبر قدر ممكن مِن البهارات في الطعام. بالنسبة للدوسنتاريا فإنَّه توجد في مصر وصفة علاجية مكوَّنة مِن الرز والصمغ، لكن على الرحالة الأوروبي أنْ يبتعد عن أخذها، لأنها بدلاً مِن معالجته يمكن أنْ تسبب له مضاعفات خطيرة في الجهاز الهضميّ. ومِن جانبي فإنَّني لجأتُ لتعاطي قشر الرمان المذاب لساعات في الماء البارد، ووجدته علاجاً ناجحاً جداً. ويجب على الرحالة أَلَّا يعتقد أنَّ شرب الكحول به أي ضرر في الأقاليم المدارية، فإنَّني بعد فوات الأوان اكتشفتُ فائدتها، ويمكنُ أن يستعمل القليل مِن العرقي والمريسة مع بعض التعديلات، والتي يُمكنُ أنْ تكون وقاية ممتازة مِن الأمراض. فكل الأهالي الذين يشربون ويصنعون العرقي والمريسة يتمتعون بالصحة ولا يصرعهم مرض الحمى والدوسنتاريا بسهولة، ويجب أنْ نعي أنَّ الإسراف في شربها مضر أيضاً على الصحة.

(12)
كتائب القوّة الحربية

تتكوَّنُ القوة الحربية المعسكرة في الأُبَيِّض مِن ثلاثة كتائب مِن الفوج الأول للخط. كُلُّ كتيبةٍ تضمُّ ألف جندي نظامي، بجانب (800) مِن البدو الفرسان الذين يسمون المغاربة، (40) مِن المدفعجية العاملين في خدمة سلاح صيد الرقيق، و(200) مِن الجنود الخيَّالة الأتراك غير النظاميين الذين جيء بهم في عام 1839م مِن دنقلا إلى كردفان، لكنهم في حالة ترقب دائمة لأوامر رجوعهم مرة أخرى إلى رئاستهم. أمَّا هيئة الأركان التي تقيم بالأبيض مع البكباشي قائد الفوج، الذي تحدثتُ عنه سابقاً، تمثل القيادة العسكرية والمدنية للمديرية. وهنالك فوجان مُعَسْكِرَان في سنار، وهذا الفوج هو أوَّل فوج أسسه محمد علي في أسوان بمصر مِن الزنوج، على نسق الجيوش الأوروبية، معهم مئات مِن الجنود المصريين الذين جاءوا في أوقات مختلفة، لكن أغلبهم ماتوا بسبب المناخ، وقد خدموا في حملات اصطياد الرقيق. وبسبب قلة الجنود المصريين، فإنَّ فوج سنار أصبح أغلبه مِن السود، وهو أمر لا مفر منه لأنّ البيض لا يستطيعون أنْ يتواءموا مع هذا المناخ. إنّ البؤسِ وضعف التسليح وقلة التدريب الذي شاهدته وسط جنود محمد علي في الأبيض، مما لم أشاهده مِن قبل في أي فوج عسكري. وفي هذا المناخ مِن الخطأ ارتداء ملابس غير قطنية، لكن الجنود يرتدون ملابس قطنية بيضاء وهم غير ميَّالين بطبعهم للنظافة، ولا يجهدون أنفسهم بغسلها، ولا يعرفون فائدة الصابون الصحية، ولا يميلون للصرف على شرائه مِن مالهم الخاص. بجانب أنَّ مِن عاداتهم أنْ يدهنوا أجسادهم بالسمن للمحافظة على صحتهم. هذه الصورة يمكن أنْ تمثلُ وصفاً صحيحاً لحال الجندي في

كردفان. فإنَّ الغريب إذا قابل أحد جنود المشاة يلبس ملابس غير عسكرية، فإنَّه يحتار في تصنيفه، فهو أقرب لخيال المآتة الذي يوضح على الحقول لطرد الغربان. وحال التجهيزات العسكرية الأخرى رديئة مثلها مثل حال الملابس. فالتعلمجي الجاويش يجهل التدريبات العسكرية مثل المجند الذي يدربه، وما عدا قلة منهم فإنَّهم غير مؤهلين للتدريب العسكريّ، وليس لديهم فكرة جيدة عن استعمال السلاح الناريّ، نجد مثلاً أنَّهم يضعون فتحة بندقية المسكيت باتجاه الأرض، مِمَّا يجعلها تُصاب بالصدأ، كما أنَّهم لا يعرفون تنظيفها أو كيفية حشوها بالطلقات النارية. وتجد الجنود ينزعون حجر زند الاشتعال ويضعون عِوَضاً عنه قطعةً خشبية. والكثير مِن الجنود يفرون مِن الخدمة العسكرية، ولكي توقف الحكومة ذلك شجعتهم على الزواج مِن نساء الأهالي، مِمَّا جعلهم لا يقيمون في الثكنات العسكرية، بل أصبحوا يقيمون في أكواخ بمناطق سكنية منفصلة.

وعلينا عند تَخيُّلِ ثكنة عسكرية أنْ لا نشبهها بتلك الموجودة في أوروبا، فثكنات الجنود في الأبَيِّض تتكون مِن أربعين كوخ منفصل مبنية بالقصب وموزعة بشكل غير منتظم، يحيط بها سور مِن الشوك به فتحة تغلق كبوابة بفرع شجرة. أمَّا داخل الكوخ فيوجد القليل نجد عنقريب، حقيبة الجراية، ولا يوجد أي نوع آخر مِن الأثاث. هناك ثلاثة ثكنات عسكرية للمشاة في الأبيض. وعندما يخرج الجنود لأداء مهامهم العسكرية في الخارج، فإنَّهم يذهبون بصحبة خليلاتهم مِن النساء، والذين يأتين يحملن الحطب والغلايات، وتكون مهمتهن ترتيب وتنظيم غرف حُرَّاس الوردية والقيام بباقي الواجبات المنزلية الأخرى. والجندي في وردية الحراسة لا يكون واقفاً، بل جالساً على الأرض، ولكي لا يثقل عليه ببندقية المسكيت فإنَّه يضعها بعيداً عنه. فإذا مرَّ أحد الضباط، فإنَّه يقوم واقفاً مرتبكاً بدون أنْ يضع بندقيته على كتفة تعبيراً عن احترام رتبة الضابط. وهم لا يقومون بأي عمل إداري بل يتمُّ تركه لضباط الرتب العليا، وعندما يأتي موعد انصرافهم

وانتهاء ورديتهم، فإنَّهم لا ينتظرون الأوامر أو قدوم الجنود البدل منهم، بل يذهبون لأكواخهم مباشرة، وهم يحملون حصائرهم وكدوساتهم في إبطهم والبندقية في اليد الأخرى. إنَّ تدريب الجنود متواضع مثله مثل حال حاميتهم. فالمجندون الجدد يُدَرَّبُون لأسابيع قليلة ثُمَّ يُلحَقُون مباشرةً بالخدمة، أمَّا الشلك فرغم أنَّهم يستوعبون بسرعة التدريبات إلَّا أنَّهم ينسونها بنفس السرعة، لأنَّهم لا يعطون اعتباراً لِمَا تعلَّمُوه، ولا يقومون بإعادة تطبيقه لاحقاً. والتدريب غالباً ما يكون بشكل فرديّ، وعموماً فمن النادر أنْ يكون هناك تدريب سواء أكان فرديّ أو جماعيّ. ومِن المدهش أنْ ترى عدم تَمَكُّن كتيبة كاملة مِن أداء أبسط الحركات العسكرية بانضباط، وقد شاهدتُ بنفسي قائدَ تدريب لم يتمكَّن في الميدان مِن تشكيل الكتيبة على هيئة صندوق. وهي أهم مناورة عسكرية يجب أنْ يتعلموها، بسبب الحرب الدائمة وحملات اصطياد الرقيق التي يخرجون فيها. فالصندوق يجعل الجنود في حالة استعداد للتصدي للأعداء المسلحين بالسيوف والذين يهاجموهم بغتةً. وقد أثبتت التجربة أنَّ المواجهة المتفرقة يمكنُ أنْ تسبب خسائرَ فادحةً وسط الجنود، أمَّا تشكل الصندوق يمكنه أنْ يصدَّ الهجوم عليهم. ففي الأنظمة الحديثة يجهز الجنود سلاحهم الناري ويتشكلون في هيئة صندوق يكونوا فيه مستعدين لاستقبال أعدائهم. في حالات يكون الصندوق مُفرَّغ مِن الداخل يضمُّ المعدات والذخيرة والفرسان داخله، وعندما يصدون هجمة الأعداء الأولى، فإنَّها تشتتهم مِمَّا يُمَكِّنُ مِن مطاردتهم. لكن طبيعة الزنوج جعلتْ الضباط يعتمدون تكتيكات حربية أخرى لتطبيق هذه المناورة، فهم يتقدمون في صف قتالي مُقَسَّم لقطاعات، يميلون شمالاً أو جنوباً في شكل مجموعات متفرقة مِن المشاة. بشكل عام يتمُّ تطبيق أي خطط مناورة سهلة التنفيذ. والجنود ليس لديهم انضباط عسكري، وأي مِن مفتشيهم لا يتصوَّر أنَّهم يمكنُ أنْ ينفذوا أوامره بشكل مرضي، فهو يقابل عناءً كبيراً إذا أراد تجميع جنوده مرة ثانية إذا كانوا مشتتين في حالة فوضى. ورغم أنَّه في منتصف عام 1837م كان لهم مدرب فرنسي اُضطرَّ

للمغادرة بسبب اعتلال صحته، إِلَّا أَنَّهم ما زالوا جنود مهملين لأي أوامر يصدرهم لهم قائد الفوج. بجانب الوضع المزري لبنادق المسكيت التي يحملونها، فأحسنها تخطئ هدفها عند التصويب. ورغم أنّه تمَّ تدريبهم على وضع الطلقة في البندقية بالشكل الصحيح، إِلَّا أَنَّهم نادراً ما ينجحون في فعل ذلك.

فِي هذه البلاد يُعامَل جندي الجيش معاملةً أقرب لجندي الشرطة، فخدماته تتركز على جمع الضرائب وحبس السجناء والقيام بمهام موظفي البلدية. وقد أثبتت التجربة أنَّه مِن غير المستحسن إرهاقهم بالتدريبات الكثيرة، أو إجراء مهام أخرى تخرجُ عن اختصاصهم. فهم يقومون عندها بتأديتها بشيء مِن اللامبالاة، وعدم التحسب للمخاطر الممكنة. والضباط لا يتوقعون أنْ يتمَّ تنفيذ أوامرهم بدقة وانضباط. وهم يستعملون معهم اللين في إصدار الأوامر، فهي الطريقة الوحيدة لجعل الجنود يطيعونهم، لكن القسوة والصرامة تجعلهم لا يقومون بأي شيء. فيجب عند إصدار أمر لهم أنْ يتمَّ مخاطبتهم بالكلام الطيِّب وتلبية احتياجاتهم الأخرى. وهنا يظهر اختلاف كبير بين هؤلاء الجنود الزنوج والجنود المصريين الذين دُرِّبُوا منذ الصغر على قيادتهم بالعصا لأداء مهامهم، التي توصلهم لدرجة البكاء والتمرغ على الأرض مثل الدودة أمام ضباطهم. أمّا الزنجيّ الذي جُبِلَ على الحرية، فإنَّه ينظر لرئيسة بوجه ثابت وهو يتلقى منه الأوامر. وهو دائماً ما يفكر في عزة نفسه وعدم انتهاك حريته. وإذا وضع الضباط ذلك في اعتبارهم فإِنَّ أوامرهم تنفذ بانضباط، لكن الويل للضابط الذي يغامر بإرغام واحد منهم عبر الكلمات الجارحة أو المعاملة السيئة لأداء واجبه، عندها فإِنَّ حياته تكون في خطر منذ تلك اللحظة، ويمكنُ أنْ يُؤَدِّي ذلك لتمرد الجنود مثلما حدث مِن قبل. فالضباط الأتراك واعون لذلك وحَذِرون مِن القول أو الإتيان بأي عمل يثيرُ الجنود الزنوج.

إِنَّ مرتبات الجنود الزنوج مثل مرتبات الجنود المصريين مقدارها

قرشين في اليوم وجراية تتكوَّنُ مِن خبز ولحم وسمن وفير، أمَّا المرتبات الفعلية فَعليهم الانتظار (12) شهراً لاًستلامها كمتأخرات تُصرَف لهم بدل النقود رقيق أو جِمَال. وفي بعض الحالات نجد الجندي مِن الزنوج بدلاً مِن أَنْ يستلم راتبه يستلم ابنه أو شقيقة مِن الرقيق. ويمكنُ أنْ نتخيَّل أَنَّ الرقيق يعتبرون كثروةٍ مالية لكل الأطراف، ومِن الطبيعي تحرير الرقيق في حالة صلة الدم. ولكن في حالة الجندي الواقع تحت وطأة الدَّيْن نتيجة لَلمتأخرات، فإِنَّه يوافق على بيع أخيه أو أبيه. وعندما يكون هناك رقيق بالغ دُفع ضمن راتب لجنديين يكونا مشتركين في ملكيته، فليس هناك اعتباراً للأبوة أو الأخوة. والجندي يمكن أنْ يُؤَخِّر بيع ابنه أو أخيه الرقيق لعدة أيَّام، ولكن في نهاية الأمر يتمُّ عملية البيع. لقد حدَّثني الضباط أنفسهم عن حالات مثل هذه تحدثُ مِن حين لآخر. وهذه الأحداث تُحَرِّك قلب مَن لا رحمة له، عندما يشاهد ابن أو أخ يعقد صفقة مع جلَّابي لبيع أحد أقربائه، ومِن ثَمَّ يكونون مرغمين على الفِراق الأبديّ. إنّ أبناء الجنود تقطع لهم مرتبات منذ ولادتهم، وعندما يبلغوا سن (11) سنة يسجلون كضاربي طبل أو نافخي مزمار، وعندما تقوى سواعدهم يحملون بندقية المسكيت. يمكنُ أنْ يُقال أَنَّ الفوضى تعمُّ كُلَّ القوات في هذا العهد. رغم أنَّ قائد الجيش الحالي مُكَرِّس نفسه لأداء مهامه، ويتمتع بلياقة جيِّدة لذلك، لذا فهو يصرُّ على الصرامة في النظام، لكن هيهات أنْ يفلحَ ذلك في إصلاح حال جنوده. فأنا مقتنع أنَّه مِن المحتمل أنْ يجعلهم أحسن حالاً، إذا ما استرضي طموحهم حسب ما هو معهود عند الزنوج.

أما البدو أطفال الصحراء الذين تغريهم الوعود الجوفاء مِن أهاليهم البسطاء، فهم ما زالوا عزيزي النفس، ولكن أهملتهم الطبيعة وعصفتْ بهم إلى هذه الأماكن، وهم على أمل أنْ يعودوا إلى وطنهم بعد استلامهم مرتبهم البائس الذي ظلوا ينتظرونه مدةً طويلة مثل بقية الجنود. وكذلك يتوقعون أنْ تصرف لهم الملابس والخيول وبقية التجهيزات مِن خارج

راتبهم الخاص. إنَّ شيخ البدو هو الذي يقوم بتكملة كُلّ المهام الناقصة، فإذا فقد البدوي حصانه فإنّ الشيخ يمدُّه بحصان آخر. وعلى البدوي مِن بعد ذلك أَنْ لا يُطالِب بمرتبه حتى يُسَدِّد قيمة الحصان الجديد، وبذلك يكون المسكين قد خدم لمده ثلاثة أو أربعة سنوات بلا أجر. فالحكومة لا تدفع تعويض إذا مات الحصان أثناء الخدمة الفعلية. وبهذا يكون قد علمنا أي نوع مِن الخدمة التي يؤديها هؤلاء على أرض الواقع. فهم شجعان عندما يتطلَّبُ الأمر ذلك، ومساوون لبقية الجنود في الشجاعة والإقدام، إنْ لم يكونوا يتفوَّقون عليهم، لكنهم لا يواجهون العدو بثقة، فهذا طبيعي لأَنَّهم دائماً ما يفكرون في خيولهم في هذه الظروف، وغالباً ما يفرون في اللحظة الحاسمة تجنباً لخسارة الحصان، وهو ما يحصل مِن وقت لآخر أثناء رحلات اصطياد الرقيق، تلك المهمة التي جُنِّدُوا مِن أجلها. ففي مرَّة حدثَ أنْ تفاجأ قائدهم بهجوم العدو عليه بينما هو يقوم بخطف طفل على حصانه، فما كان منه إلَّا أَنْ الْتَفَّ يميناً هارباً، وقام بقذف الطفل مِن على الحصان. فإذا كانت الحكومة تعاملهم هم وباقي الفرسان التابعين لها معاملةً عادلة، وتقوم بتعويضهم عن خيلهم التي يفقدونها أثناء القتال، أو حتى تمنحه تعويضاً مناسباً آخراً. فإنَّهم يمكن أنْ يُظهِرُوا شجاعةً وإقدام كبيرين. ولا يتمُّ التعامل بشكلٍ مُرْضٍ مع صحتهم الجسدِيَّة، فإذا مرض الواحد منهم لا يسمح له بالدخول للمستشفى للعلاج. ولكن مِن خبرتي فإنَّ سيئ الحظ هو مَن يدخلُ للعلاج في مستشفى الأُبيِّض، التي يديرها أشخاص تتلخص خبرتهم الطبية فيما درسوه في أبو سمبل بمصر. لذا نجد أنَّ البدو المغاربة غير مقتنعين بوضعهم الحالي في الجيش، وأغلبيتهم تَعَسَكر بالأُبَيِّض والبقية في أنحاء البلاد الأخرى كجنود غير نظاميين. وهم مكروهين عند الأهالي إذا ما استخدمتهم الحكومة لذلك، فهم كثيرو التجاوز ومزاجهم حاد، بجانب عدم قناعتهم بجدوى أعمالهم، وهم لم يقوموا بأي فعلٍ يُحَسِّنُ مِن صورتهم وسط الأهالي، لأَنَّهم معجونون من طينة مجبولة على المصادمة والتحدي. وقد أُتيحتْ لي فرصةَ أنْ أرى مقدرتهم الكبيرة على التحمل، فقد شاهدتُ

وسط جمع مِن الناس استعراض حكومي لقواتها استعداداً لحملة اصطياد الرقيق، وبعد تفتيش طابور المغاربة أمروهم بالنزول مِن خيولهم، ولما كانتْ هذه العملية تصاحبها ضجة كبيرة، هاج حصان وفر هارباً، فطارده البعض على ظهور الخيول، وآخرون حاولوا اللحاق به جرياً على الأقدام. وصادف أَنَّ أحد البدويين حاول إيقاف الحصان، فتصادمتْ جبهة الحصان مع جبهة الرجل، فوقع الرجل والحصان في آن واحد، وقد مات الحصان في لحظتها، لكن الرجل قاوم الصدمة لعدة أيام أُخرى. يتكون سلاح المغاربة مِن بندقية طويلة ومسدسين وسيف وعلم أخضر يمثل اللون المقدس عندهم، مع طبلتين مربوطتين على سرج الحصان، تضرب أثناء السير كنوع مِن الإيقاع، لكن يصدر عنها صوت مُضْجِر. هذه القوات غير النظامية دائماً ما يكون هجومها عشوائياً وبغير تنظيم. فحالما تحدد ساعة الهجوم، إِمَّا يكونون واقفين في أماكنهم، أو في حالة بحث عن سلامة أنفسهم بالهروب بشكلٍ مُتَهَوِّر مِن ميدان القتال.

الفصيل الثالث مِن القوات التي تُعَسْكِر في كردفان، تتكون مِن (40) مدفعجي. ولقد شاهدتُ تدريبهم على ضرب النار، وقنعتُ مِن سوء أدائهم. فمِن بين خمسين طلقة أطلقوها أمامي، نادراً ما تصيبُ واحدةٌ منها هدفها، والضربة الناجحة هي تلك التي تكون قريبة للهدف. وهم ليس لديهم أدنى فكرة عن كيفية حشو المدفع وتصويبه، بجانب أَنَّ قطع المدفع في حالة رَثَّة، مثل حامل المدفع الذي ترتفع حرارته بشكل لا يستطيع المدفعجي أنْ يتحمَّلها، وأي من الضباط أو الجنود لا يعرفُ كيفية إصلاح هذا العطب. ولا تُصَان معدات المدفع، بل يتمُّ جرَّها لأبعد المسافات، وعند الحاجة لإطلاقها يتم تعبئتها وتصويبها نحو الخطر، بدون اتخاذ أي احتياطات. ويمكن أنْ نعرف فعالية طلقات مدافعهم العشوائية إذا ما رأيناهم وهم يطلقونها على الجبال، أثناء حملات اصطياد الرقيق. حيثُ يتمُّ إطلاقها بشكل عشوائي لا تصيب هدفها، وتمثل للزنوج إنذاراً يعرفون منه

اتجاه الحملة. وهم بعد فترة منها لا يعيرونها أي اهتمام، لأنَّها لا تصيبهم بأي سوءٍ غير ضجة الأصوات والدخان المزعج. وجميع المدفعجية مِن الأتراك، وعندما يأخذوا إجازتهم ويذهبوا للقاهرة، يعملوا في كُلِّ المهن الأخرى من صانعي أحذية، خياطي ملابس، وتجار وغيرها مِن المهن الأخرى.

عموماً نجد أنَّ الجنود يعيشون في معاناة كبيرة، وهم مكروهين مِن الأهالي بسبب أَنَّهم يطبقون العقوبات القاسية التي تفرضها الحكومة عليهم، وهم لا يعملون بشكل منضبط لأَنَّهم يتقاضون مرتباً هزيلاً يُصرَف لهم مرة واحدة في السنة. لذا فهم مُضطرُّون للإيفاء باحتياجاتهم لأنْ يعملوا أعمالاً أخرى مثل الرقيق بكل ما تعنيه الكلمة. وعندما يمرضُ أحدهم ويدخل للمستشفى، فإنَّه مِن السخرية القول أَنَّه يجبُ أنْ يُجَهِّزَ وصيته الأخيرة ويستعد للموت فيها. ففي المستشفى يُترَك الجندي ليعالج نفسه بنفسه. وكثرة حالات الوفاة بسبب جهل الأطباء والصيادلة. فإنَّني كنتُ قبل أنْ أرى المستشفى آسفٌ أنَّ البدو المغاربة لا يُعالَجُون فيها، لكنني بعد أَنْ زرتها اعتبرتهم سعداء الحظ أَنَّهم لم يُضْطرُوا للدخول إلى بيت القتل العمد هذا. لقد تحصلَّتْ على كشف الموت الخاص بالفوج، وكشف الموت الخاص بالمغاربة، وقد قارنتُ مع ثلاثة ألف حالة مِن الجانبين، جانب الجنود الذين دخلوا المستشفى، وجانب المغاربة الذين داووا أنفسهم بالعلاجات المحلية، ووجدتُ أَنَّ كُلَّ مغربي يموت يقابله (27) جندي يموت بسبب سوء الرعاية الصحية في المستشفى. فالأطباء والصيادلة المصريون اكتفوا بقراءة المرحلة الإعدادية ثُمَّ هربوا مِن المدرسة، وقد أتوا هنا لكي يقوموا بمعاملة الجنود وكأَنَّهم قطيعٌ مِن الماشية، وهم لا يهتمون بموتِ أحدهم ولا يستطيعون تشخيص الأمراض أو وصف الأدوية العلاجية. يتكوَّن المستشفى مِن أكواخ طينية قليلة العدد ذات سقفٍ مِن القصب، تكون عامةً سيئة التهوية، وفي فصل الأمطار يبتلُّ المرضى الجنود بالماء، ولا تتمُّ مساعدتهم بأي شكلٍ، وكل التعليمات التي تصل إليهم هي «الله كريم!».

وقد زرتُ المستشفى عدة مرات ورأيتُ بنفسي الإهمال الكبير فيها، وعندما قَدِمْتُ للأُبَيِّض وجدتُ طبيباً أوربياً مِن هانوفر يدعي كين، لكنه كان شديد المرض وتوفي بعدها بفترة وجيزة. ويجب أنْ نعلمَ أَنَّ الطبيب والصيدلي مجالان مختلفا الاختصاص. ويمكنُ للصيدلي الجيِّد التعليم أنْ يُعطِي وصفات علاجية مناسبة للحالات المستعجلة. لكن إذا كان الاثنين جاهلين بالطب، فالمريض هو وحده مَن يُعاني بين أيديهم. وفي أوروبا عندما يُصاب الجنديّ يكون متلهف للدخول للمَستشفى، لأَنَّه يعلمُ أَنَّه سوف يلقى رعايةً طبية جيِّدة. أمَّا في الأُبَيِّض فإِنَّ الجندي يدخل المستشفى بالقوة، فالجنود يخافون هذا المكان المرعب ويزداد مرضهم إذا علموا أَنَّهم سيساقون إليه، ونجد كثيراً مِن الجنود يخفون أمراضهم أطول فترة ممكنة لكي لا يُجبَرُوا على دخول المستشفى. ويقوم الصيدليّ بأداءِ دورَ الطبيب ويزور المستشفى مرة واحدة في اليوم. ووصفاتهم العلاجية تعتمد على ما يقترحه الممرضون. وسبب إهمالَهم هذا هو انهم لا يتقاضون الا مرتب هزيل يصرف لهم مرة واحدة في السنة. ونجد ان شكل الحديث بين الصيدلي الذي يمثل الطبيب ويزور المستشفى، وبين الممرض يكون مباشرة ودون إجراء فحوصات على المرضي، فقد سمعت هذا الحوار أثناء زيارتي للمستشفى:

الصيدلي: كيف نمرة 1؟

الممرض: لا زال يعاني مِن الحمى.

الصيدلي: هذا لا يمكن علاجه لأَنَّه لا يوجد عندي درهم كينين منذ عدة أشهر مضتْ، بجانب أَنَّه ليس لدي أي مُسَكِّن آخر. أعتقدُ أَنّه سوف يشفى بلا علاج!

الصيدلي: كيف حال نمرة 2؟

الممرض: مات ليلة البارحة.

الصيدلي: نمرة 3 ألم يتحسَّن بعد؟

المرض: إِنَّه لا يحتاجُ لعلاجٍ آخر، وفي غضون يومين أو ثلاثة سوف يموت.

الصيدلي: كيف حال نمرة 7؟

المرض: لا أدرى مِمَّ يشكو المريض! حدَّثَنِي أنَّه لم يتمكن مِن النوم في الأيَّام الأربعة الأخيرة، وهو فاقد للشهية ويتقيأ باستمرار.

الصيدلي: (صنع مُخَدِّرَاً مُلَوَّنَاً وأعطاه للممرض) هذا المشروب يجعله ينام، وأنا لا أعرف علة بقية الأعراض.

الصيدلي: ماذا حال نمرة 8؟ هل الدوسنتاريا عنده انخفضتْ؟

المرض: لا، ولكنها لم تزداد. وسوف تقضي عليه في المساء، لذا فهو ليس في حاجة للعلاج. ولكن نمرة 9 يمكنُ أن يخرج مِن المستشفى اليوم.

الصيدلي: كيف حال نمرة 35؟

المرض: يجب أن يُترَك حتى يزداد عليه الالتهاب.

الصيدلي: أنا ليس لي أي شيء أعمله لجراحة الشريان، وإلّا سوف أضعُ نفسي في موضع علي أفندي الذي أُجبِر على دفع غرامة (100) قرش لقطعه شريان أثناء إجراء عملية لجندي مريض. هل هناك مزيد مِن المرضي؟

المرض: ثلاثة مرضى، اثنين منهم مصابين بالحمى، والثالث لا أدرى مِمَّا يُعاني! ولكن زميلي قال إِنّه يُعاني مِن مرض القاوت.

مِن هذا الحوار القصير يُمكن أنْ نتعرَّف كيف كانتْ تُدَار مستشفى الأُبَيِّض، وأي ظروفٍ يعيشها المرضى البؤساء الذين يبحثون عن العلاج فيها. فليس هناك دواء أو عناية طبية أو مرقد سرير. وإِنَّ ضميري يؤنبني كلما دخلتُ هذا المكان التعس، وشاهدتُ هذا الموت المتعمد الذي يطال هؤلاء الجنود البؤساء في أفظع منظر في العالم. فإذا كان سكان الأُبَيِّض يموتون بمعدل ما يموت الجنود في المستشفى، فان عاصمة كردفان سوف تكون خالية مِن السكان في أقل مِن (50) سنة.

(13)

مُنتَجَات بلاد كردفان

رغم أَنَّ فصلي الصيف والخريف هما الفصلان السائدان في البلاد، إِلَّا أَنَّ الأرض المزروعة لا تُعطِي منتوج المحاصيل المتوقع منها، رغم الجهد المبذول فِي زراعتها. وتُزرَع البساتين في الفصل الجاف، لكن الفائدة منها قليلة بسبَب الاحتياج للكثير مِن المياه لريها، بِجانب أَنَّه في فصل الأمطار فإِنَّ السيول تجرف المزروعات، ومِن الأفضل أَنْ تتمَّ زراعة أصناف يمكن أَنْ تنمو بشكل سهل بدون بذل عناء كبير في زراعتها. وأنا واثق لو أَنَّ الآبار تمَّ تعميقها في أحواض كبيرة؛ لتحفظ المياه في الأشهر الممطرة، فإِنَّها يمكن أَنْ توَفِّر المياه الضرورية التي تحتاجها المحاصيل للنمو في الأشهر الجافة، مِمَّا يمكن من زراعة أنواع من الخضر لا يتم إنتاجها في الوقت الحالي. وفي أرض كردفان لا توجد بحيرات صغيرة، أو حتى بِرَك مثل تلك التي نجدها في البلاد التي لا تصلها المياه أثناء العام. والبساتين توجد في جهات محدودة مثل: بارا وبعض القرى الصغيرة، حيث تتوفر المياه. وما عدا ذلك، فلا توجد بساتين في جميع أنحاء المديرية. ولا يمكن استعمال المياه التي يسقي منها الأهالي في فصل الصيف لري البساتين. أيضاً فإِنَّ قلة الزراعة بالمنطقة ترجع إلى أَنَّ جزءً كبيراً مِن البدو كثيرو الترحال لا يقيمون في مكان واحد أو يقومون بالزراعة. بجانب أَنَّ الدولة تُمَثِّل عائقاً أساسياً في توسع النشاط الزراعي، لأنها تحتكر بيع المحاصيل وتفرض ضرائب باهظة على المزارعين بشكل يجعلهم غير قادرين على الإيفاء بها.

عندما استولى المصريون أَوَّل مَرَّة على البلاد بواسطة الدفتردار لم يجدوا

فيها إلا غلة الدخن، وقليل مِن الذرة والتبغ. ولذلك عانى جيش الدفتردار لأجل الحصول على المؤن، حتى اضطروا إلى استيرادها مِن شمال السودان. لكنهم لاحقاً استطاعوا تطوير الزراعة، وأصبحتْ كردفان مكتفية بإنتاج احتياجاتهم. وقد قام الأتراك والدناقلة بزراعة بساتين لزراعة القمح والباذنجان والفول والفجل والكرفس والشبت والثوم، وكذلك مزارع واسعة للسمسم، والفول الدارفوري، بجانب الأرز والقطن. ورغم عن زراعة هذه المحاصيل في كردفان، إلّا أنَّه مِن الصعوبة بمكان أنْ تجدها معروضة للبيع في سوق الأُبيِّض. ويمكن أنْ تمرَّ عدة أسابيع بدون ان تتوفر أي نوع مِن الفاكهة. السبب في ذلك ان إنتاجية هذه البساتين ضعيفة، لأنَّ أصحابها لا يكلفون نفسهم عناء زيادة إنتاجهم. أَمَّا الأهالي فهم لا يبذلون أقل جهد لحراثة مزارعهم، بل يتركون ذلك للظروف الطبيعية، مِمَّا يقلل مِن جودة وحجم إنتاج الخضروات، وإذا نجح الموسم الزراعي فإِنَّ ذلك لا يكون سوي ضربة حظ لا أكثر. وعلى الرحالة إذا أراد الحصول على خضروات لاستهلاكه الشخصي أثناء سكنه في هذه البلاد، فعليه أنْ يجري اتفاقا مع مالك البستان لإحضار الخضروات التي يريدها لمنزله. ومِن العبث أنْ ينتظر المعروض في السوق، فالإنتاج أقلّ مِن الطلب، مِمَّا يجعل أغلب المستهلكين يحجزون احتياجاتهم مُقَدَّمَاً. وخضرواتهم هزيلة غير نَضرة، بسبب أنَّه لا يتمُّ الاعتناء بها بشكلٍ صحيح، فهم حتى لا يقومون بتنظيف الأوراق والسيقان منها، مِمَّا يستهلكها ويجعلها بدون مذاق. وإذا ما اهتموا بها مثلما يحدث في أوروبا، فإنَّها يمكن أنْ تعطي إنتاج محصولين في العام الواحد. والخضروات التي تنضج في شهر أغسطس تكون مُشَبَّعة بالماء، والتي تنضج في ديسمبر حلوة المذاق. وكذلك تُزرَع في البساتين أعدادٌ ضخمة مِن فاكهة الليمون، ولكن ثمارها صغيرة الحجم وقليلة العصارة والحموضة، وتجف بسرعة بعد أيَّام مِن حصدها مِن الأشجار، وأشجار البرتقال لا تنتج ثماراً لأنَّها مزروعة في مناخ لا يتناسب معها. وكذلك نجد فاكهة تين الدب السورية ولكنها ليس مِن النوعية الجيدة. كُلُّ هذه

الملاحظات تنطبق على إنتاج بقية البساتين، فهي لا تنتج ما يمكن أنْ يُتَوَقَّع منها، وأحجام فاكهتها أصغر مِن الحجم العادي، أَمَّا مذاقها فيكون غير جَيِّد، فحتى البصل نجده حلو المذاق وصغير الحجم، وليس لاذع المذاق كما يوجد في أوروبا. والبطيخ يعتبر مِن الحاصلات الرئيسية، وينمو في دار حمر لكن نكهته غير مستساغة. وتوجد القليل مِن أشجار النخيل، لكن إنتاجها قليل يظهر في فصل الأمطار، ويكون ثمار بلحه مُشَبَّع بالماء وسريع التعفن، ليس مثل جودة البلح الجاف الذي نجده في مصر. إنَّ محصول السمسم يزرع في مساحات واسعة لأنَّ الأهالي يستعملونه في دَهْنِ أجسادهم به، وهم لا يستعملون الزيت كوقود إضاءة، وإذا أرادوا إضاءَة تُكُلَهم بالليل فإنَّهم يوقدون الحطب.

أمَّا القمح فإنَّه يُزرَع في فصل الصيف في بعض المناطق بكمياتٍ قليلة، ويُروَى بالري الصناعي. والغرض مِن زراعته تغطية احتياجات الأتراك خلال الفترات القصيرة التي يخدمون فيها في البلاد، لكنها أحياناً لا تفي احتياجاتهم، بل تجدهم مثل الأهالي مضطرون لأكل خبز الدخن طوال العام. القمح غالٍ جداً، ففي سنة 1838م بلغ سعر الإردب مِن القمح مائتي قرش، بينما نجد أنَّ هذا المقدار مِن القمح في مصر يُبَاع بسعر يتراوح بين ثلاثين إلى ستين قرشاً. ينبتُ الأرز البري لوحده على بِرَك الرهد، ويقومُ بجنيه كُلٌّ مِن البقَّارة والبرقد. لكن الأرز البريّ يختلفُ عن الأرز المزروع، فحبته صغيرة ورائحته غير مستساغة. وأغلب الأرز الذي يستورد مِن مصر إلى كردفان يستهلكه الأتراك. بالنسبة للقطن فإنَّه يُنتَج بكمياتٍ قليلة، ثلثها يتم استهلاكه محلياً في صناعة القماش. والقطن المحلي ذو نوعية جيِّدة مثل قطن سنار، ويعرفه التجار الأوربيين بأنَّه مِن نوع القطن طويل التيلة. لقد كنتُ أسأل الأهالي: لماذا لا تعطون كبير اهتمام لزراعة القطن، والتي يمكنُ أنْ تُحَسِّنَ وضعكم، وهي الآن أصبحتْ ضرورية لصناعة الأقمشة، بدلاً عن شراء الملابس بأسعار غالية؟ وكانوا دائما ما يجيبونني بأنَّهم يدركون أنَّ

زراعة القطن ذات عائد مربح لهم، ولكنهم لا يريدون أنْ ينتجوا لصالح جنود الحكومة. لأنَّ جنود الحكومة يأخذون قطنهم ويتركون لهم القليل، وأحياناً لا يتركون لهم شيئاً مِن إنتاجهم. وهم في كُلِّ الأحوال سيصبحون مضطرين لشراء الملابس لاستهلاكهم الشخصي كما هو حاصل الآن. نجد أنَّ صبغة النيلة منتشرة في أنحاء عدة مِن كردفان، فهي تنمو بشكل طبيعي في جميع المراكز، ورغم أنَّ تصنيعها وجمعها قد يعطي مردودَ ربحٍ عالٍ إلَّا أنَّ الحكومة لا تهتمُّ بإنتاجها.

كُلُّ هذه الحاصلات التي ذكرتُها تُزرَع في البساتين عن طريق ريها بسحب المياه مِن الآبار، وفور انتهاء فصل الخريف يعمل الأهالي في بساتينهم التي تركوها بوراً خلال فصل الأمطار، بسبب أنَّ الزراعة خلال فصل الخريف تؤدي لنتيجتين: إمَّا أنْ تجرفَ السيول الحبوب المزروعة، أو تتعفن المزروعات قبل أنْ تنضجَ؛ وإذا ما تمَّت الزراعة في فصل الخريف فبسبب قلة الاعتناء بالأرض، فإنَّ المحصول يكون قليل الحجم. ويأخذُ منهم حرث الأرض الكثير مِن الجهد، حيثُ تَتِمُّ تسوية الكتل الترابية بواسطة عصا مُسَتَدَّقَة تغرز في الكتلة لتفتتها، بعدها يتمُّ تسوية الأرض باليد وبذر البذور داخلها ثُمَّ تغطَية التربة، وتتمُّ تعلية حواف حفرة البذرة لكي تحتفظ بالماء داخلها، ويتمُّ الري باستعمال ماء الآبار. إنَّ الزراعة بصفة رئيسية تعتمدُ على الدخن، وعينات مِن الفواكه التي يبلغ ارتفاع ساقها وأزهارها إذا ما قورنت بالدخن بين سبعة أو ثمانية أقدام. والدخن هو الغذاء الذي يعتمدُ عليه أهالي كردفان والبلدان المجاورة ولا يملكون له بديلاً، وهو متوفر بكثرة ومفيد غذائياً، ويزرعُ في جميع أنحاء كردفان. توجد مزارع واسعة للدخن في الغابات، حيثُ يقومُ المزارعون بقطع أشجار الغابة وينتظرونها عام كامل حتى تجفّ جذوعها ثُمَّ يتمّ حرقها، بعدها تتمُّ زراعة الدخن. وهذا النوع مِن الأرض لا يحتاجُ لعنايةٍ أو رقابة مثل ما تحتاج إليه زراعة الحبوب الغذائية الأخرى. نجدُ أنَّ الأهالي لم يتعرفوا بعد على المِحْرَاث أو

أي أداة لتسوية الأرض، أو أي آلة حديثة مستعملة في فلاحة البساتين. وكُلُّ ما توصلوا إليه هو آلة مثل المِنجل مصنوعة مِن قَطعة حديد مستدقة مِن الطرفين وفي منتصفها يُحشَر عودٌ، يؤدون بها كل ما يلزم العملية الزراعية. هذه الأداة تُسَمَّى الحَشَّاشة وهي متواجدة في كُلِّ منزل في كردفان. وتُكَلِّف كُلّ المعدات المستعملة للزراعة ثلاثة بارات فقط لشرائها.

بعد نزول أوَّل المطر تُنظَّف المزارعُ مِن الحشائش، وتُعمَل التجهيزات لبذر البذور. وهذا العمل يتطلب شخصين فقط، أحدهما يتقدم على الآخر مسافة قدمين ثُمَّ يحفر حفرة بالحشاشة داخل التربة الرملية، ومِن خلفه رفيقه يبذر في الحفرة قليلاً مِن البذور، ومِن ثَمَّ يقوم بدفن الحفرة بقدمه اليمنى، وهذه العملية تتمُّ بسرعةٍ فائقة. عندما تأتي الأمطار تصير الأرض مُشَبَّعة بالرطوبة الكافية، وتنضج المحاصيل المطرية بعد انتهاء فصل الأمطار مباشرةً. وتوفر المطر الغزير ينجح نمو المحاصيل، المهم أنْ تتمَّ تسويةَ المزرعة بشكل منحدر حتى تسيل المياه الفائضة خارج المزرعة، لكن في الموسم القليل المطر يفشل الموسم الزراعي ويقلّ إنتاج المحاصيل. يبني الأَهالي تكالهم بالقصب، وما يتبقى منه يُبَاع كعلف للماشية. ويتمّ دقَّ العيش وتفتيته في داخل المزرعة، ثُمَّ يتمّ نقله بالجمال أو الثيران إلى القرية حيثُ يُحفَظ في حفرة تُغطَى ببقايا البذور، ثُمَّ يتمَّ طمر الحفرة بالرمال. والمهم هو حماية المحاصيل مِن كثرة الحشرات وجشع الحكومة التي تأخذها منهم عنوةً. ويزرع الأهالي أيضاً بجانب الدخن كميات قليلة مِن الذرة، وعموماً هم لا يهتمون بها في الزراعة مثلما يهتمون بزراعة الدخن. لقد حدث في سنواتٍ مضتْ كان إنتاج الدخن فيها قليل، أنْ خرج الأهالي مِن القرى للغاباتٍ وأصبحوا يقتاتون مِن ثمار الهجليج، وهي ثمرة صفراء في حجم البلح بها لب، لكن نكهتها غير مستساغة. ورغم أنَّ كردفان مزدهرة بالأشجار النافعة التي إذا استثمرت يمكن أنْ تبعد شبح الجوع عن الأهالي، إِلّا أنَّ الحكومة لا تهتم بهم، بل تركز بشدة على ما يجلب لخزائنها عائد الربح السريع. مِن بين الأشجار النافعة:

الصمغ، التمر هندي (العرديب)، والتبلدي، والهجليج الذي قمتُ بذكره مِن قبل. وشجرة الصمغ الذي يكون اسمها العلمي (ميموسانيلوتيكا) لها عدة أسماء في كردفان. واعتقد أنَّ الصمغ الكردفاني يختلف عن هذا النوع، ومِن الخطأ تسميته بالصمغ العربي. في بعض الأنحاء في البلاد أشجار الصمغ تكون غابات ذات امتدادات واسعة، وتجد في مركز بارا أكبر مساحات مِن أشجار الصمغ. إنَّ حصاد شجرة الصمغ يحدد بكمية هطول الأمطار السنوية. فالأمطار الغزيرة تجعل شجرة الصمغ تُعطِي إنتاجاً وفيراً. ويتم استخراج سائل الصمغ مِن الشجرة عن طريق الشلخ، ويخرجُ الصمغ بشكل مادة لزجة تشبه المادة التي تَخرُج مِن أشجار الكرز في أوروبا، وعندما كنتُ أحفر في جذور الشجرة بحثاً عن حشرة الجعران، صدفة لاحظتُ أنَّ الصمغ يخرج كذلك مِن الجذور. أمَّا في سنار التي تقع على نفس درجة خط عرض كردفان، فان أشجار الصمغ التي تتواجد فيها، تنتج كميات قليلة جداً مقارنة بإنتاج أشجار الصمغ في كردفان. أمَّا حصاد الصمغ فيكون بعد أشهر قليلة مِن توقف الأمطار في الأشهر ديسمبر ويناير وفبراير. وأرباح الصمغ متزايدة للحكومة، ولذا احتكرتْ تجارته. ولكن رغماً عن القانون المصري الصارم باحتكار تجارة الصمغ، فإنَّ الدولة لا تتدخل عندما ترى كُلّ أشجار الصمغ تقطع وتُحَوّل المساحات لزراعة الدخن، في حين أنَّه خيرٌ للبلاد أنْ تظل خضراء بترك أشجار الصمغ تنمو وتصير ذخراً للمستقبل. ولكن يبدو أنَّ الدولة لا تشغل نفسها بهذه الأشياء التي تراها مِن التوافه. فهي تستحوذ على كل ما يقع في يدها دون الاعتبار للتبعات المستقبلية. فعليها أنْ تزرع الشتول الصغيرة وتقطع الأشجار ذات العائد غير المجدي، ومرد ذلك أنَّ الحكومة ليست لديها فكرة عن زراعة أشجار الصمغ، بل تترك الأمر للطبيعة لإجراء اللازم.

توجد أشجار القرض التي يستخرج مِن ثمارها مسحوق يستعمل في الدباغة. ويوجد أيضاً المسكيت أو التمر هندي بالمديرية، ولكن وجودهما

ليس بذات كثافة وجود أشجار الصمغ. فثمار العرديب تُجمَع وتُصنَع في شكل أقراص إكليل للاستعمال المنزلي، وتُقَايض ببعض السلع. ولكن الأغلبية تُستهلَك في البلاد. وتعاني شجرة العرديب كثيراً مِن حشرة الجراد المدمرة التي تقضي على الأزهار والثمار فيها. وفي هذه السنوات هناك ندرة كبيرة في ثمار العرديب في قرى كثيرة. إنَّ التبلدي هو أحد أجمل أنواع مملكة الأشجار المستوطنة في هذه البلاد. وتزهر شجرة التبلدي في بداية شهر أغسطس، وعندما تزهر هذه الأشجار العظيمة، تكاد تكون مغطاة كلياً بالزهور ذات اللون الأحمر الوردي المترادف فوق بعضه البعض، ومِن على البعد تبدو كأنَّها جبلٌ مِن الزهر، تجلبُ السعادة والبهجة للناظر إليها. لب ثمر التبلدي يبلغ في الطول ثلاثة أرباع القدم، ومِن الداخل مُقَسَّم إلى غرف، بين كُلِّ غرفة وأخرى حاجزٌ. وثمار التبلدي بها حموضة ذات نكهة لذيذة، ولكنها تتسبب في إسهال المعدة لغير المتعودين على أكلها. وهي تستعمل لتهدئة الدوسنتاريا، ولكي نحصل على هذه الفائدة العكسية للإسهال علينا أنْ نأكلَ كمية كبيرة منه. أما جذع شجرة التبلدي يبلغ محيطة أكثر مِن أربعين قدماً. وكذلك نجد خشبه قوياً مثل الأبنوس. ويقدر عمر التبلدي بآلاف السنين. نجد أيضاً شجر الدوم وشجر النخيل الذي شكله يشبه المروحة، وقشرته الخارجية تُؤكَل ويُصنَعُ منه نوع من المشروب .بجانب هذه الأشجار التي ذكرتُ هناك أنواع وأعداد لا تُحصَى مِن النباتات الجميلة التي تنبتُ بعد نزول أوَّل المطر، وتغطي جميع أنحاء المديرية، وتجعل منها حديقة زهر جميلة. فلما كنتُ شخصاً غير متمكن في علم النباتات، فمن غير المتوقع مني أنْ أصفَ كُلَّ النباتات الموجودة في البلاد، ولا سيما أن هنالك أصنافاً عديدة لم يتعرَّض لها علم النبات بالدراسة. ولكني مقتنع بأنَّ كردفان تُشكِّلُ حقلاً جيِّداً للمختصين في علم النباتات، إذا تكبدوا مشاق السفر لاكتشافها والعيش فيها لفترة طويلة مِن الزمن. وقد مكث كلا مِن دكتور رويل والمستر كورتش مدة قصيرة في البلاد وزارا مناطق قليلة، فلذا لم يتمكنا مِن جمع عينات ذات قيمة مقدرة.

أمَّا مملكة الحيوانات فهي توفرُ أنواعاً كثيرةً يمكن أنْ تكون حقلاً جيِّداً لدراستها والاستمتاع بملاحظتها. ومِن بين الحيوانات المستأنسة نجد الخيول والجمال والحمير والبغال والأبقار والخراف والماعز والكلاب والقطط والطيور والحمام والضباع البرية والأسود والزراف ونمور الباندو وليبارد، بجانب نوعين مِن الضباع والثعالب، وما يقرب مِن عشرة أنواع مِن الغزلان بعضها غير معروف في أوروبا. بجانب وجود أنواع نادرة مِن القرود، وثلاثة أنواع مِن القطط البرية والأرانب والقنفذ، والفأر الأسود والأصفر وفأر المزارع. وهناك كثير مِن الحيوانات غير المكتشفة التي يمكنُ أنْ نجدها في كردفان، والتي نشاهدها مِن حين لآخر على حدودها. ومِن النادر مشاهدة الأفيال ووحيد القرن في كردفان، ومِن المحتمل أنْ تشاهد أحدهما على حدود كردفان. والمديرية في غاية مِن الثراء بأصناف الزواحف ومِن المحتمل أنْ تجدَ بها أفعى الأصلة. تمتلئُ البلاد أيضاً بأنواع كثيرة مِن الحشرات بكل الأوصاف مثل التي توجد في بلاد السنغال. وأفضل وقت لجمع الحشرات يكون قبل شهر مِن هطول الأمطار، ويستمرُّ طوال الفصل الممطر وحتى شهر بعده. في أي وقت آخر يكون مِن الصعب معرفة أصناف الحشرات الموجودة فيها. لقد شكَّل جَمْعُ الحشرات أحد أهم مهامي أثناء رحلاتي، وكنتُ أقضي وقتَ عملي في تصنيف وتقسيم حشرات كردفان والعمل على نقل عينات منها إلى أوروبا. وعلم الحشرات سوف يستفيد كثيراً بإضافة أصناف جديدة، وسوف تمضي سنين كثيرة حتى تصل أصناف أخرى إلى أوروبا،لأنَّ القليل مِن دارسي الحشرات يمكن أنْ يقضوا (11) شهراً أحياء في هذا المناخ غير الصحي. وقد سكبتُ الكثير مِن العرق أثناء مطاردتي لهذه الحشرات، وكنتُ أبدو في غاية التعب بعد مجيئي مِن جولة البحث عن الحشرات، فالشوك في الأشجار وفي الأرض كان ينال مِن جسمي وقدمي. لقد تحدَّيْتُ كُلَّ أصناف الأجواء والمخاطر في سبيل إعداد خزانة الحشرات هذه، ولكن لسوء الحظ فإنَّ جهودي التي بذلتها في جمع هذه الأصناف مِن الحشرات، فقدتُها كلها بفضل هؤلاء البرابرة المقيمين بمحجر

صحي فيتريست Trieste الذين تركوا مقتنياتي ومعها بعض الودائع تتعرَّض للتلف. بالنسبة للفراشات فإِنَّ البلاد فقيرة جداً في أصنافها، لكن بالمقابل يوجد أكثر مِن مائة صنف مِن الذباب. ويوجد الكثير مِن الطيور ذوات الريش، ذوات العرف الجميل بالمديرية، وتوجد أنواع مِن الطيور التي توجد في ألمانيا وأوروبا، مثل طائر الماء الرمادي المتواجد بكميات كبيرة. وتمتلئ صحراء كردفان بكل هذه الطيور الجميلة التي تُمَتِّعُ الأعين والآذان بألوانها الزاهية وتغريدها البديع، ولا يمكنُ تصوَّرُ جمال هذا المنظر إِلَّا بمشاهدته بالأعين. حيثُ ترى أصناف الطيور المختلفة تأتي كُلّ شهر، وتهاجر ثُمَّ تأتي أنواعٌ أخرى حتى يأتي موسم عودة الأولى وهكذا. وتوجدً بالبلاد أنواع مِن الصقور والنسور والببغاوات وطائر الكوكبوز، وأنواع مختلفة مِن الطيور المائية والنعام وطائر اللقلق الأسود الذي يعتبر طائراً مُقَدَّسَاً عند قدماء المصريين، والذي يوجد منه نوعين في كردفان، وهو أحد الطيور الأساسية في المنطقة. إنَّ الطيور المائية قد وفَّرَتْ لي جهداً عظيماً عندما كنتُ أقوم بجمع القواقع مِن المستنقعات، فإذا صدف أنْ لمحتُ أحدَ هذه الطيور بالقرب مِن بركة ماء، ما عليَّ إِلَّا أنْ أتراجعَ مسافة أربعين ذراعاً منها وأقومُ بمراقبتها، فهي تقوم بالغطس مرة في الماء وتخرج بمحارة تحملها في منقارها، مثلما يفعل طائر النقَّار. وقد وجدتُ أنَّه غالباً ما يجمع (12) نوعاً مِن المحار الصغير والكبير في مكان واحد، ولأنَّ المحار ينغلق على نفسه ولا يفتح بسهولة إِلَّا باستعمال مِدْيَة لفتحه، فإِنَّ الطائر يقوم ببساطة بتعريض المحارة لأشعة الشمس حتى تنفذ داخلها، أثنائها يقوم الطائر بمراقبة المحار، فإذا فتحت إحداها فإِنَّه يدخل منقاره لإخراج الرخوية داخلها، ويمنعها مِن غلق محارتها مرةَ أخرى. وعندما كنتُ أراقب الطائر، فإِنَّني لا أقوم بإزعاجه نهائياً أثناء تأديته لعمله، فهو يوفرُ لي جهدَ تكسير المحار وتنظيفها في آن واحد. إنَّ كردفان منطقة لا توجد فيها أَنْهُر جارية، لكن توجد الفولة وبحيرات صغيرة تجفُّ كلها في الفصل الجاف. وتوجد بالمديرية أنواعٌ مختلفة مِن الأسماك، وفِي بداية رؤيتي للأسماك لم أفهم المصدر الذي تأتي مِنه لأنَّ البحيرات تجفُّ

لفترات طويلة، قبل أنْ تمتلئ بالماء في فصل الخريف. لكن الأهالي أخبروني أنَّ السمك يخفي نفسه فِي الطين ثُمَّ يخرج مرة ثانية بعد 3–6 أشهر عندما تصير الأرض رطبة، ويعود موسم الأمطار مرةً أخرى، لكنني لم أقتنع بهذه الرواية المحلِّيّة، فيمكن أنْ تعبر عربة محملة وتحطم بيض السمك، أو يمكنه أنْ يموت بفعل تعرضه لأشعة الشمس الحارقة. وقد قمتُ باستقصاء لهذه الظاهرة الغريبة حتى صدفَ أنَّه في أحد الأيَّام اصطدتُ أوزة برية، وعندما قمتُ باستخراج معدتها لإعدادها لوجبة الغداء، قمتُ بفحص مكوِّنات أحشائها، ووجدتُ بداخلها كمية كبيرة مِن بيض السمك، وقد اقتنعتُ أنَّ الاحتمال الأرجح لتفسير هذه الظاهرة، هو أنَّ هذه الطيور تبتلع كميات مِن بيض السمك مِن النيل الأبيض، وعندما تعود إلِى كردفان فإنَّها تفرغُ هذا البيض مع فضلاتها غير المهضومة، عندها فإِنَّ البيض السليم في الماء يفقس ويخرج الأسماك.

إنَّ الخيول ليستْ مِن السلالات الممتازة، أو ذات دماء عربية خالصة، ولكنها مُهَجَّنة مِن خيول دنقلا وبربر ودارفور. فهي ليست متينة مثل الخيول ذات الأصول العربية، ولكنها رغماً عن ذلك تتميَّز بسرعة العدو وشجاعتها الفائقة. والأهالي، خاصة البقَّارة يحبون تربية مهور الخيول الصغيرة، ويغذونها على اللبن حتى عمر أربعة سنوات، ثُمَّ تعتمدُ على نفسها وتتغذي بالحشائش المخلوطة بالدخن كبديل لتغذيتها بقمح الشوفان، لأنَّهم يعتقدون أنَّ ذلك يجعلها أكثر قوةً وقدرةً على تحمل المشاق العظيمة. إنَّ الشيوخ هم الأكثر ارتباطاً بالخيل، ومِن النادر أنْ تجدَهم لا يعتنون طوال اليوم بها. والحصان يُقَدِّمُ لهم خدمات كبيرة، فهو يحملهم في الحروب ضد جيرانهم، وعندما يخرجوا لاصطياد الرقيق، كما أنَّ سرعة عدوه الكبيرة تجعله قادراً على اصطياد الزراف والنعام. ولا توجد في البلاد أعداد خيل كبيرة تحت خدمة الوالي التركي مثل ما يوجد في باقي المديريات. إنَّ أقيم هدية منحتْها الطبيعةُ للبلاد ذات المناخ الحار في أفريقيا، هي بلا شك حيوان

الجَمَل. فقيمة هذه الحيوانات للبلاد لا تُقَدَّر بثمن. إنَّ فائدتها الأولى هي أنَّها قادرة على حمل منقولات ثقيلة لا يستطيع حملها أو جرَّها سوي الفيل. إنَّ تغذية الجمل مسؤولية صاحبه، لكن تغذيته قليلة التكلفة، فهو يعتمدُ في تغذيته على نباتات الصحراء ذوات الأشواك القليلة الأوراق. وهو يستطيع أنْ يتحمَّلَ أربعة أيَّام بلا غذاء، وثمانية أيَّام بلا شرب، ولا يفقد جزء مِن قوته. وهو أثناء سيره مِن النادر أنْ يسقط. وإذا أُريد نقل البضائع الحساسة، فمن الأفضل نقلها عبر الجِمَال أكثر مِن أيّ دابةٍ أخرى وأفضل مِن عربات النقل. والجَمَل عندما يُرادَ وضع الحِمْل عليه، أو إنزاله منه فإنَّه ينحني إلى الأسفل ويخبُّ على ركبتيه؛ ليتمَكَّنَ الإنسان مِن امتطائه، فإذا كان الحِمْل ثقيلاً على الجمل، فإنَّه يصدر صوتاً يُعرَف منه أنَّ الحمل ثقيل. والجمل لا يحتاج لسوط عند قيادته، فهو يبدأ سيره بخطى بطيئة تزيد سرعته أثناء السير ولا يخففها ثانيةً. والجمل المُحَمَّل يسير مسافة ثمانية أميال في ساعتين، ولا فرق عنده أكان ذلك في برودة الصباح أو عند المساء. وإذا بدأ راكبه يغني له، فإنَّه يصير أكثر حيوية وتزيد سرعته بنسبة الثلث مِن سرعته الأولى. والجِمَال لها أجهزة نظر وشم حادة، فهي قادرة على شَمِّ رائحة الماء على مسافة نصف يوم أو أكثر، وعندما تشتم الماء فإنَّها تُعَبِّرُ بشكلٍ معروف برفع شفتها العليا كعلامة فرح، يعرف منها راكبها أنَّ الماءَ قريبٌ منه. بالليل تلعبُ الجِمَال دور كلب الحراسة، فإذا حدثَ أنَّ إنساناً أو حيواناً أليفاً أو متوحشاً أصدر صوتاً على مسافة بعيدةَ جداً، فإنَّها في الحال تسمعه وتنصب أذنيها لأعلى، وتمدُّ عنقها باتجاه مكان الخطر للفت أصحابها لما سوف يحدثُ. لا تقل الهِجَن ذات القوام الرشيق أهمِيَّة عن الجِمَال، رغم أنَّها تستخدم فقط للركوب عليها. لقد كان في السابق يُعتبَرَ أنَّ الهجن حيوان مختلف عن الجَمَل لأنَّ له سنامين، لكن هذا مجرد هراء، فالهِجَن نوعٌ مِن الجَمَل، وسببُ اختلاف تسميته في الشرق أَنَّ الجَمَل المقسوم لسنامين على ظهره يُستخدَم للركوب وليس للحَمْل. وهم يختارون الهِجَن بين الجمال اليافعة خفيفة الوزن ذوات الأقدام الرفيعة، ولا يضعون عليها أي حِمْلٍ منذ صغرها سوي السرج، ويدربونها على العدو

بسرعة. ورغم سرعة الهِجَن، إلَّا أنَّ الحصان الذي يعدو بسرعة يمكنه أنْ يلحقَ بالهِجَن ويسبقه. وعلى راكب الهِجَن أنْ يضعَ على وجهه منديلاً ليَقِي نفسَهُ تأثير ضغط الهواء على تنفسه. وإذا رأى راكبُ الهجن المنطلق بسرعة دائرة سوداء في الأفق تكبر بسرعة على مسافة بعيدة داخل الصحراء؛ فإنَّه يتأكد أنَّه على بعد دقائق قليلة مِن الوصول إليها. ولكي أعطي فكرةً جيِّدة عن سرعة عَدْوِ الهِجَن أقولُ للرحالةِ أنَّه إذا صادفت راكب هجن وحيَّاك بالسلام، فإنَّك قبل أنْ تردَّ عليه السلام يكون هو وهِجَنه قد اختفيا في الأفق. لذا فركوب الهجن يتطلَّبُ مقدرةً وجلداً كبيرين. وأغلب الرسائل المرسلة مِن المديريات الجنوبية إلى القاهرة يحملها راكبي الهجن، الذين يقطعون مسافة (27) درجة عرض في عشرين يوماً. لكن مثل هذه الرحلات الطويلة تحتاجُ لمحطات إبدال تصل إلى 3 – 4 محطات يتمُّ فيها إبدال الهجن والراكب في كُلِّ محطة لنقلِ البريد. وراكب الهِجَن دائماً ما يكون خفيف المتاع، فبجانب الرسائل يحملُ معه سلاحاً مُكوَّن مِن سيف ومسدسين، وفي بعض الأحيان بندقية طويلة. ولغذائه يحملُ معه كيسين خفيفين للعلف، وقربة ماء صغيرة تُعَلَّقُ على السرج، ويخرجُ في رحلةٍ تتطلَّبُ الكثيرَ مِن الجَلَد والتحمل بأقل الإمكانيات المتوفرة. ولحم الهجن مِن عمر سنتين إلى أربعة سنوات مرغوب جِدَّاً عند الأهالي، ولا سيما القبائل البدوية التي تعتبره مِن مُكَوِّنات طعامها الرئيسي، كما أنَّهم يحبون شرب لبنها. وأغلب الهِجَن يتمُّ ذبحها في الأُبَيِّض، وسعر لحومها مثل سعر لحم البقر الذي يفضله بعض الأهالي.

الحميرُ المحليّة مِن سلالات وضيعة، ويتم استيراد نوعية الحمير الجَيِّدة مِن مصر بواسطة الجلَّابة. وتتواجدُ في الإقليم الأبقار ذات القرون بأعدادٍ كبيرة. ونجد في عُدَّة قرى عدداً منها يرعي في السهول المجاورة لقراها. وعند البقَّارة يمكنُ أنْ تجد آلافاً مِن رؤوس الأبقار ترعى في الخلاء، لكنها تُعاني كثيراً مِن الجوع في فصل الجفاف، عندما تُحرَق الأرض ويتحوَّل كُلُّ شيءٍ إلى رماد. فلا تكون سمينة ممتلئة باللحم، مثلما تكون خلال فصل الأمطار.

وتتعاركُ الثيران بقرونها على أكل الحشائش في فصل الجفاف، أمَّا في فصل الخريف فنجد آلافَ القطعان مطلوقةً ترعي في المروج بدون أنْ تتزاحم ما بينها. إنَّ الأبقار القصيرة الحجم تكون مِن سلالةِ أبقارٍ غير جَيِّدة، وتُعطِي القليل مِن اللبن غير الجيِّد، بجانب أنَّ لحومها قليلة وغير جيِّدة أيضاً. ولا يأكل الأتراك المقيمون في كردفان لحوم الأبقار الصغيرة الحجم نهائياً. عند البقَّارة يمكنُ أنْ تجدَ الأبقار ذات القرون القصيرة والتي لها سنام صغير، لكن ثلاثة أرباع وزنها يكون مِن الشحم، ولهذه الأبقار قطعة مِن الجلد مسطحة ومتدلية مِن رقبتها وصدرها حتى ركبتيها الأماميتين. ويستخدمُ البقَّارة الثيران للركوب والحَمْل عليها عند ترحالهم، وهم يثقبون أنفها ويدخلون حبل الزمام فيه لقيادتها. لكن الثور الذي يتمُّ إعداده للركوب عليه، يجب أنْ يُرَبَّى على ذلك منذ ولادته، ويقومُ الأطفالُ عادةً بمهمة ترويضه وقيادته، وهي عملية تحتاجُ لصبرٍ وزمن طويل؛ حتى يتمكَّن الصبي الصغير مِن البقَّارة مِن الجلوس فوقَ ظهر العجل بشكلٍ مستوي، ولا يتمُّ ذلك قبل أنْ يسقطَ الصبي مِن ظهر العجل الصغير في الكثير مِن المرات. وعادةُ استعمالِ الثيران للحَمْلِ والركوب عليها منتشرة في أنحاء أفريقيا، وخاصةً في المناطق التي توجد فيها ذبابة اليوهارا التي تقضي على الجِمال؛ لذا فإنَّهم يستعملون الثيران بدلاً منها.

في البلاد أنواعٌ مختلفة مِن الخراف، لكن هناك نوع مُعَيَّن يفضله الأهالي ويقوموا بتربيته. والأهالي لا يربوا الخرافَ لصوفها بسبب أَنَّ نوعيتها تنتج شعراً قصيراً، لكن مذاق لحم الخراف عندهم لذيذ أكثر مِن لحم البقر أو الماعز. يُوجَد الماعز بكثرة في البلاد، ويعتبرُ مِن الحيوانات المحلية الرئيسية. وتوجد مِنه أنواعٌ مختلفة، بعضها ذات أشكال جميلة، ولكن أغلب الماعز مِن النوع صغير الحجم. وبسبب أنَّ الماعز يتناول نبات العشر السام، فإنَّ الأتراك لا يتناولون لبنه نهائياً خلال فصل الخريف لاعتقادهم أنَّه يجلبُ مرض الحمى بسبب أنَّها تتناول نبات العشر السام، وسبب ذلك خُرافة

قديمة تُحْكَى عن شخص تناول فنجان قهوة مع العشر فتسمم ومات. إنَّ نبات العشر يُوجَد في مصر العليا كشجيرات صغيرة، أمَّا في كردفان فإنَّ طوله يمكنُ أنْ يصلَ لطول شجرةٍ كاملة، ويولي أهالي كردفان نبات العشر أهمية كبيرة ويستعملونه العديد من الاستعمالات. وهم يُحَوِّلُون عصارة العشر اللبنية البيضاء إلى مادة مُخَدِّرة يخلطونها مع المريسة، وكنتُ كثيراً ما أحذرهم مِن خلطها مع المريسة، لكنهم كانوا يقولون إنَّ آبائهم أيضاً كانوا يفعلون ذلك. ولا تلمسُ الجِمال نبات العشر نهائياً.

توجدُ الكلابُ بأعدادٍ وفيرة تجري في الطرقات بلا أصحاب، مثل ما هو حادث في جميع البلاد الإسلامية. وتعتَبرُ الكلاب مِن الحيوانات المحليّة الأليفة، يغلبُ عليها اللون الأصفر، وشكلها إلى حدٍّ ما أجمل مِن شكل كلاب مصر. لكنها مثلهم تتغذي على الفضلات وجيف الحيوانات ولا يستفيد الأهالي مِنها، ويمكنُ مثلاً بقليلِ مِن الجهد تدريبها على رياضة الصيد. بالنسبة للقطط فإنَّه توجد منها أعداد قليلة، هذا السبب جعل الفئران والجرابيع تصبح مثل الحيوانات الأليفة، وتجري بين أرجل الناس في وضح النهار. وإذا رميتَ أيّ شيءٍ للفأرِ فإنَّه يتناوله بسرعةٍ، ويذهبُ ليبحثَ عن المزيد مِن الطعام. والأهالي في كردفان لا يعرفون خطر آفة الفئران ولا يقومون بإبادته، ولكنهم في المزارع ينصبون الشراك لفئران الحقول التي تضر بساتينهم. ويأكل الزنوج وبعض الدناقلة هذا النوع مِن الفئران، وقد شاهدتُ بنفسي زنجي يأكلُه بعد أنْ قام بشوائه على النار ونَزْع جلده. وهناك نوع مِن الفئران لا يبعثُ على الاشمئزاز الذي تسببه الفئران عموماً، فلونه كريمي ووسط بطنه أبيض مثل الثلج، وتُغَطِّي أرجلَه البياض، وفروه ناعم مثل الحرير، ويمكنُ لَمَنْ يُشاهده أنْ يعدَّه مِن أجمل الحيوانات التي رآها مِن قبل.

إنَّ طيور هذه المديرية أكبر حجماً مِن طيور مصر، خاصةً الطاؤوس المحلي ذو العرف الجميل الذي يشبه ذلك الموجود في أرض النوبة في الشمال.

أيضاً الحمام أكبر حجماً مِن الحمام في مصر، ولقد قمتُ بعد تسعة أنواع مختلفة مِن حمائم الغابة أصغر حجماً مِن الشحرور، ولكن طول ذيله يساوي جسم الطائر نفسه. إنَّ الغوريلا من أجمل حيوانات أفريقيا، فهي تُوجَد في بعض الأحيان في كردفان. ونجدُ أَنَّ كُلَّ أصناف القَرَدَة التي تُصَدَّر عن طريق مصر إلى أوروبا وأمريكا يتمُّ اصطيادها في سهول كردفان، لأَنَّه خلال فصل الأمطار تهاجرُ هذه الحيوانات مِن المديرية إلى جهات في مسافات بعيدة. ويعتقدُ الأهالي أَنَّ هذه الحيوانات تذهبُ حيثُ تكون الأمطار خفيفة مثل الحيوانات البرية في المناطق الحارة، وبين جميع هذه الحيوانات لا يُوجَد حيوان أكثر تأثراً بالمناخ مثل الزراف. فعند اصطياده يحتاج لعناية فائقة واهتمام حتى يحافظ على حياته في مصر. في فصل الشتاء فإنَّه يجبُ تدفئته ضد البرد، أيضاً فإنَّ غذاء الزراف يحتاجُ لاهتمام دقيق بنوعيته. والزراف يموتُ بسرعة عند حدوث أقلّ إهمال في العناية به. في بداية فصل الصيف يغادرُ الزراف كردفان للبلدان المجاورة، ولا يتواجد الزراف في قطيع مثلما تتواجد الغزلان. وهو عادة ما يسير منفرداً أو في شكل زوجين اثنين. ويصطاد الفرسان راكبو الخيل الزراف، لكنهم لا يقبضون عليه حي إلَّا في حالة صغر سنه. فالزراف كبير الحجم يتعسَّر حمله فوق ظهر الحصان، ويمكنه أنْ يقاومه ويطرحه أرضاً. لذا يتمُّ اصطياد كبار الزراف وقتلها للاستفادة مِن جلدها الذي يعد سلعة تجارية هامة، ولحمه أيضاً يمكنُ أكله وطعمه مستساغ. ولكي يسمحُ باصطياد الزراف لابدَّ مِن الحصول على موافقة مِن وزير الداخلية، بعدها يتمُّ الاتصال بالشيخ عبد الهادي في الحرازة والذي يعطي الأوامر لرجاله للاستعداد للخروج لصيد الزراف. ولا يتطَلَّبُ صيد الزراف فقط فارساً ماهراً، بل فرساً ماهر ومدرباً أيضاً، بجانب جَمَل أو اثنين لحمل العلف والماء لأَيَّام الرحلة في الصحراء التي يتواجد فيها الزراف مِن حين لآخر. عندما يبدأُ الصيد يتمَّ تقييد الجِمَال في مكان معلوم، ويبدأ الرجال باستطلاع المنطقة بحثا عن آثار للزراف، وهم يستطيعون قراءة الأثر حتى تحديد اليوم الذي كان فيه الزراف في المنطقة، وعندما يجدوا أثر

لصغار الزراف فإنَّهم يستمرون في تتبع الأثر متيقنين أَنَّهم سيصلون إليها في ساعات قلائل. عندما يظهر الزراف في الأفق تبدأ فوراً عملية المطاردة، لأَنَّ الزراف حيوان ينفر ويفرُّ بسرعةٍ كبيرة، عندها فإِنَّ أي نتيجة تعتمد على براعة الفارس وفرسه، واللذان يطاردان الزراف في طرقها الملتوية التي تجري بها لأجل أنْ ينجو بحياته، وعلى الصياد أنْ يقبضَ عليها أثناء هذه الانعطافات في غفلةٍ منها. عندما يقتربُ الصيَّاد مِن الزرافة المطاردة، يحاولُ رَمْي حبلٍ ليلتَفَّ حول عنقها، وغالباً ما يفشلُ في المرات الأولى، وعليه أنْ يأخذَ الحبلَ المربوط على سرج الفرس ويحاول مرةً أخرى حتى يَعْلَق الحبل، بعدها يقومُ بجذب الزرافة بقربِ الفرس لكي يتمكَّن مِن السيطرة عليها، وعندما تستسلم الزرافة وتتوقف، تكون عملية الصيد قد تمَّتْ. ويجبْ على مواصفات حصان صيد الزراف أنْ يكون قوياً، غير جامح، مستعداً لتحمل مناورات الزراف المتعرجة. بعدها يتمُّ أخذ الزرافة علىً الحصان، ومُحَاولة الوصول لأقرب قرية ممكنة بأقصى سرعة، حيثُ يتمُّ تجهيز ناقة مُرضِعة لإطعام الزرافة الصغيرة، والتي بعد فطامها مِن لبن الإبل تتغذي لوحدها على الأعشاب. ويجبُ مراقبة عملية تغذية الزرافة بحرص شديد. وبعد أنْ ترتاح الزرافة وتهدأ، تنقل مباشرة إلى دنقلا في عملية نقلٍ يجب أنْ تتمَّ بحرص شديد أيضاً، ويتمُّ ذلك بربط الزرافة بحبال جانبية مِن أربعة اتجاهات، بحيثُ تتمكَّنُ مِن المشي في خط مستقيم، يراقبها اثنين مِن الأمام، واثنين مِن الخلف. ويجبُ اصطحاب الناقة المرضعة؛ لتستمرَّ في تغذية الزرافة الصغيرة حتى تصل إلى دنقلا. وعند وصولها إلى هناك، فإنَّها تكونُ في حالة جَيِّدة تسمحُ بأنْ يتمّ إطعامها العشب أو لبن البقر. ومِن المدهش معرفة المشقة التي يتكبدها هؤلاء الأعراب للحفاظ على الزرافة حَيَّة، لكنهم مقابل ذلك يقبضون مبلغاً كبيراً عند بيعها في الإسكندرية أو مصر، ويصل سعر الزرافة الحية هناك إلى 500–600 دولَار.

لا توجد بالمديرية مجموعة كبيرة مِن نمر الليبرد، والذي يتواجد فيها

مِنه هو الذي يضلُّ طريقه من داخل أفريقيا ويظهر بشكل نادر في نواحي كردفان. لكنه أحياناً يدخلُ بسرعةٍ كبيرة إلى إحدى القرى ولا يتعرَّضُ للناس، لكنه يخطفُ فريسةً مِن بينِ قطعان الماشية المتواجدة في حظائر القرية، ويهربُ بعدها على الفور إلى مخبأهِ. ونمر الليبرد شجاع مثله مثل أي نمر آخر فِي العالم. وعند صيده لا يتم استخدام السلاح الناري، لأنَّ جلده غالِي الثمنَ، ولا يتم الاستفادة مِن باقي جسده. وهو حيوان نادر وتسمع عنه إذا مَا تمَّ اصطياده في أي مركز مِن مراكز إقليم كردفان. أمَّا الضِّبَاع المعروف منها هو ثلاث أنواع: نوع مُخَطَّط مثل السائد في مصر وسوريا. النوع الثاني الضِّبَاع ذات الجلد النمريّ وهي الأكثر انتشاراً في الإقليم، الثالث موجود لكنني لم أتمكن مِن مشاهدته ووصفه بنفسي. والضِّبَاع تسيرُ في شكل قطيع، يتكوَّن القطيع مِن عشرة إلى عشرين منها يختبئون بالنهار في الَكهوف بالجبالِ المجاورة والوديان الضيقة الكثيفة الأشجار، ولا يظهرونَ إلَّا عند الليل، بشكل مُتَفَرِّق بحثاً عن فريسةٍ أو جثث الآدميين التي يعثرون عليها في الصحراء ملقية عن طريق حاسة الشم لديهم. وهم يقومون بنبش القبور واستخراج الجيف لأكلها، وهو نوع الأكل المفضل لديها. أحياناً تقوم الضِّبَاع أيضاً بالإغارة على حظائر الشوك لتصطاد خروفاً صغيراً، وهم يقومون بحفر حفرة تحت السياج ليدخلوا بها إلى الحظيرة. والضِّبَاعُ لا تهاجم الإنسان، ولم تسجل حادثة واحدة هاجم فيها ضبعٌ إنساناً، لكن ذلك غير مستبعد الحدوث فِي حالة أَنَّ الضبع كان غاضباً أو مجروحاً في جسده. والخطأ ما هو شائع في أوروبا وكتب التاريخ الطبيعي، عن أَنَّ الضِّبَاع هي أشرس حيوان يمشي على أربع. فإنَّنِي بشكل شخصي وبشهادة العديد مِن الأوربيين، رأيتُ الضِّبَاع مسالمةً تنتقل وسط الأهالي بدون أنْ يأبهوا لوجودها بينهم، لأنَّه حيوانٌ جبان يتراجع ويختبئ مِن مهاجمه مِن أوَّل ضربةٍ تُوَجَّه له. ويدلُّ تفضيله لنبش القبور وأكل الجيف على سلوكه الجبان هذا. والكلابُ تسلكُ نفس مسلك الضباع وتنبش القبور، وتأكل الجثث. وفي هنغاريا وبولندا وروسيا، نجدُ أنَّه خبر متكرر هجوم الذئاب

على الناس، لكن ضباع أفريقيا لا تفعلُ ما تفعله ذئاب أوروبا. والضبعُ أكثر أُلفة حتى مِن الثعلب، لقد رأيتُ بنفسي ضبعاً يجري في منزل وسط الأطفال بِكُلِّ أُلفة، وقام الأطفال بتسريح شعره وأخذ اللحم الذي يأكله مِن فَكِّه، وكانوا يدخلون أيديهم داخل حلقومه دون أنْ يؤذيهم. وعندما تناولتُ طعامي معهم في الهواء العليل كما هو عادتنا في فصل الصيف، قمتُ برمي قطعة مِن اللحم باتجاه الضَّبْع وأخذها مِن الأرض مثله مثل الكلب، ولم يكن خائفاً مِنَّا. وقد عَرَض عليَّ أَحدُهم شراء ضَبْعَة وجروها، وقد كان التاجر يحملُ الجرو في يده، وكان الضَّبْعُ الصغيرُ مُتَعَلِّقاً بها مثل الطفل، ورغم أَنَّ الضبعة الأم مربوطة بحبل مِن أنفها، إلَّا أنَّها سارتْ مع سيِّدها مسافة (12) ميلاً دون أنْ تُبْدِي أيَّ مقاومةٍ. والأفريقيون يعرفون أَنَّ الضِّبَاع ليست مِن الحيوانات المفترسة، لذلك لا يخافون منها.

يرى الأهالي أَنَّ الأسد وباقي الحيوانات المفترسة لا تهاجم الإنسان إلَّا إذا كانت جريحة، أو تتضوَّر مِن الجوع. وطالما أَنَّ هناك خراف وماعز في كُلِّ الأنحاء، وتوجد غزلان وزراف وحيوانات أخرى في الصحراء، فلا خوف مِن الحيوانات المفترسة لأنَّها لا يمكن أنْ تُعَاني للحصول على طعامها. يشذُّ عن هذه القاعدة وحيد القرن، فرغم أنَّه حيوان كسول إلَّا أنَّه لا إنسان ولا حيوان ينجو مِن ضرره، فإذا أُزعج أو ثارت أعصابه فَإنَّه يهاجم الإنسان والحيوان على السواء، ولا يهتمُّ لنوعية مهاجمه حتى لو كان فيل أو أسد. وهو يقوم بضرب خصمه بقرنه المثبت في منطقة عظم الأنف، والذي يكون شكله منحني لأعلى. وإذا صدف أنْ كانتْ الضربة الأولى قوية، فإنَّها يمكنُ أنْ تقتلَ الحيوان فوراً حتى لو كان فيلاً أو أسداً. والضربة الأولى سبب قوتها هو اندفاعه القوي مِن الخلف، لكنه إذا أخطأ فإِنَّ ذلك يعني هلاكه الخاص. ويُقَال إنَّه نادراً ما يتواجد وحيد القرن في أنحاء كردفان، لأَنَّه يتواجد في الغالب قرب الأنهار والبحيرات، وتُصنَع مقابض السيوف التركية مِن قرنه، وكلما كان لون قرنه يميل للفاتح كان سعره أعلى، والقرن الأسود غير

مرغوب، ولا يستعمل في مقابض السيوف. ولا يمكنُ معرفة نوعيه قرن وحيد القرن مِن مظهره الخارجي، لأنَّه يبدو دائماً باللون الأسود. والنوع المعروض للبيع مِن قرونه أغلبه مستورد مِن دارفور والمديريات التي تقع بجانب الأنهار مثل النيل الأبيض، والتي سوف أتحدَّثُ عنها بإسهابٍ في الفصل القادم.

نجدُ أنَّ أعداد الأسود في المديرية محدودة، لكن يُذكَر مِن حين لآخر اعتداؤها على القرى بحثاً عن فرائس لالتهامها، وغزو الحظائر لأخذ رأس مِن القطيع قبل أنْ ينتبه لهم أهالي القرية، والأسود لا تتجوَّل على شكل قطيع، وهي غالباً ما تكون مستلقية في مخبأ كثيف، وملك الغابة عندما ينهضُ مِن مرقده فإنَّه يجوبُ بحثاً عن فريسة لالتهامها. ويُسمَعُ زئير الأسد مِن مسافاتٍ بعيدة جداً، ويكون في البداية عبارة عن دوي خافت، ثُمَّ يستمرُّ في الارتفاع حتى يصبح صوته مُرعِب مثل دوي الرعد، ويمكنُ عندها سماعه مِن على بعد ميلين. وتخافُ كُلُّ حيوانات مملكته صوته، وتظهرُ خوفاً كبيراً عندما تعرف أنَّه يجوب بحثاً عنها. وترتجفُ الخراف كأنَّها مصابة بحمى البرد، وتضم رؤوسها على بعض كنوع مِن السعي لإخفاء نفسها منه، والخيولُ تتَصَبَّبُ عرقاً مِن الخوف، والكلاب تنطلقُ جاريةً بأقصى سرعة ممكنة باحثةً عن مخبأ. باختصار فإنَّ الرعب يعمُّ كامل مملكة الحيوان عندما يعلن الأسد عن قدومه. وإذا صدف أنْ مرَّت قافلة قرب المنطقة التي يزأر فيها الأسد، فإنَّه من المستحيل المحافظة على الجِمَال في مكانٍ واحد، فهي تفرُّ وتقفز في كُلِّ الاتجاهات، وتشرد ملقية أحمالها مِن فَرْطِ الخوف. وقد رأيتُ بنفسي هذا المشهد، ففي رحلتي وصلتُ إلى منطقة آبار سمراية، وسمعتُ عندها صوتاً عالياً أتى مِن بعيد يشبه صوت الكرة التي تتدحرج داخل برميل فارغ، وبعد أنْ عرفتُ اتجاهه، بدأ بالتصاعد تدريجياً حتى أصبح كأنَّه دوي الرعد. وعندما أحسَّتْ الإبل بأوَّل تباشير الزئير، فإنَّها تفرَّقَتْ هاربة في كُلِّ الاتجاهات، طارحه حملها أرضاً مِن المتاع والرجال، وعند ذلك فإنَّ

مَن لم يقفز فوراً مِن سرجه إلى الأرض، فانه سيواجه خطر أنْ تضربه أَفْرُع الأشجار فوق الجَمَل الهارب، خاصةً أَنَّنا كُنَّا قرب غابة مِن السنط وخفنا أن تمزقنا سيقانها الطويلة، لكن لحسن الحظ لم يستمر هذا الاضطراب طويلاً، لأنَّ الأسد اتجه عكس مسار قافلتنا، لكنه أضاعَ علينا مجهودَ يوم كامل في البحث عن بضاعتنا التي طُرِحَتْ في الأرض، أو تمزَّقَت بفعلٍ سيقانٍ السنط، كما أنَّ أحد الجمال ضلَّ لمسافة بعيدة عن مكان قافلتنا. ورغم أنَّه توجد مِن الأسود أعداد قليلة في الإقليم، إلَّا أنَّ الأهالي كما ذكرتُ سابقاً يقومون باصطيادها، لكن الفائدة مِن ذلك ضئيلة، فلحم ملك الغابة قوي وبغيض لا يقوى أيُّ حيوانٍ على التهامه، وإذا قدمته للكلاب فإنَّها أوَّل ما تشم رائحته تقوم بالجري هاربة مِنه. ويمكنُ أنْ تُصادِفَ أحياناً النمر في أفريقيا، لكن قد تأكد لي انه لا يوجد في كردفان. وعموما فالنمر الأفريقي ليس بضخامة النمر الآسيوي. وتشاهد الغزلان بأعدادٍ كبيرة وأنواع كثيرة مختلفة في الإقليم. والغزلان مثل الإبل قادرة على تحمل العطش لمدة تصل لثمانية أيَّام، ولقد شاهدتها في منطقة تبعد أكثر من (26) ميلاً عن أقرب مكان للمياه، ويستغرقُ بعد المسافة هذا أكثر مِن يومين لقطعه.

بجانب الحيوانات التي ذكرتها هناك أعداد أخرى مِن أنواع ذوات الأربع الغير معروفة لدي الأوربيين، بسبب قِلَّة الدراسات. فكردفان لم يزرها مِن قبل إلَّا عالمين أوروبيين مِن علماء البيئة هما: دروبيل ودركونيتشي، لكنهما مكثا مدةً قصيرةً ولم يكتشفا كامل الإقليم، ويجب لإكمال الدراسة الإقامة لعدة سنوات على الأقل. لكن المشكلة أنَّ أي أوروبيّ يقيم في هذا الجو غير الصحي لفترة، يُجبَر على الهروب منه بأسرع فرصة ممكنة حفاظاً على حياته. هنالك أصناف مختلفة وكثيرة مِن أنواع الطيور التي تأتي البلاد في فصول السنة وتهاجر منها، بدءً بالزرزور الصغير حتى طائر النعام الضخم. وميزة صيد طائر النعام في الإقليم، أنَّه لا يعرف صوت السلاح الناري ولا يخاف منه، لذلك يسهل اصطياده. لكن إذا حدثَ أنْ أقام الصيَّاد عدة أيَّام

في منطقة، واستخدم كثيراً السلاح الناري لمطاردة النعام، فإنَّها تفطن لنوع صوته، وتصبح مرعوبة منه مثلها مثل النعام في المناطق الأخرى. أيضاً فإنَّ الحمام لا يعرف صوت السلاح الناري، ويمكن بطلقة واحدة على شجرة اصطياد الكثير منها، مع بقاء باقي الحمام في الشجرة دون حراك. ويجبُ أنْ الفتَ انتباه الرحالة الذين يمارسون الصيد أنّ ارتداء الزي التركي بالطربوش الأحمر يخيف الطيور ويجعلها مرعوبة، وعلى الصيَّاد أنْ يرتدي ملابس عادية مع طربوش أزرق مثل ملابس مصر العليا لكي لا يخيف الطيور، ويمكنه عندها اصطياد أعداد مضاعفة منها. إنَّ طائر السمبر يوجد في كُلِّ أكواخ القرى، وتجد على رأس أيّ كوخ شيئاً يشبه السلة المقلوبة يصلح أنْ يكون عشاً لطائر السمبر الأسود، ويكّفيه عناء بناء عش جديد. إنَّ الرحالة إذا تعرَّض بأذى لطائر السمبر الأسود سوف يجد سخطاً كبيراً مِن الأهالي، لأنَّهم يقدسونه ويعتبرونه جارهم. ورغم أنَّ الأوربيين لا يعرفون ماهية مشاعر الأهالي تجاه طائر السمبر الأسود، إِلَّا أنَّنا يمكنُ أنْ نشبهها بعلاقة بعض سكان البلدان الأوروبية بطائر السمبر الأبيض. ويتجوَّل طائر السمبر الأسود بين الأهالي بألفة كبيرة، وكأنَّه نوعٌ مِن الأوز الأليف. وعندما كنتُ أذهبُ لجمع الحشرات، كنتُ دائماً ما أقذفه بالعصا ليبتعد مني، لأنَّه أسرع مِني في التقاط الحشرات، وكُلَّمَا مددتُ يدي لالتقاط حشرة فإنَّه يقوم بسرعة بالتقاطها وأكلها. نجد أيضاً طائر أبو منجل المُقَدَّس عند قدماء المصريين، معروف كذلك لأهالي كردفان. وهو يبني أعشاشه في الأشجار قرب القرى، وقد قمتُ بإحصاء مجموعة منه كانت تحطُّ على شجرة، فوجدتُها ما بين عشرين إلى أربعين طائر. لقد شاهدتُ عدة مرات حيوانات تعيش في سلام بين الأهالي، مثل هذه الطيور التي تفقس ما بين اثنين إلى ثلاثة أفراخ في فصل الأمطار. ولا يسمح الأهالي بصيد طائر السمبر، وعندما كنتُ أحاول اصطياد بعض الطيور بالقرب مِن منزل سلطان تيمة بالأُبيِّض، منعني مِن اصطيادها في منزله وقال لي: إنَّ هذه الطيور أتت لبناء أعشاشها في شجرتي وهي تحت حمايتي. وعندما يكتمل نمو الصغار تهاجر ثم تعود مرةً أخرى

بعد بداية فصل الخريف. ولم أستطع تحديد مكان هجرتها الموسمية في فصل الصيف. وقديماً في مصر كانت تتواجد الآلاف مِن طيور السمبر في سقارة وأماكن أخرى، لكنها حالياً غير موجودة، بل يمكن أنْ تشاهد واحداً أو اثنين منها معزولين في النيل الأبيض خلال شهر أبريل، وقد يكون مِن نوع الطيور التي لم تستطع تحمل رحلة الهجرة مع المجموعة، وفضلّت الاستقرار في الطريق. إنَّ النعام معروف جداً لأنَّ لحمه يؤكل، وخاصة الصغار منه التي يكون طعمها مستساغاً جداً، ويبلغ سعر الواحدة منها خمسة قروش. أيضاً فإنَّ بيض النعام يُؤكَل، وتكفي البيضة الواحدة وجبة لأربعة أشخاص. والقشرة الخارجية لبيض النعام تستعملُ في التجارة ويتمُّ تصديرها. وريش النعام عائدة التجاري مجزي جداً، وتُعطِي النعامة الواحدة ثلاثة أرطال مِن الريش الأسود، ونصف رطل مِن الريش الأبيض الطويل. ومعظم النعام يتمُّ اصطياده في منطقة كاكة وسنار، ويتمُّ اصطياد النعام بوضع شرك مصنوع مِن الخَشب تتمُّ تخبئته في الرمال، ويُربَط مع أحد الأشجار القريبة، وتصل الشراك المنصوبة في المنطقة الواحدة إلى خمسين شركاً، فإذا أتت نعامة أو غزالة إلى منطقة الشراك، وأدخلت رجلها في إحداها، فإنَّه يقفل بسرعة وتَعْلَقُ داخله رجل الحيوان. ولا يمكن اصطياد هذه الحيوانات الحذرة السريعة سوي بتلك الطريقة، فحتى فرسان الخيل يكون مِن الصعب عليهم أنْ يجروا للحاق بطائر النعام الذي يجري بسرعة يُخَيَّل للناظر إليه أنَّه يطيرُ فوق الأرض، بينما تساعدها في ذلك أجنحتها الصغيرة التي تقوم بتحريكها بسرعة مثل المروحة.

إنَّ أهالي كردفان يحصلون على عائدات متواضعة مِن المنتجات التي يبيعونها، سواء أكانت مِن مصادر نباتية أم حيوانية، وسبب ذلك أنَّهم لا يعرفون كيف يضيفون لها تحسينات من ابتكاراتهم الخاصة. وهم خاملون وليسوا على استعداد لإضافة أي شيءٍ جديد، إلّا في حالة الضرورة القصوى. والصنَّاع بينهم قليلون مثل الحدادين والدباغين وصانعي الفخار. وما تنتجه

بلادهم مِن قُطن لا يكفي حاجتها الخاصة، لذا يتمُّ استيراد كميات كبيرة مِن القطن مِن دنقلا ومصر وأوروبا، بجانب أنَّه يوجد نقص مريع في أدوات حصاد القطن الخام. وهم لا يهتمون بتجويد الاعتناء به، لأنَّ محصولهم مِن القطن يُبَاع بواسطة الحكومة التي تُثَبِّت سعراً واحداً يكون أقل مِن الجهد المبذول في الإنتاج، مِمَّا لا يشجعهم على بذل مزيدٍ مِن الجهد؛ ولذلك يُفَضِّلُون على عمل عائده غير مجزي أنْ يقضوا طول وقتهم في العطالة والتسلية لملأ فراغهم. ومِن الممتع مراقبة النسَّاج وهو يؤدي عمله بأدوات على غايةٍ مِن البساطة تتطلب جهداً وصبراً طويلاً، والنسَّاج في هذه البلاد لا يعملُ إلَّا في فصل الجفاف، لأنَّ أكواخهم الصغيرة لا تسع النول؛ لذا يجب وضعه خارج الكوخ. والنسَّاج الأوروبي إذا أُعْطِي أدوات النساج هنا، فإنّه سيجدُ عليه مِن المستحيل احتمال هذا الجهد والصبر الكبير، بجانب أنَّه سيحتار كيف يستعمل هذه الأدوات البدائية لأداء عمله. فمعدات النول المحليَّة على غاية مِن البدائية، تتكوَّن مِن أربعة أعمدة قوية تغرز في الأرض، وتربط على عامود ملحق به حجر يجر معه، وقد يكون حجم الإِطار حسب مقاسات القطعة المطلوبة، وفي بعض الأحيان يكون طول قطعة القماش المطلوبة عشرون زراعاً. ويكون النساج واقفاً في داخل حفرة أمام مِنْسَجه، واضعاً أمامه الماكوك للعمل، وبرميةٍ واحدة منه قد تقطع لفة الخيط، مِمَّا يحتاجُ لزمنٍ كثير حتى يتمكَّنُ مِن ربطها مرةً أخرى، ويتعب النسَّاج جداً هذه العمليةً المرهقة مِن قطع وربط الخيط، لكنه يمارسه بكلِ صبر حتى يتمُّ نسج القطعة التي يريدها مِن القماش مقاس عشرين ذراعاً والتي تستهلك وقت كبير. والنسَّاجون لا يعرفون الاستفادة مِن نسج شعر الأغنام.

الحدادون هم أكثر العمال اشتغالاً في الأعمال الصناعِيّة، فهم يصنعون الأدوات المنزلِيّة والزراعِيّة، ويقومون بالتعدين على الحديد ثُمَّ صهره، لكنهم لا يعرفون كيف يزيدون متانة الحديد. وليس للحدادين ورش ثابتة للعمل فيها، ولكنهم يضعون معداتهم في أي مكان وجدوا به عملاً. إعداد كِير نفخ

فرن الصهر يكلفهم الكثير مِن الجهد، وغالباً ما يستعملون أي حجر كبير عِوَضَاً عن السندان، ومِن ثَمَّ يصنعون الفرن المزَوَّد بِقِرْبَةٍ وماسورة منفاخ، بعدها يبدأ العمل في صنع المعدات الخفيفة، مثل صنع رؤوس الرماح والحشاشات والسيوف ذات الحدين ورؤوس النبال والسكاكين ذات الأحجام المختلفة، ولا ينتجون أكثر مِن ذلك. ورغم أنَّ عمل الحدادين عائده غير مُجْزِي، إلَّا أنَّ حديد الصناعة والفحم المحروق للصهر، لا يكلفهم الكثير، بجانب أنَّ معداتهم بدائية غير مُكَلِّفَة تنحصر في مطرقتين ومقبضين، يصبح باقي العائد تعويضاً عن عملهم العضلي المبذول.

صناعة الفخار تُرَكِّزُ على عمل نوع واحد مِن الأواني يسمي البوشة وهي تشبه القلة مع عنق واسع قليل. ويتم استعمالها كوعاء لحفظ الماء وغليه، وتحمير اللحم وحفظ المريسة. أيضاً فإنَّهم يصنعون الدوكة التي تُعمَل فيها الكسرة، وأنابيب الجوالين التي تشبه الأنابيب الألمانية أكثر مِن شبهها للتركية. ويصنعون أطباق الفخار التي لا تعد بمهارة كبيرة، ولا يتم تزيينها أو زخرفتها. في مديرية كردفان يوجد الكثير مِن الصُّنَّاع دباغي الجلود. وهم يدبغون الجلود بطريقة مبسطة مستعملين في ذلك القشرة الخارجية لنبات القرض. ويصنع الدباغون أيضا قرب جلود الماء الكبيرة (المسماة الري) والصغيرة، وغالبا ما تصنع مِن جلد الماعز مثل تلك الموجودة لدي المصريين. وأنسب الجلود لديهم هي جلد الأغنام والأرانب البرية، ويتمُّ دبغ الجلد مِن الداخل ويبقى الجزء الخارجيّ بشعره. أيضاً فإنَّهم يصنعون مِن جلد الماعز إناء يُستعمَل لحفظ اللبن، بجانب الأحذية مثل الصندل، والرحط والدرقات. والرحط لباس نسائي مصنوع مِن آلاف السيور الجلدِيّة يصل طوله لأكثر مِن نصف ذراع، ويكون مُزَيَّن بأحجار العقيق الكريمة والودع الصغير الحجم، وتلبسه الفتاة بربطه في خاصرتها. وتُصنَع الدرقات غالباً مِن جلد الغزال كبير الحجم، وتكون بشكلٍ مُحَدَّب مِن الداخل مِمَّا يسمحُ للمحارب بالاحتماء ورائها، ويوضع في منتصفها عامود

خشبي طويل يربط فيه شريطين، ومهمة الدرقة احتمال ضربات السلاح الأبيض، مثل الرمح المقذوف أو ضربة السيوف، ومِن النادر أنْ تستطيع إحداهما اختراق الدرقة. والدبَّاغون بارعون في دبغ جلود الخراف وتلوينها بالألوان الحمراء والصفراء والخضراء، أو أي ألوان أخرى يختارونها. وتتمُّ دباغته باستعمال نباتات معينة، ويقوم الأهالي بربط صنادلهم المصنوعة مِن جلد الخراف وتزيينها. أيضاً فإِنَّهم يخيطون بالجلود المُلَوَّنة حجباتهم (أو التمائم) وإغماد سكاكينهم ومعداتهم الأخرى.

أَمَّا النساء فيقمن بصناعة أدوات جميلة مِن السعف، مثل الأطباق المستعملة فِي تغطية أواني الطعام، والبروش. وهُنَّ يصبغن السعف بألوان مختلفة، يزيِن بها أطراف مختلف أدواتهن. ويصنعُ مِنها النساء أيضاً الصفاية لتصفية المريسة، وسلال حفظ اللبن التي تُعَدُّ بطريقة مُحْكَمة لا تسمح بنفاذ اللبن وتسربه خارجها.

فِي النهاية يمكنُ القول إِنَّ كُلَّ الإنتاج الذي يتمُّ في هذه البلاد، يتمُّ بطريقةٍ مبسطَة تدهش مَن يراها عندما يتساءل عن الكيفية التي توصل بها الأهالي لصنعها. رغم أنَّهم يعملون في ظروف لا تساعدهم نهائياً على الابتكار.

(14)

عاصمة كردفان؛ الأبيّض

الأُبيض، أو أُلبيض كما تنطقُ، هي مدينة مكوَّنة مِن عدة قري صغيرة، وهذه القرى جميعها لا تختلفُ في مظهرها الخارجيّ وتنظيمها الداخلي عن بعضها البعض، عدا أَنْ تكون إحداها أكبر مِن الأخرى. فالمنازل جميعاً قطاطي مِن القش، ونجدُ بعض المنازل المبنية مِن الطين، لكن لا يوجد بها أي منزل مبني مِن الحجر. إنَّ المدينة القديمة قد دمرها الأتراك بالكامل عندما غزوا كردفان، واستولوا على السلطة فيها. وقامتْ مِن بعدها ست قرى كوَّنت المدينة في نفس موقعها القديم. وتُكَوِّنُ كُلُّ قريةٍ مربوع منفصل بذاته، ولا يفصل بينَ بعضها البعض مسافات كبيرة. القرى هي:

1. أولى القرى هي أولاد النخيل التي تسكنُها قبيلة الدناقلة والتجار الوافدين.
2. الأورطي: وهي معسكر الجيش التركي وتُسَمَّى كذلك مدينة الأتراك، وهي مقر الحكومة وتتكوَّن مِن ثكنتين: مَخْزَن السلاح والمستشفى، مساكن الضباط. أَمَّا الجنود المتزوجون فيسكنون خارج المعسكر ويوجد في حيهم السوق الرئيسي.
3. حي ود صفية: وهو يحوي على الأهالي السود الذين هاجروا مع الملك مسلم.
4. حي تكارير أو تكرور: ويقيم به الحجاج ومعظمهم مِن البرقو وبعض المجموعات الأخرى، وكذلك يسكن معهم السلطان أبو مدين أخ سلطان دارفور.

5. قرية الكنجارة: هم المهاجرين مِن دارفور والذين كانوا مِن أهالي المدينة القديمة، لكنهم مَكَثُوا بعد الفتح التركيّ وأقاموا قريتهم الجديدة.
6. قرية المغاربة: وهي القرية السادسة وأحدث أحياء المدينة، فلم يسكنْ المغاربةُ فِي ثكنات الجيش، بل اتخذوا لأنفسهم مساكن منفصلة.

هذه القرى مُجْتَمِعة تكوِّن مدينة الأُبَيِّض، وقد قُدِّر سكان المدينة بحوالي (12) ألف نسمة ما عدا الجيش. والمنازلُ بلغة أهل المدينة تسمي التُّكُل وتجمع التِّكَال، وهي جميعها مِن القش كما وصفتُ سابقاً. إنَّ منظر المدينة لا يبعثُ السرور فِي النفس، وكذلك يُوحِي بالرتابة والكآبَةِ. وهي ليست كالمنازل في مصر اَلتي تجلبُ السرور للنفس. وليس بالمدينة منازل فسيحة أو مئذنة جامع، مثلما يُشَاهد في كُلِّ قرية مصرية. وكذلك لا توجد أشجار نخيل حول القرى. ولا شيء رتيب على النفس مثل منظر المدينة فِي فصل الجفاف، عندها تبرز المنازل متلاصقة وتظهر وضاعتها وعيوبها وأشَجارها الهزيلة. فالأشجار المتواجدة قليلة لا تغير المنظر الكئيب للقرية في شيٍء، ولا تتيحُ لخيال الإنسان أنْ يتصوَّر أي شيٍء فيها، فالرمال الحارقة تُغَطِّي كُلّ الاتجاهات، وهي تبدو لزائر المدينة وكأنَّه ما زال في الصحراء. أَمَّا فِي فصل الخريف فمِن الصعب أنْ تقنعَ نفسك أَنَّه ذات المكان الذي كان قفراَ عارياً مِن قبل. فكُلُّ الساحات التي كانتْ رمالاً، تصبحُ مَكْسُوَّة بالخضرة الممتعة، تتخللها أجمل الأزهار، فأسوار المنازل تكسوها النباتات المتسلقة التي تضفر سيقانها على شكلِ جدائلِ مزهرة مكوِّنة أجمل منظر يمكن مشاهدته، وتُزرَع المزارع حول المنازِل، وتظهرُ مِن خلفها الكثبان الرملية عالية الارتفاع. إنَّ الشخص لا يمكن أنْ يُفَرِّق بين المنازل مِن على البعد، وتبدو المنطقة كغابةٍ كبيرة، والمدينة مِن الداخل كحديقةٍ مليئة بنباتات الذرة الشامية، لدرجة يصعب على الغريب أنْ يُعَبِّر خلالها أو يعثر على المنزل الذي يقصده. والزائر

الحديث للمدينة يزداد حصاره في الداخل نظراً للطريقة التي تُبْنَى بها المنازل، فهناك آلاف المنازل والأكواخ الصغيرة تقومُ جنباً إلى جنب، كُلٌّ منها يُشَكِّلُ منزلاً لشخص منفصل مبني على نفس الشاكلة، مِمَّا يُربك الغريب ويُسَبِّبُ له مشاكل كي يتعرف على المنزل الذي يسكنه. ولكن رغم ذلك لكُلِّ منزلٍ تفرُّده، ويعطي للناظر شكلاً مُختلفاً، فالزائر يتجوَّل ويبحثُ عن مسكنه بمتعة وسرور، عبر آلاف الأزقة المتعرِّجة المتداخلة المختلفة والجميلة.

في هذا الوقت تنزلُ الأمطار المداريّة، مِمَّا يُسَبِّبُ مشاكل لأنَّها تنزل بغزارةٍ تجعلُ التربة غير قادرة على امتصاصها، مِمَّا يخلقُ جداولَ وطمياً على سطح الأرض وتختفي ممرات المشاة في الأحياء وبين المنازل، وهو ما يعيقُ الحركة بشكلٍ كامل. ويجرفُ السيل كُلَّ ما يجده في طريقه، ولا توجد بالمدينة كباريٍ أو قطع أحجار مطروحة على الأرض ليعبر عليها المشاة، ومَن يَضطرّ بسبب أعماله للخروج بعد توقف الأمطار مباشرة، فإنَّه لا يجد بديلاً سوي الخوض عاري القدمين في المجاري، لأنَّه لا يمكنُ ركوب الحمير، فحوافرها تنغرس بسهولة وتَعْلَق في الطين. والبِرَكُ كبيرةٌ، ويبذلُ الناس جهداً كبيراً عند قطعها لكي لا يغرقَوا، أو تغرق حميرهم وحيواناتهم، وقد فُقِد أهالي لأنَّهم تنقَّلُوا ليلاً أثناء المطر مِن منزلٍ لآخر؛ لذا فالأجدى أنْ يظلَّ الزائر حبيس منزله ريثما تمتصُ الرمال السيول الجارية، وهو ما يحدثُ بشكل سريع عقب توقف الأمطار. بعد الحصاد وجفاف ما تبقي مِن المزارع، يبدأُ الأهالي في حرق باقي الزرع والحشائش الجافة. هذا يتمُّ في جو احتفاليّ في مشهدٍ فريد تُجْمَع فيه الحشائش الضارة في أكوام، بينما يتحلَّق حولها كبار السن يهنئون بعضهم البعض، ويتبادلُ الكبار والصغار تهاني بداية الموسم الزراعيّ، ثُمّ يقومون بحرق أكوام الحشائش التي يخرجُ منها دخانٌ كثيف مختلط بصوت آلاف الجراد الذي تلتهمه النيران، والذي يسقطُ مَيِّتاً ويُشوَى في النار بعد محاولة يائسة مِنه للفرار بعيداً عنها. بعدها يقومون بجمع الجراد المَشوي وبيعه في السوق بسعر 5 بارا للصحن، وعند الأهالي فإنَّ صحن

الجراد المشوي يمثل وجبة شهية لهم! وعندما تنتهي عملية الحرق وتظهر الأرض جرداء نظيفة، فإنّه تخرج بعض مخلفات عظام الحيوانات والبشر التي كانتْ مختفية تحت الحشائش. وهم لا يدفنون الرقيق عندما يموت، بل تُرْبَط جثته مِن الأرجل بحبلٍ ويتمُّ جَرّه مثل الحيوان، ويُتْرَك في الرمال أو بداخل الحشائش حتى تتحللَ جثته أو تأتي الضِّبَاع والكلاب لتأكلها؟. ومن المشاهد الاعتيادية أنْ ترى الكلاب نهاراً وهي تتعاركُ على يد أو قدم جُثَّةٍ بشرية. ويمكنُ أنْ نقولَ إنَّ الضباع والكلاب أكثر رحمة مِن الإنسان، فهي تعملُ بشكلٍ دائم على تنظيف الجيف الآدمية وبقايا الطعام، مِمَّا يُقَلِّلُ الروائح الكريهة والأمراض المصاحبة. ولديهم لا توجد أي قدسية لجثة مَن لا أهل له، بل يمكن أنْ يتمَّ رميه في أي مكان، ونجد أنَّ بقايا الجثث البشرية تبقى فترات طويلة في الطرقات.

يُوجَد بالأُبَيِّض خمسة جوامع، ويوجد واحد منها فقط مُشَيَّد بالطوب الأحمر بقرية أولاد النخيل، وهو عبارة عن مبنى ضخم خالٍ مِن الزخارف مثل تلك التي نجدها بمساجد مصر. وعموماً فإنَّ مباني المدينة متواضعة وعبارة عن أكواخ مُشَيَّدة مِن الطين، بما فيها منزل الحاكم التركي الذي يختلف عن باقي أكواخ الأهالي بأنَّه يحوي داخلة عدداً مِن الأثاث والأرائك. بالأُبَيِّض ثلاثة ثكنات عسكرية، وهي عبارة عن أكواخ متواضعة مِن القش، يصلُ عددها إلى (40) كوخاً مُسوَّرة بسورٍ به مدخل ذو باب يُقفَل بفرع شجرة ضخم. والمستشفى العسكري الذي يدخله الجنود مُشَيَّد أيضاً مِن الطين. عموماً فالمادة الوحيدة للبناء في الأُبَيِّض هي الطين المبلط مِن الخارج بروث الأبقار. منزل الحاكم مُكَوَّن مِن صالون كبير، بجانب المحكمة وحديقة منزل خارجية. تقعُ المحكمة خلف منزل الحاكم، وبها غرفة للمستمعين تسمي الضيفان. في هذه الغرفة يديرُ الحاكم شؤون البلاد، ويستقبلُ فيها زواره مِن الأهالِي ومساعديه الذين يأتون مِن وقتٍ لآخر لتجديد ولائهم للحاكم. على شمال الصالون الكبير المُسَمَّى الضيفان، هناك

صالون صغير يناقش فيه الحاكم المسائل الصغيرة التي تبدو للحاكم غير مُزعِجة. في هذه الغرفة تُحفَظ المكاتبات الرسمية التي يخطها السكرتيرون الأقباط، والمكاتبات التي ترد مِن محمد علي باشا. في فترة إقامتي في كردفان، كان محمد بيه هو الحاكم المدني والعسكري قائد الفرقة الأولى للخط. ومحمد بيه مولود ببلاد قرقزيا وأُتِي به كرقيق لمصر، وصار مملوكاً لمحمد علي باشا، ثُمَّ تمَّتْ ترقيته إلى مرتبة عالية في زمنٍ وجيز. وهو شخصٌ ذو مقدرات محدودة، لم ينل قدراً مِن التعليم، ومحكوم بتوجهات حاشيته ومتملقيه. وعلاوة على جهله فهو فخور ومُعتَدٌّ بذاته، وله مقدرة على إضفاء قدر كبير مِن الأهمية والوقار على شخصه. فهو يقضي جُلَّ وقته مع الفكي الذي جعله مِن خاصته، والذي يُصغِي لحديثه باهتمامٍ أكثر مِن الاهتمام الذي يبديه عند الحديث مع معاونيه، أيضاً فإنَّ زيارته الفكي له تجد ترحاباً أكبر ممَّا تجدها زيارات معاونيه مِن الضباط. وهو لا يعرفُ الكتابة بتاتاً ويقرأُ بصعوبةٍ شديدة، وكُلُّ ما يقوم به أنْ يضعَ ختم التصديق على ما يُوضَع أمامه ليقوم بتصديقه. فإذا وردتْ تعليماتٌ أو أوامر مِن القاهرة على سكرتيرة القبطيّ أنْ يقرأَ له نصَ الرسائل بصوتٍ عالٍ، وعندما يصل لفقرة يري أنَّها مِن الأمور السريّة، يأمرُ سكرتيره بالتوقف عن القراءة والذهاب معه لغرفته الخاصة، ثُمَّ يَبدأُ مرَّةً أخرى بإكمال قراءة التقرير ثُمَّ يُقَدَّم له فيضع ختمه عليه. باقي وقته مخصص للتدخين وشرب القهوة، وهو نادراً ما يظهر في الهواء الطلق أو يسيرُ في الطرقات، ويشرب يومياً في المعتاد ما بين 20-30 كوب مِن القهوة. وعندما يأتيه أي زائر فما أنْ يُلقِي بنظرة خاصة لخدمه؛ يعرفوا منها ما يريده منهم، فيأتوه بالحال بالغليون والقهوة التي تكون دائماً مُسَخَّنَة في الغرفة المجاورة. وزيارة الحاكم تقليد رسمي مُتَّبَع للمجاملة. والحكام الأتراك يعيرون لهذه المجاملة الرسمية أهمية قصوى، فعدم أداء الزيارة يُعتَبر عدم احترام وولاء ويُمكنُ أنْ يصبح جريمة. لذا نجد بشكل دائم زوار للحاكم، ويجلس الضيفُ بعد تبادل التحية بعد أنْ يأمره الحاكم بذلك، عندها يشربون القهوة التي تُقَدَّم لهم، ثُمَّ يطلبون الإذن بالمغادرة بعد قضاء

مُدَّة وجيزة، بعدها يودعون الحاكم تحية الانصراف ثُمَّ يذهبون.

تُحفَظ الذخيرة وباقي المعدات العسكرية في مكانٍ مُحدَّد مُحَاط بسورٍ مِن الطين، ويحيطه خندقٌ يجعله جافاً طوال العام، ويحميه مِن دخول سيل الماء إليه أثناء الأشهر الممطرة. وسور الطين ضعيف يمكن اختراقه بالأحجار، وَيُمكنُ أنْ نتخيَّلَ أنَّه خلال خروج حملات صيد الرقيق، فإنَّه لا يتبقى في كردفان إلَّا ستة آلاف جندي فقط، يمكنُ عندها إذا دخلَتْ قوةٌ معادية أَنْ تحصلَ بأقل مجهود على الذخائر والمعدات العسكرية، قبل أنْ تأتي أي نجدة مِن جبال النوبة. وتُوجَد مشنقة مقابلة لمباني الحكومة، وهي تتكوَّن مِن عمودين مغروسين في الأرض، وعمود آخر معارض. أعلاهما تُعَلَّقُ عليه الضحية المحكوم عليها بالإعدام، وتتمُّ عملية الإعدام بلا أدنى مراسم، ولكن يوجد مكان قريب مِن مكان المصير المحتوم للضحية، به سُلَّم مُدَرَّج بمصاطب يصعد عليه الشخصُ الذي يتلو على الضحية الشهادة. إنَّ عملية الشنق هذه تتمُّ في مكانٍ على مرأى جمهورٍ مِن الرجال، ولا تحضرُ هذه العملية نساءُ المدينة. وكذلك نجدُ سوقاً مجاوراً لمكان الشنق. إنَّه لشيءٌ سخيفٌ أنْ يتصوَّر الشخص أنَّ الأحكام التي تجري في هذا المكان صورة طبق الأصل لما هو مُطَبَّق في كُلِّ مُدن الشرق المختلفة.

إنَّ البضائع في السوق تُعرَض بطريقة عشوائية يختلطُ فيها الحابل بالنابل. وتكون مكشوفةً دون اعتبار لعامل الطقس والعوامل الأخرى المؤثرة عليها، رغم أَنَّ هذه البضائع غالية الثمن. يمينُ السوق يوجد المقهى الوحيد في عموم كردفان، لكن هذا المقهى أُغلِق عام 1838م بسبب أَنَّ عُمَّال المدينة يتسكعون فيه ويغلون مِن إيجار عملهم. سعر القهوة (18) قرشاً، ويصلُ السعر لربع جنية إذا ما قَلَّت القهوة القادمة مِن الحبشة. لكن في عام 1839م أثناء حكم يوسف باشا أعاد فتح المقهى لأهميته للضباط الأتراك الذين يتعاطون القهوة بكثرة. توجد الخُردَة في مخزن مفتوح محاط بثلاثة حوائط ومسقوف بالقش، وتكون البضائع مُعَرَّضة لتقلبات الطقس.

الجانب الأعلى مِن السوق مخصص للحيوانات، مثل الحمير والإبل والأبقار والضأن والماعز وما يَرِدُ مِن حيوانات أخرى. يُجاور ذلك موقع الجلَّابة الذين يعرضون على الرمال بضائعهم المجلوبة مِن القاهرة، ومِن ثَمَّ بائعي الماء، وأخيراً سوق النساء وهو غالباً ما يتكون مِن 4 أو 5 صفوف مكوَّنة لعرض النساء لبضاعتهن مِن اللبن الرائب والسمن والودك والفواكه ومُنتجات الأشجار البرية وأشياء أخرى، وعلاوةً على ذلك تتاجر النساء في علب التمباك وبيض الدجاج وأشياء أخرى. وكذلك بالسوق مكان مخصص لبيع الحطب والقش، وهي مهنة غير مُتعِبة وسَهْل جمعها؛ لذا يعمل فيها الكثير مِن الأهالي. ونُلاحظ حِدَّة التنافس بين التجار. ويعجُّ الجانب النسائي مِن السوق بالفوضى وبكثرة الباعة والزحام الشديد، وعند العبور في سوق النساء عليك أنْ تستأذن بأدب جم، وتَضمُّ جسمك على بعضه لكي لا تلامس إحداهن، ويجبُ أنْ تُطَأْطِئَ رأسك لأسفل، ويحتاج المرور في الزحام إلى كياسة ولباقة دون إحداث ضجيج مثل الذي يوجد في مصر. فَبجانب الباعة والمشترين، هناك مَن يُنَادُون على بضاعتهم بصوتٍ عالٍ لبيع الملابس القديمة والأشياء الأخرى، وينتقلون مِن مكان لآخر، وليس لديهم أماكن مُخَصَّصة للعرض، وهم يرفعون بضاعتهم عالياً ويُنَادُون المشترين. إنَّهم ليس كما في مُدن مصر يبيعون بأعلى الأسعار، بل يقومون بالدلالة حتى يتمُّ تثبيت سعر بيع معقول، لكن حذاقة الدلالين تجعلهم دائماً ما يجدون المشتري الذي يدفعُ أكثر. وعامة فَهُم يبيعون نفس البضائع الرائجة في مصر. أحياناً إذا تُوفى أوروبيّ يتم تقييم ممتلكاته وبيعها في مزاد علني مثلما يحدثُ في أوروبا. لكن الدلالون هنا يهتمون بالأشياءِ الرائجة فقط، ويتركون أي شيءٍ عداها مهملة بدون اعتبار. السوقِ في الأُبيِّض يمتلئُ عند الساعة الثالثة بعد الظهر وحتَّى مغيب الشمس، بسببِ حرارة الشمس النهاريّة التي لا تُطاق، مِمَّا يجعل الأهالي لا يخرجون قبل العصر؛ لذا فإنَّ التجار إذا ما أتوا منذ الصباح فإنَّهم يجلسون بدون عمل حتى مَجِيء العصر.

إنَّ المنتجات في الريف دائماً رخيصة الأثمان، ولكن في الأُبَيِّض وبعض عواصم البلاد أغلى سعراً. وخصوصاً عندما تكون آتية مِن مسافة تبعد عن المدينة 8 أو 12 ميلاً، مِمَّا يزيد سعرها ثلث القيمة الأصلية. إنَّ الخروف الكبير سعره ما بين 18 إلى 40 قرشاً في الأُبَيِّض، ويُبَاع في القريَة التي تبعد عن الأُبَيِّض بـ 12 ميلاً بسعر 6 قروش تقريباً، وعلى هذه الشاكلة بقية أسعار السلع، فالفرق ملحوظ بين منطقة الإنتاج في القرية، وبين المدينة المُسْتَهْلِكَة. وسعر الجمل يعادل 140 قرشاً، أي ما بين 8 إلى 16 شِلن. والأسعار غير ثابتة على مدار السنة خاصةً أسعار الرقيق. ويُعرَض الرقيق المجلوب للسوق في المزاد العلنيّ مثله مثل أي سلعة أخرى يُزايد الدلال مع المشتري على سعره، وعلى مشتري الرقيق جَسّ الرقيق بتفقد أعضائه مِن أعلى الرأس حتى أسفل قدميه وعينيه ويديه، وفحص أسنانه والسؤال عن عمره. وأية أحداث مرَّت على الرقيق في حياته، يمكن أنْ تؤثر على سعره. في هذه الأثناء يكون الرقيق تَعِس الحال يتبعُ الدلال كالكلب بقلق شديد، منتظراً قدره المجهول. عندما يكون الرقيق امرأة مُرْضِعة، فهي لَا تُفْصَل عن طفلها الرضيع، ولكن إذا كان عمر الطفل مِن ثلاثة إلى أربعة سنوات، يُفصَل عن أُمِّه ويُبَاع لوحده. وسعر الطفل الرقيق يتراوح ما بين 30 إلى 60 قرشاً، أي ما بين 8 أو 9 إلى 16 شِلْن. وأسعار الرقيق الناضج عمراً تتغيَّر حسب تقلبات السوق، ونوع الرقيق الوارد إليه. فالبنات والأولاد مِن 16 إلى 40 سنة هم الأكثر طلباً، وسعرهم يبدأ مِن 100 إلى 300 قرشاً. فإذا كان وارد الرقيق للسوق قليل، ويريد تُجَّار الرقيق الجَلَّابَة مغادرة البلاد، ترتفعُ أسعار الرقيق. هناك بعض الأسباب التي تجعل مِن الممكن إرجاع الرقيق لصاحبه بعد البيع، إذا اتضح أنَّه يعاني مِن مشاكل في التنفس، أو يشخرُ عند النوم، أو مُصاب بسلس البول. فيرد لصاحبه لعدم اللياقة، على أنْ لا يتعدى ذلك اليوم الثالث. أَمَّا عندما يكون الرقيق أنثى حامل فإرجاعها يطول. ولا يتعامل بالتقسيط أو الدفع المؤجل في تجارة الرقيق. فالجَلَّابة الذين يشترون أعداداً كبيرةً مِن الرقيق يَجِسُّون الرقيق الواحد تلو

الآخر، ويبعدون العَجَزة والمَرْضَى، وهدفهم هو الحصول على أكبر قدر من الرقيق الفتيان مِن الأولاد والبنات يمكنهم تحمل الرحلة إلى مصر بحالة جيدة. فكل من يشتري رقيقاً ينظر أولاً لعمره، وكذلك نجد أَنَّ الرقيق دون 13 أو 14 سنة يباعون في متاجر السوق في القاهرة أو الإسكندرية. فكُلّ مَن يشتري يريد أنْ ينشأ رقيقه حسب وضعه الاجتماعي، والغرض الذي مِن أجله اشتراه، لذا دائماً ما يُفَضَّل الرقيق الشباب. أمَّا العجائز مِن الرجال والنساء يُعْرَضُون في متاجر السوق للبيع، وعلى كُلّ فرٍ أنْ يُعَلِّق اسمه واسم مالكه والعيب الذي استدعى بيعه، وكذلك ما يُشَجِّع على شرائه.

إنَّ السوق هو المكان الوحيد للترفيه بالنسبة للأوروبي، أو الأجنبي عموماً في مدينة الأُبَيِّض. ومِمَّا يدخل السرور في النفس مشاهدة حركة السوق النشطة، والمجموعات المتنوعة مِن النَّاس الذين يتعاملون في السوق مِن جلَّابة وضباط أتراك وسكرتاريين أقباط، كُلُّ هذا الجمع يرتاد المقهى الوحيد في المدينة الذي قمتُ بذكره سابقاً. ويتبارى الناس فيه بسرد الأخبار وتداولها بخصوص ما يحدثُ في أفريقيا وأجزاء العالم البعيدة. ورجال الاستخبارات يقولون كُلَّ شيءٍ يسمعونه في رئاسة إدارتهم، خاصة عند قدوم فصل الأمطار وتوقف حركة المواصلات مع مصر. وفي بعض الأحيان تشمل الأخبار إشاعات وأكاذيب، ولكن رغم ذلك تجد آذناً صاغية، واستحسان مِن المستمعين. فالتقرير الاستخباراتي الذي يصلُ غالباً ما يشتملُ على حرب محمد علي باشا مع الأتراك في سوريا، وكذلك شؤون الحرب في الجزيرة العربية وهزائمه المتلاحقة. وغالباً ما تصدرُ الأوامر بالتَّحَرُّك للحامية مِن الرئاسة بالأُبَيِّض إلى مصر،عندما يصل بريد الهجَّانة مِن مصر ويكون مِن ضمنه أمر تَحَرُّك الحامية إلى مصر يفرح الضباط الأتراك الذين يعيشون حياة المعاناة مِن الغربة والحنين للوطن، في انتظار الاستراحة التي تأتي بعد هذه الصعاب المتعددة والمتزايدة. والضباط الأتراك كثيرو التحدُّث عن إنجلترا وألمانيا وروسيا وفرنسا، وهي الأقطار الأوروبية

التي يعرفها الضباط الأتراك ويهتمون بأخبارها. والغالبية العظمي مِن الأتراك يعتقدون فِي الفكرة الخاطئة أنَّ هذه الدول الأربعة تتبع للباب العالي في إسطنبول، فجُلّ حديثهم يدور حول أَنَّ هذه الأقطار الأوروبية هي فِي حالة حرب دائمة بين بعضها البعض، وترفضُ دفع الجزية المستحقة عليهم للسلطان الأعظم فِي إسطنبول.

وكثيراً ما يحدثُ في البلدان المدارية هطول المطر فجأةً بدون مُقَدِّمات، عندها فإِنَّ الحال فِي السوق يصيبها الاضطراب، ويصعبُ على الشخص الذي يوجد فِي العراء أنْ يجد مكاناً مناسباً يأوي إليه مِن المطر، وهو ما يُمَثِّل منظراً مَضحكاً لمن يراه، حيثُ تَعُمُّ الربكةُ والجلبة وسط المدينة. فالكتل البشرية المتراصة كسربِ جرادٍ، والتي يفاجئها المطر تنتشر في كُلِّ الاتجاهات، والنساءُ مِن الباعة يصبن برعب شديد ويصرخن بسبب إتلاف المطر لبضاعتهن أو وطأها بأقدام الجموع الفارة. كذلك يعلو صراخ الأطفال الذين يضلوا طريق منازلهم ويبحثون عن ذويهم بلا جدوى. والرجال بدورهم يهربون بأقصى سرعة مِن المطر مثلهم مثل حال النساء والأطفال، ويخاف الرجال مِن أنْ يُمَزِّق المطر جلابيبهم إذا ما التصقتْ على أجسادهم، والواحد مِنهم ليس لدية ملابس إضافية لتبدليها. لكن الجلَّابة يلبسون أقمشة جلابيب ناعمة تقاوم الأمطار، لذلك تجدهم يقفون في وسط الأمطار مُعَرَّضِين أنفسهم لذراتها المنهمرة، وهم يعتقدون أَنَّ تعرُّض أجسادهم لقليل مِن المطر يمكنُ أنْ يقيهم خطر الإصابة بالحمى. أيضاً لديهم اعتقاد أَنَّ التعرُّض لقليل مِن البرد يقيهم مِن الإصابة بالحمى، لكن ذلك غير صحيح، فالذي يحدثُ أنْ تجدَ الرجل صحيح الجسم فجأةً طريح الفراش مريض بمرض لا يُرجَأ الشفاء منه. إِنَّ المآدب والاحتفالات في الأُبَيِّض لا تكسر حياة الرتابة المستدامة، وهي ليستْ مثل المآدب الراقية والاحتفالات الجميلة التي تُقَام فِي مصر. وفي الأُبَيِّض لا يُقام احتفالٌ بيوم الأحد أو أي عطلةٍ رسمية. والترفيه الوحيد كما بيَّنا مِن قبل يتمثل فِي رقص وغناء النساء

والبنات عند المساء بعد غروب الشمس، ورجوع الجميع لمنازلهم.

يوجدُ بالمدينة حي الكنجارة الذي يسكنه أهالي مِن دارفور مَع السلطان الشيخ هاشم مِن سلالة حُكَّام دارفور. وسبب وجوده في هذا الحي البائس هو كونه القائد العسكري لهم، وهم يشكِّلُون له حراسة مِن أي أذى أو هجوم. إِنَّ للشيخ السلطان هاشم طبلين كبيرين، مِن أكبر الطبول التي شاهدتُها في حياتي، وقد أهدِيَتَا له مِن محمد علي باشا كنوع مِن التقدير. ويُضرَب الطبلان الضخمان طوال يوم الجمعة وفي الأعياد، ورغم أَنَّ صوتهم غير متجانس، لكنهما مستحسنان بالنسبة لأناس لم يتعودوا على سماع الموسيقي، والسلطان شخصٌ مَهِيبٌ رغم أَنَّه أسود اللَّون كالليل، وهو يأكل وجبات دسمة مع الخبز الفاخر، وهي وجبة تختلفُ عمَّا يأكله بقية الزنوج مِن حوله. وهو يخضِّبُ لحيته بمادة البروماتوم، والذي يعطي لونها الأحمر القاني وجهه الأسود نضارةً وحسناً. وعندما يريدُ السلطان هاشم أنْ يتجوَّل في المدينة، يكون راكباً على فرسه يتبعه اثنان مِن الموسيقيين يعزفون على مزمارين مِن الجلد بهما ثمانية ثقوب.

عند قدومي للأبيض وجدتُ بالمدينة أوروبي واحد هو الدكتور/ أكين، الذي ذكرته مِن قبل، وهو مواطن مِن هانوفر. وهو كغيره مِن الأوروبيين الذين يَفِدُون لهذه البلاد ويقدِّمون أرواحهم جزاءً لذلك، بسبب الطقس الرديء الذي لا يلائمهم. وقد توفي لاحقاً الدكتور/ أكين ودُفِن في فناء منزله الذي يقع في حي التكارير جوار منزل السلطان أبو مدين أحد سلاطين الفور. وقامتْ الحكومة بعد موته بأخذ منزله لاستعمالاتها الخاصة، وحوَّلت جزءً مِنه إلى مخزن للجلود. بجانب الدكتور/ أكين يوجد سبعةُ أوروبيون ماتوا بالأُبَيِّض ودُفِنوا شمال المستشفى العسكري. وقد كان سابقاً توجد مظلة للاستراحة قرب قبورهم، وقد قمتُ مِن عندي بزراعة شجر على قبر كُلِّ واحدٍ منهم. فعندما كنتُ أتعافى بعد مرض خطير أصابني وجعلني أتحرك ببطءٍ متكئاً على عصاي، فإنّ نزهتي المفضلَة في تلك الأَيَّام هي زيارة

هذه القبور التي تمثل الأثر الأوروبي الوحيد فِي هذه البلاد النائية. وكنتُ عند صعودي التلال التي تضمُّ هذه القبور ينتَابني شعورٌ غريب بأَنَّنِي فِي صحبة أوربيين ميِّتين، وكنتُ أُسَلِّي نفسي بالتواجد بقربهم وأُصَدِّقُ أَنَّهم يستمعون بصبرٍ لتضرعاتي التي تحملُ حنيني الذي أبثه لبلادي البعيدة، كما أَنَّهم بدورهم يحثوني بالرحيل مِن هذه البلاد الخطرة على الأوربيين. وعند آخر وداع لِي لهذه القبور الأوروبية، انتابني إحساس وكأَنَّنِي أودع بعض أصدقائي.

إذا ألقينا نظرةً سريعة على مدينة الأُبَيِّض، فإنَّها تبدو كقريةٍ كبيرةٍ. فالخلاء الفسيح حول المدينة يكون شبه مُسَطَّح يكشفُ المدينة، وتدخل مياه الأمطار المدينة مِن مجرى متجه شمالاً، سُرعان ما تختفِي المياه فِي الرمال. إنَّ مزارعي ضواحي مدينة الأُبَيِّض تُحرَث بالحمير. فالأُبَيِّض توفر للمشاهد طبيعة متداخلة تدخل السرور على الزائر الغريب. إنَّ أهمَّ هذه المشاهد هو تجمعات البشر القادمين للمدينة مِن أقطار أفريقيا البعيدة مثل تمبكتو وبعض المدن الأفريقية غير المعروفة للأوروبيين. فهم يفدون إلى وسط المدينة مِن التلال الرملية المحيطة بها قبل طلوع الشمس على أقدامهم، ثم يبدؤون فِي مزاولة أعمالهم اليومية. إنَّ الأغلبية مِنهم تجدهم مستلقين على الرمال أو يقومون بزيارة جيرانهم بشكلٍ مجموعات.

أمَّا قطعان الماشية فتُسَاق للمرعي بواسطة الراعي الذي يركب على الثور، وكذلك نجد كُلّ الرقيق يعملون وأرجلهم مقيَّدة بالسلاسل، والقوافل تُشَاهد غاديةً ورائحةً مِن حين لآخر، وكُلّ هذا يوفر منظراً متفرداً للمدينة. وفِي الشوارع تسمع الأغاني تنبعثُ مِن كُلِّ مكانٍ، وحتى الإناث مِن الرقيق عندما يقمن بعملية طحن الغلال على المرحاكة يدندن بأغانِي يندبن فيها حظهن العاثر الذي أوقعهن فِي أَسْرِ العبودية، ويتذكرن أوطانهن التي فارقنها للأبد. والمدينة فِي نشاطٍ دائم وحركة مستمرة، كخلية نحلٍ تسمع فيها صخب ضجيج البَشر. لكن ما بين الساعة 11 صباحاً إِلى الثالثة بعد

الظهر في أشهر الصيف، يدبُّ الهدوءُ والسكينة في شوارع المدينة، وتصيرُ المدينة كَأَنَّها مدينة أموات. كُلّ فرد يذهب لمنزله للراَحة، أو يبحثُ عن مأوى ظليل يُستظَل به، فهم لا يقون على مقاومة أَشعة الشمس القاسية، والتي مِن المستحيل أنْ يتعرَّض لها كائن حي، ولا يُرى في هذا الوقت في الطرقات، إلَّا الكلاب الجائعة التي بدورها لا تطيقُ أيضاً المَكوثَ طويلاً واَلتعرض لأشعَة الشمس القاسية. بعد فترة الراحة التي تستمرُّ حتَّى الساعة الثالثة بعد الظهر، يكون كُلّ شخص قد جدَّدَ نشاطه واستمتع براحة القيلولة في منزله، بعد ذلك يرجعون لمزاَوله أعمالهم. فتبدو الطرقات عندها مليئة بالحَيوية والنشاط مثل حيوية شروق الشمس. إنَّ المكان الأكثر حيوية ونشاط هو السوق، والذي تستمرُّ حيويته حتى غروب الشمس، بعدها يرجع سكان المدينة إلى بيوتهم للاستجمام مِن تعب النهار، ومِن بعد ذلك تصير الطرقات خالية مِن الناس عند مغيب الشمس، والشفق الأحمر للمغيب لا يظهر بالمدينة. بعدها فإنَّ فقراء المدينة تجدهم مصابون بقلق فراغ بؤس حياتهم، وتستمر حالتهم هذه حتى يأتي وقت المساء ليتناولوا وجبة ذات مكونات غذائية فقيرة. بعد ذلك يذهبون للأنس مع جيرانهم الذين يقدمون لهم واجب الضيافة، ويتمُّ إشعال النيران في المدينة بعد وجبة العشاء. عندها تسمع مِن كل الاتجاهات دقَّات الطبول التي تُضرَب بالأيادي، والأغاني، ويجتمع الأولاد والبنات للرقص الذي يستمرُّ حتى منتصف الليل. وعند انتهاء الرقص تهجع المدينة في سكون وهدوءٍ وكُلّ يذهب لبيته للراحة، وتصير الطرقات صامته صمت اَلقبور. فالهدوء والسلامة مِن سمات ليل المدينة، ولا يتجوَّل أحدٌ ليلاً، إلَّا أنّه في بعض الأحيان يكسرُ هذا الصمت صياح الضِّبَاع أو نباح الكلابَ. هذه صورة رتابة ليل المدينة ونهارها، والتي لا يكسرها أيُّ تجديدِ طفيف.

(15)

التجارة

أَوَّل العوائق ضد التِّجَارة هو الاحتكار الذي فرضته الحكومة عليها؛ فليست فقط المنتجات الرئيسية هي التي تُباع بواسطة الحكومة، بل هي تحمى احتكارها لهذه السلع بالقانون الذي يمنعُ الفردَ العادي مِن عرض سلعته في السوق. كذلك ما تفرضه مِن ضرائب باهظة على السلع مِمَّا يجعلها قليلة الربح عندما تُصَدَّر لمصر. يظهر ذلك بوضوح في تجارة العاج، فالحكومة تفرضُ على أيّ مَن يمتلكُ كمية مِن العاج أَنْ يبيعه لها. ويزدادُ الأمر سوءً عندما نعرف ما يعانيه التاجر بجانب الضرائب مِن أُجرة ترحيل باهظة التكاليف. تجد أَنَّ كردفان تنتج النيلة وأنواع مِن المكيفات والسكر وحاجيات أخرى، وهي تدرُّ أرباحاً عالية للتجار العاديين والإدارة الحكومية. ذلك لأَنَّ التربة في البلاد لخصوبتها لا تحتاجُ إِلَّا للقليل مِن العناية بها، رغم أَنَّها تنتجُ محاصيل وفيرة. ورغم أَنَّهم يحصلون على منتجاتهم بشكلٍ طبيعي لا يبذلون فيه أيّ كبيرِ جهدٍ، إِلَّا أَنَّ ما تفرضه الحكومة المصرية الجَشعة مِن ضرائب عالية على كردفان، لا يشجعهم على الإنتاج. إِنَّ كُلَّ المواطنين يعيشون في حالة رعب مستدام، ولم يمر يوم كانوا فيه مطمئنين على ممتلكاتهم، وقد تَمَلَّكتهم حالَةَ أَنْ يعيشوا لحظتهم ولا يفكِّرُون بما يحدثُ غداً. وكل السلع المعروضة في السوق هي مِمَّا تجودُ به الطبيعة، ونرى القليل مِن السلع المُصَنَّعة أو التي يلزم أي جهد لإنتاجها مثل القطن والمصنوعات الجلدية. والأشياء التي تصدر هي الصمغ والجلود غير المدبوغة، أوراق السنامكة، العاج، قرن الخرتيت، قطعان الماشية، العرديب، ريش النعام وبيض النعام، والذهب الذي يباع في شكل حلقات أو حُبيبات، بجانبِ قرب الماء والملح والتبغ والسمسم

حبة الريحان والرقيق. ونجد أَنَّ السلع الثلاثة المذكورة أولاً، هي أكثر السلع ربحاً مِن وجهه النظر التجارِيّة، لكنها مُحتكرة مِن الحكومة. فالصمغ العربي يُجمَع مِن الغابات مباشرة بعد انتهاء موسم الأمطار، ويحقُّ لنا القول أنَّ ذلك يتمُّ بواسطة القوة الجبرية الحكومية، لأنَّ الحكومة تدفعُ للقنطار الذي يساوي (44) أوقية وقيمته ما يساوي (110) جنيهاً، تدفع عنه (15) قرشاً «خمسة شِلْن وأربعة بنسات فقط».

إِنَّ المواطنين يمكنُ أنْ يجنوا مزيداً مِن الأرباح إذا كثَّفُوا عملهم في الصمغ ذي الجودة العالية، بجانب اهتمامهم بأنواع التجارة الأخرى. ولكن كُلَّ ذلك يعتمد على الطقس، فإذا كانت الأمطار غزيرة كان إنتاج الأشجار وفيراً مِن الصمغ. لكن جَمْع الصمغ يتمُّ بِكُلِّ إهمال لأَنَّ الأهالي يعتقدون أَنَّهم مدفوعون إجبارياً للعمل في جمعه، ويجنون مقابل ذلك أجوراً زهيدة. بجانب القطع الجائر الذي يتمُّ سنوياً لأشجار الصمغ لأجل تحويلها لمزارع، والذي لا يتمُّ تعويضه بزراعة أشجار جديدة، بل يُترَك الأمر لعوامل الطبيعة لتقوم بذلك، وفي أوروبا فإِنَّ سلعتي الصمغ والعاج تدران أرباحاً مُجزيةً للمتاجرين فيها، بسبب قلة الضرائب وعدم وضع قيود على تجارتهما. لكن عليهم أنْ يتحمَّلُوا تَبِعات إعادة زراعة النبات المفقود مِن أشجار الصمغ. نجد أَنَّ الصمغ الذي يحصد عقب الأشهر الممطرة في نوفمبر وديسمبر ويناير هو نوعية جيدة تُسَمَّى بالصمغ العربيّ. وتعطي كردفان لوحدها متوسط إنتاج سنوي يصل ما بين 3500 إلى 4 ألف مِن جمله الإنتاج، ترتفع إلى 10 إلى 14 ألف ومائة زنة 44 أوقية. لقد تأكدتُ بعد حديثي مع عدد مِن الأشخاص، أَنَّه مِن الممكن زيادة نسبة الإنتاج لتصلَ ألف ومائة زيادة على هذه الكمية، إِذا تحسن الجهد الإنساني المبذول في جني الصمغ. وتحتكرُ الحكومة الصمغ منذ بداية إنتاجه، والذي يأخذُ المراحلَ الآتية: يقومُ الرجال والنساء والأطفال بجمع الصمغ الخام مِن الغابة في سلال سعة 12 رطلاً، وكُلُّ أربعين سلة تكون حمولة جَمَل أي زنة 480 رطلاً. يتمُّ ترحيل الحمولة

بسعر يتراوح ما بين 5 ونصف إلى 6 دولار أسباني. هذه 500 رطل تقريباً لا يمكن أنْ تُرَحَّل بالجَمَل عبر الصحراء حتى الدبة على النيل لأنَّها حِمْلٌ ثقيل؛ لذا فإنَّ كُلَّ ثلاثة إلى أربعة قنطارا تحسب 100 رطل مِن متوسط حمولة الجمل. وهناك نوع ثاني مِن التحميل يتمُّ فيه تعبئة الصمغ في جلود الثيران بدلاً عن الشوالات، بسبب أنَّه يمكنُ بيع الجلد بمبلغ 3 قروش، ويصل المبلغ في الإسكندرية إلى 30 قرشاً. وأنصحُ مَن يريدون الاستثمار في منتوجات البلاد أنْ لا يوكلوا في تجارتهم الدناقلة أو أحد الأهالي، بل يأتوا بأنفسهم لشرائها. وأعتقدُ أنَّ الأرباح التي يمكنُ أنْ تُجْبَى مِن ذلك تصل إلى 50٪ صافي ربح. وأنسب مكان لشراء الصمغ هو مدينة بارا. وسوف أوضح تكلفة بعض النفقات حتى يصلُ القاهرة، ومِن ثَمَّ تبدأ عملية الاحتكار الحقيقية. هذه تكاليف 480 رطلاً «ما يقارب 300 ونصف زنة» بمعدل 44 أوقية:

الرقم	نوع التكلفة	قرش	شلن	جنية
	تكلفة 480 رطلا (حوالي زنة 350)، بمعدل 44 أوقية	-	-	1
	الترحيل حتى دنقلا	-	-	1
	أجرة من دنقلا لوادي حلفا	-	14	-
	أجرة المركب حتى القاهرة	8	4	-
	ضرائب كردفان	9	8	-
	ضرائب دراو	-	11	-
	ضرائب القاهرة	-	5	-
المجموع		5	3	4

إنَّ ضرائبَ التصدير وفق القانون الحالي هي 12 شلن، والجمارك تبلغ 16 شلن مقابل 100 زنة إلى الإسكندرية. وأمَّا في البلاد التي تجاورُ كردفان، النوبة، تقلي والكدرو فإنَّ الصمغَ يتعرَّضُ للفسادَ سنوياً لأنَّ إدارة محمد علي

باشا لا ترحله في الوقت المناسب، ولا يُعطَى للتجار الأفراد للاستفادة منه. أَمَّا العاج فإِنَّ المتخصصين في شرائه هم تجار تريست ومرسيليا ولافورنو. والفكرة الرائجة أنَّ العاج الآتي عبر رأس الرجاء الصالح، يوجد في شرق الهند ويُسَمَّى العاج الآسيوي. ومِن ناحية أخرى فإِنَّ العاج الآتي عن طريق طرابلس والإسكندرية يُسَمَّى العاج الأفريقيّ. ولكن كما أوضحتُ مِن قبل أنَّ ثلث أو نصف العاج المعروضِ هو أفريقيّ المصدر. وفي أثناء 19 شهراً مِن رحلاتي في داخلِ أفريقيا، كنتُ أسعى لجمع معلومات صحيحة عن تجارة العاج، وأعتقدُ أَنَّ ما توصلت إليه يجعلني مصدراً موثوقاً به. إِنَّ محمد علي باشا يحتكرُ تجارة العاج، وأعتقد أَنَّه يستلم كُلَّ العاج الذي يصل بلاده مِن وسط أفريقيا، وأيضاً العاج الذي يصل مِن دارفور عن طريق القوافل التي تصل أسيوط في مصر العليا، ويُبَاع خاصةً في شهري فبراير ومارس. ورغم أَنَّه في كردفان تَمَّ تحرير تجارة العاج، إِلَّا أَنَّه عبر استعمال الأساليب الماكرة يتم التقييد عليها، وجعل الحكومة المستفيد الأكبر، وذلك عبر جعل الجلَّابة يشترونه ويرحلونه عبر نفقتهم الخاصة حتى القاهرة، عندها تقوم بشرائه منهم بأسعار زهيدة تقلل مِن أرباحهم. يأتي العاج مِن دارفور مِن الأقاليم: رنقه، كولا، شالا، بنقا، قمر، ساشنا، يابوسا، تاما. وهو يُبَاع للتجار في كوبي والفاشر. أَمَّا العاج الذي يُجمَع من برقو، باقرما، كوجو، نيرو، فسنوياً يذهبُ لطرابلس. في كوبي والفاشر حيثُ مخزون العاج وفير، يبلغ سعره 3 جنيهات وشلنين و6 قروش للقنطار الذي يساوي 12 رتولو «88 رطلا». ولكن رغم ذلك فالسعر متأرجح حسب تجارة المقايضة، مثل القطن الآتي مِن دنقلا وبعض المواد التجارية الآتية مِن ألمانيا كالسيوف ذات الحدين والملابس الحمراء والعنبر والسكسك والمرهم والاسلاك. إنَّ العاج الآتي مِن دارفور يصل إلى الأُبيِّض عاصمة كردفان ومِن ثَمَّ لبارا المدينة التجارية في مديرية كردفان، ولكن الكمية العظمي تعبر إلى ساحل البحر الأحمر. إِنَّ في كردفان قنطار العاج يكلف 10 جنيهات و18 شلن زائداً الضرائب. وهناك كمية كبيرة تأتي مِن شيبون وبلاد الشلك إلى كردفان، حيث يشتريه جلَّابَة

الأُبيِّض وبارا بالمقايضة. ونجد أنَّ البقَّارة أيضاً يتاجرون في العاج. في مناطق الشلك يقايض العاج بالقطن الآتي مِن دنقلا والسكسك والملح والتبغ. وكما ذكرتُ فإنَّ أغلبه يذهب إلى ميناء سواكن على البحر الأحمر، هناك يتسلمه تجار إنجليز يدفعون سعر مُغري ويحملون العاج على ظهر السفن بسرعة ويغادروا الميناء بسهولة. بهذه الطريقة فإنَّ الإنجليز ينتظرون سلعتهم حتى تأتي لهم مجنبين أنفسهم خطر التعرُّض لمناخ داخل أفريقيا وكردفان غير الصحي، ويوجد للبيوتات الإنجليزية الكبرى التي أسستْ في الهند مناديب دائمين مِن الهنود على الميناء. وفي عام 1840م كان يقيم رجلٌ إنجليزيّ أدار تجارة العاج في الميناء بنفسه. ويُكلِّف القنطار عندها 10–12 جنيه يُدفَع ربع المبلغ للجمارك في سواكن. ويتمُّ تحميل البضائع في مراكب صغيرة توصلها للبواخر العربية والهندية في عرض البحر، والتي تقوم بالإبحار بها مباشرةً إلى الهند. وتوجد جزيرة تُسَمَّى مُصَوَّع تبعد نصف فرسخ مِن الشاطئ الحبشي، وفرسخين مِن عركو، هذه الجزيرة تتبع لوالي مصر محمد علي باشا، وتعتبرُ مُصَوَّع مدخلَ الحبشة لأرض الجالا، ويمر عبرها من يريد ان يدخل إلى الجنوب والجنوب الغربيَ الأفريقيّ. ويتمُّ تفريغ الشحن القادم مِن شوا جنوب الحبشة وباقي البلدان المجاورة في ببرة، ومدينة زويلا الواقعة على الساحل الأفريقيّ. مِن هذه الملاحظات البسيطة يمكنُ أنْ نستنتجَ أنَّ العاج الذي يمرُّ مِن أفريقيا إلى الهند بعد عبور مدينة كاب، ليس كله عاج آسيوي، رغم أنَّ أغلبه يصل إلى الهند. وإذا ما ألغى محمد علي باشا احتكاره لتجارة العاج فإنَّ تجار العاج سوف يجنون أرباحاً طائلة مِن العملِ فيه، عندها فإنَّهم يمكنُ أَنْ يدفعوا مقابل القنطار الذي يساوي 114 رطلاً مبلغ 740 قرشاً في مدينة الأبيض. وذلك أفضل لهم مِن المغامرة بدخول أرض الشلك أو شَيبون أو رنقا أو حتى دارفور، ورغم أنَّهم سيدفعون عندها نصف القيمة، إلَّا أنَّ ذلك لا يساوي المخاطر الكبيرة التي يمكنُ أنْ يتعرَّضُوا لها، وأفضل لَهم أنْ ينتظروا الأهالي؛ ليجمعوا لهم العاج في الأُبيِّض ويشتروه منهم.

ان الجلابة حين يشعرون ان الطلب على سلعة العاج متزايد يرفعون سعره. ومن ثم تكون خير خطة لتقليل الأسعار هي التعاون مع الضابط التركي في كردفان الذي يقوم بشراء العاج باسمه، وهم يتعاونون مع التاجر ولا يهتموا بحجم العائد الذي يكافئه به في المقابل، ويمكنُ أنْ تكون خدماته مقابل زجاجة نبيذ أو أي كحول فاخرة أخرى. بالنسبة لعاج دارفور فإنَّ مخزونه الرئيسيّ يوجد في العاصمة التجارية كوبي. لكن لا يمكن الاستفادة منه طالما ظل السلطان محمد الفضل حاكماً على دارفور، وأنصحُ الحكومة أنْ تطوِّر علاقاتها مع أخيه أبو مدين، ومِن ثَمَّ يصيرُ فِي مقدور الأوروبي الدخول والخروج مِن دارفور بسهولة، لأنّ أبو مدين يميل نحو الفِرنجَة وعلى استعداد لتقديم الخدمات لهم. وأنا مستعدٌ للعب دور الوسيط معه لأنَّني خير مَن يقوم بذلك، بسبب أنَّنِي أضمنُ تعاطفه الكبير تجاهي. فيما يلي تكاليف ترحيل العاج مِن الأُبيِّض حتى الإسكندرية:

الرقم	نوع التكلفة	التكلفة اليومية	عدد الأيَّام
	أجرة جَمَل حمولة 3 أو 3 ونصف قنطار زنة 100 رطل من الأبيض إلى الدبة على النيل	60 قرشاً	16
	أجرة المركب الواحد دنقلا الجديدة	30-60 قرشاً	6-4
	الأجرة مِن دنقلا الجديدة إلى وادي حلفا	30-50 قرشاً	16-14
	الأجرة مِن وادي حلفا إلى جزيرة فيلة على الشلاَل الأوّل	60-150 قرشاً	10-8
	الأجرة إلى أسوان	3-4 قروش	-
	الأجرة بالمركب مِن أسوان إلى القاهرة	400-1000 قرش	30-20
	الأجرة بالمركب إلى أدفو	150-400 قرشاً	8-4
الأجرة بالمركب مِن أدفو على قنال حمادى		30-80 قرشاً	يوم واحد

ويجبُ أنْ أُنبِّهَ إلى أنَّ أجرة المركب تختلفُ حسب سعة حمولته، وعدد الأيَّام التي يأخذها تعتمد على منسوب مياه النيلِ وسرعة الرياح المواتية. ويمكنُ القول بشكل عام أنَّ نقلَ البضائع مِن الأُبيِّض حتى الإسكندرية،

يستغرقُ بالتقدير ثلاثة أشهر ونصف.

بالنسبة لتجارة العرديب، فإِنَّ الحكومة لا تضع أي اعتبار له، وتترك أمر تصديره للتجار الأفراد. وفي عامي 1837–1838م ولأسباب غير معروفة تساقطتْ أزهار العرديب ولم يكتمل نضوج ثمارها، وارتفع سعر الرطل منه حتى بلغ ثلاثة أرباع القرش، مِمَّا اضطر الأهالي إلى استيراد العرديب مِن دارفور. وفي أعوام أخرى كان فيها الحصاد متوسطاً، صارتْ قيمة الجَمَل حمولة 3 قناطير 1 جنية. وبسبب قلة الأرباح وارتفاع الضرائب، فإِنَّ تجارته أصبحتْ غير مُجزية. ويستعملُ الأهالي العرديب فِي الشرب مثله مثلَ الشاي، ومِن الغريب أنَّ الأوربيين لا يعرفون هذا المشروب.

نجد أَنَّ تجارة ريش النعام تتركز في مدينة كوكة والحرازة وقري أخرى على حدود دارفور. وجلد النعام يعطي ريش يزن ثلاثة أرطال مِن الريش الأسود، ورطل مِن الريش الأَبيض. ويتمُّ فرز ريش النعام عند بيعه حسب لونه، ويُبَاع الرطل المقسم إلى ثلثين ريش أسود، وثلث ريش أبيض، بمبلغ 10 شلن و6 قروش إلى 13 شلن و6 قروش للرطل. ورطل الريش الأغبش 5 شلنق و3 قروش، ورطل الريش الأسود مِن قرشين ونصف إلى ثلاثة قروش. إنَّ الريش الأبيض عينته غير جيدة، لذا فسعره مُنخفض يتراوح بين اثنين جنيه واثنين شلن، إلى اثنين جنيه و12 شلن. والضرائب المفروضة على ريش النعام في كردفان ودارفور والقاهرة تصل إلى واحد جنيه. ويُعَبَّأ الريشُ في عبوات صغيرة ثُمَّ يُدخَل في جلد النعام، وهي عملية تحتاج لحذرٍ شديد، حيثُ أنَّ الفأر دائماً ما يعتدي على هذه البضائع التي لا مفرُّ مِن تعريضها مِن وقتٍ لآخر للتهوية، وكذلك وضع بعض المواد الواقية عند التعبئة.

في تجارة الجلود تشتري الحكومةُ كُلَّ جلود الثيران المعروضة بمبلغ ثلاثة قروش للجلد الواحد، وتقوم بإرسالها لمصر. ومِن الملاحظ أَنَّه لا توجد جلود صغار العجول لأنَّ الإسلام يمنع ذبحها. وجلود الضأن والأغنام تُستخدَم كقِرَب لنقل الماء، وهي مِن المواد التجارية المهمة، وكذلك تُصنَع

قِرَب الماء مِن جلود الثيران، حيثُ تُستعمَل قِرْبَة جلد الثور الكبيرة كحمولة ماء يحملها الجَمَل معه.

إنَّ الملح والتبغ مِن السلع المفضلة للمقايضة في بلاد الشلك والجانقي. وكذلك يصدر لسنار زيت السمسم. وبذرة زهرة الريحان تنبتُ في كردفان والعينة الجيدة منها تأتي مِن تقلي فتُصَدَّر لمصر وليفانت، ولكن أسعارها رخيصة جداً ما يساوي 12 بارة أي قرشين. والرطل مِن بذرة الريحان في القاهرة سعره 4 قروش أي شلن واحداً. فبذور الريحان تُستعمَل في علاج العيون، ولكن على المرءِ أنْ يكون حَذِراً عند شراء بذرة الريحان، ويجب أنْ يختبرَها، فتوجد عينات مُختلفة منها ناعمة وخشنة، والناعمة جَيِّدة أمَّا الخشنة فسَيِّئة.

إنَّ الذهب هو أهم مادة في التصدير، ولكن في الوقت الحاضر صار عائده غير مُجزي بعد أنْ صار سعره في تزايدٍ مستمر. ولقد أخبرتُ أنَّ سعر أوقية الذهب كانتْ تُبَاع بـ 200 قرش قبل دخول الأتراك البلاد. ونفس هذه الكمية سعرها 370 أو 400 قرشاً. وأوقية الذهب الكردفاني قيمتها تزيد بنسبة مِن ٪10 إلى ٪14 عن ذهب سنار، لأَنَّ ذهب كردفان كثافته أثقل مِن ذهب سنار. يوجدُ الذهبُ في التجارة على شكل حلقات مختلفة الأحجام، وكذلك توجد حُبيبات في أحجام مختلفة تُوضَع داخل بيض الطيور المفترسة، وهو مفضل على الذهب الذي يكون على شكل حلقات، لأنَّ الأهالي غالباً ما يقومون بتزييف ما يكون على شكل حلقات. والكمية الكبيرة مِن الذهب تأتي مِن حول منطقة شيبون والمديريات الجنوبية.

أمَّا قطعان الأبقار ذات القرون الكاملة النمو فهي إحدى مكونات الصادر التجاري الرئيسية، ويتمُّ ترحيلها بواسطة الحكومة إلى مصر في مجموعاتٍ كبيرة أغلبها يَنْفَقُ في الطريق نتيجة للإهمال. كذلك أنَّ الأفراد لا يستطيعون الدخول في مضاربه في تجارة الأبقار مع الحكومة، لأنَّه لا يمكن منافسة الأعداد الضخمة التي ترحلها الحكومة في الرحلة الواحدة،

وهي عملية ذات تكاليف ضخمة، وكذلك تحتاجُ إلى زرائب بها ماء وعلف على مسيرة كُلِّ يوم بين الدبة والقاهرة. وكذلك الجمال تُصَدَّر للقاهرة لأنَّ أسعارها هنا زهيدة جداً.

ونجد أهمَّ الموارد التجارية ذات العائد والعددية الضخمة، لسوء الحظ تجارة الرقيق. فالحكومة والجلَّابة كُلّ منهما ينافس الآخر في الحصول على أكبر قدرٍ مِن الرقيق، مستعملين ما في وسعهم وبشتَّى الَطرق في ذلك. فالذين يشترون الرقيق بالجملة يلجئون لأكثر الوسائل وحشية ليحصلوا على أكبر عدد ممكن مِن الرقيق، وكذلك الجلَّابة الذين يشترون الرقيق بكمياتٍ قليلة يقلدونهم مستعملين كل أساليب المكر والدهاء، ويعتبرونها أفعالاً مشروعة لأجل الحصول على مزيدٍ مِن هؤلاء التعساء. إنَّ الرقيق الذين يقعون في قبضة الجلَّابة يعاملون برقةٍ أكثر مِن الذين في قبضة الإدارة الحكومية، التي لا يهمها مقتل المئات منهم بسبب سوء معاملتهم. أَمَّا الجلابة فهم مضطرون لمعاملة الرقيق معاملة حسنة، لأنَّ أي فقدان للرقيق يكون خسارة لرأسمالهم الضعيف أصلاً. الأُبَيِّض هي مركز تجارة الرقيق ويُقَام فيها السوق الرئيسي يومياً. فمواردها مِن الرقيق ليس مِن البلدان المجاورة فحسب، بل يأتي كذلك مِن: كولا، باندا، رنقا، باقرما، برقو ومِن بلدان على مسافات بعيدة كذلك، ولكنها ليست بالكمية الكبيرة مثل تلك التي تأتي مِن البلدان المجاورة. إِنَّ الجلَّابة يعبرون ببضاعتهم داخل البلدان المجاورة ليقايضوها بالرقيق الذين يقعون في الأسر كسجناء أو تتمُّ سرقتهم. فالجلَّابة دائماً ما يكونون بالقرب مِن تواجد الخاطفين الذين يخطفون الأطفال مِن ذويهم ويقومون بمقايضتهم في نقاط التقاء محددة، وأكبر كمية مِن الأطفال المخطوفين يعتمد سعرهم على عمرهم وصحتهم وجمالهم وكذلك البلاد التي يأتون منها. فالأطفال المولودين في كردفان مِن أبوين رقيق، هم الأعلى سعراً لأنَّهم يكونون قد تعوَّدُوا على أداء الأعمال السائدة في البلاد وملمين باللغة العربية. أمّا الذي يملك رقيق متزوجة أو بنت رقيقَ أنجبتْ طفلا،

فإنَّ الأطفال هم ملك لسَيِّد آبائه ومِن الممكن أنْ يبيعهم. وكذلك الأطفال الذين يُولدون مِن أصلاب أُسرة مالك للرقيق، يمكنُ بيعهم كرقيق ولكنه مسلك غير طبيعي وغير سائد. وأخيراً مهما تكن مِن اعتبارات فإنَّ المرء يفتقرُ للكلمات التي يعبرُ بها عن مشاعره تجاه هذه المعاملة البغيضة التي تقع على هؤلاء الرقيق التعساء، والتي ترفضها كُلَّ الشعوب المتحضرة. الإنسان هنا محروم مِن حريته، ويُعَامل كسلعة أو مال نقدي يُتداوَل مِن يدٍ إلى يدٍ في دورة المعاملات التجارية. إنَّ الرقيق يعتبر نفسه إنسان محظوظ إذا وجد منزلاً يأويه، أو نعلاً يحمي قدميه أو يعامل كبشر. وفي المدينة لا يوجد منزلاً مِن منازل الميسورين إلَّا يخدمه رقيق واحد أو أكثر يكون ذكر أو أنثى تؤدي الأعمال المنزلية. في بعض المنازل تكون أعداد الرقيق وفيرة، ويُجعَل لكُلّ منهم مهمة محددة توكل له. ويتمُّ تصدير أغلب أعداد الرقيق إلى مصر، ثُمَّ لافينات على شكلِ مجموعاتٍ ترحيلٍ صغيرة أو كبيرة.

أوراق السنامكة متواجدة بكثرة في كردفان، والحكومة لا تتاجرُ فيها وتمنعُ الآخرين مِن احتكار تجارتها. نجَد أَنَّ السنامكة الموجودة في كردفان هي ذات النوعية الموجودة في دنقلا، وهي التي تستوردها الحكومة وتبيعها تحت مُسَمَّي السنامكة الاسكندرانيّ أو المصريّ. وأقلُّ مِن ٪50 مِن السنامكة المصرية الموجودة في أسوان هي مصرية، لكن موطنها الأصلي قادم مِن دنقلا. وإنَّ الأهالي سكان الصحراء يجمعون محصول السنامكة، ويُبَاع بمبلغ 200 إلى 400 قرشاً حسب حالة السوق، سِعر الجَمَل حمولة ثلاثة قناطير زنة القنطار 44 أوقية تسليم دنقلا الجديدة. وعلى الحكومة أنْ تزيد السعر مبلغ 60 إلى 80 قرشاً على حمولة الجَمَل الآتي مِن كردفان، ولكن مِن الطبيعي ألَّا تستلم الحكومة سنامكة مِن كردفان، ولكنها تتركها حتى تتعفَّن وتصبح غير صالحة للاستعمال. فالسنامكة الموجودة في كردفان هي إنتاج محلي أو آتية مِن البلدان المجاورة. إنَّ المواد التي تستوردها كردفان للاستهلاك المحلي تعتمد على القوافل التي أغلبها آتية مِن القاهرة، والبعض يأتي مِن

سنار وكمية قليلة مِن سواكن، ثُمَّ مِن بعد ترجعُ القوافل مُحَمَّلَةً بقليلٍ مِن المواد والحاجيات الواردة مِن الحجاز والهند إِلى الأُبَيِّض وبارا، فالتجارة تُنقَل بطريقة فيها كثير مِن عدم الاعتناء، والربح فيها قليل بسبب ضياع قدر كبير مِن الزمن. مثلاً في شهر رمضان يكون الحاكم التركي صائماً، مِمَّا يجعله يؤجل أي أعمالٍ خلال هذا الشهر. وكذلك في فصل الأمطار تتوقف المواصلات مع البلدان الأخرى، ويكون فيها مِن النادر وصول قافلة صغيرة. ونجد أنَّه في فصل الخريف، يخسرُ التجار كثيراً لأَنَّ الأمطار العنيفة تتلفُ البضائع، وكذلك مجاري المياه الهادرة مِمَّا يصعب على القوافل عبورها. فالرحلة الشاقة التي تستغرق 3 أو 4 أشهر، مع الشحن بالجِمال والمراكب تجعلُ سعر المواد مرتفعاً في جميع أنحاء كردفان، زائداً على ما تفرضه حكومة محمد علي باشا مِن ضرائب تُدفَع في كُلِّ بلدٍ تمرُّ بها البضائع قبل أنْ تصلَ مقصدها النهائيّ. فالبضائع عند تَحركها مِن الإسكندرية تُدفَع ضرائب الاستيراد حتى تصل القاهرة. وعندما تشحن البواخر في القاهرة القديمة حتى تصل النيل تدفع ضرائب كالآتي: من القاهرة القديمة يكون متوسط الضرائب 12 شلن، ودنقلا 30 قرشاً للجَمَل المُحَمَّل. وفي الأُبَيِّض 300 قرش للجَمَل المُحَمَّل قطناً سواء مِن القطن الجيد أو غير الجَيِّد بلا تمييز. والجَمَل المُحَمَّل بالأرز يدفع عليه 150 قرشاً، والخمور 100 قرشاً للنبيذ، وروزوقلووالرم النمساوي 50 شلنقوفالورم. إنَّ منتوجات دولة النمسا تُشَكِّلُ أكبر قدرٍ مِن البضائع الموجودة فِي كردفان، وهناك كمية كبيرة مِنها يُعَاد تصديره لبلدان الزنوج، ويستورد مِن إنجلترا القماش الأبيض القطني، ومِن بوهيميا يستورد الزجاج. وفيما يلي المواد التجارية التي تستوردها كردفان: سكر، فلفل، قرنفل، بن، صابون، أرز، كبريت، أقمشة القطن الملونة، قماش مشجر، قماش ازرق وأحمر، قماش كتان مِن القاهرة، ملابس جاهزة للأتراك، أحذية حمراء، خمور، نبيذ، روزقوليو، خل، زيوت، زيتون اخضر، جبنة، عنبر مِن بلاد فارس، مرجان أسود، وبعض الأشياء الأخرى. أَمَّا المستوردات مِن النمسا هي: مرهم الناردين، طلقات نارية،

قوالب صناعة الخبز، أمواس حلاقة، سيوف ذات حدين، أجراس الإبل، الأمونيا، الزرنيخ، حديد ونحاس أصفر، عيدان الكبريت. المستوردات مِن بوهيميا هي: مرايا في داخل مظاريف مِن ورق، أختام توضع في الأصابع مُحَلَّاة بالأحجار الكريمة، السكسك الملون وخاصة باللون اللازورد المفضل في كردفان، كروت اللعب. ومبيعات الزجاج ترتفع في زمن فيه تنفد الكمية مِن القاهرة حيثُ يبلغ السعر أكثر مِن 26 جنيهاً. ومستوردات لافاتين هي الأكثر طلباً عند المواطنين مثل: النارجيل، الكؤوس والأكواب والمحاقن. مِن المستوردات الآتية مِن البندقية يحصلُ الأهالي على السكسك، أوراق الزينة التي تُحَلَّا بها الملابس على الطريقة التركية. لقد وجدتُ المصنوعات النمساوية لها سوقاً جاهزة في معظم أنحاء أفريقيا وآسيا. ومِن المدهش أَلَّا يوجد بالبلاد سوي بيتين تجاريين: الأوَّل هو بيت بوهيمي لبيع السكسك والمرايا، والثاني بيت فنتاني لبيع السكسك الفنتاني. إنَّ التجارة النمساوية تجابهها خسارة فادحة لأنَّ الآسيويين والأفارقة يُرغَمُون على شراء المستوردات الحكومية بعد أنْ تداولتها الكثير مِن الأيدي، يكون فيها أي وسيط يضع أرباحه الخاصة، مِمَّا يرفعُ سعرها بشكلٍ كبير. وكُلُّ هذه البضائع تعبر عن طريق القاهرة وقليل منها يأتي مِن سواكن وسنار. لقد كنتُ أوَّل نمساويٍّ تاجر في البلاد، ولم أتَمَكَّن مِن تأسيس عمل جَيِّد لأنَّ رأسمالي كان ضئيلاً جداً، لم يمكِّنني مِن إدارة عمل تجاري. وفي الحقيقة كان قصدي مِن ذلك هو مجرد تغطية نفقات رحلتي، وأنا مقتنع أنَّ ما كسبته مِن تجربة في هذا المجال مفيداً للآخرين. إنَّني أنبه أي شخص قادم بتجارة إلى كردفان أنْ يحذر النمل الأبيض، ولا ينسى أنْ يضع بضاعته مرفوعة على الحجارة. فأنا نفسي كنتُ ضحية لهذه الآفة المُدَمِّرة. ففي أثناء فترة مرضي والتي لم أتمكن فيها من الاعتناء بحاجياتي، وجدتُ كُلَّ القطن الذي بحوزتي غير صالح للبيع، مِمَّا اضطرني لتأجيل رحلة العودة حتى أُدَبِّر المال اللازم. وكذلك اضطررتُ للرجوع بلا خادم وقطع مسافة يومين في الصحراء سيراً على الأقدام حتى أصل كروسكو.

تختلفُ أسعارُ البضائعِ حسب فصول السنة، فعند الفصول الممطرة حين لا تأتي القوافل مِن مصر وتندر البضائع، ترفع الأسعار بمعدل 50 شلن عن السعر الحقيقي. يستورد البن مِن الحبشة، وسعره الجاري ثلاثة قروش للرطل، وفي سنة 1838م ارتفعَ سعره إلى ثمانية قروش. وفي فصل الأمطار يصل سعر رطل السكر ثمانية قروش والأرز 20 قرشاً للأوقية. الفنجار سعر الزجاجة 14 قرشاً. فعلي العموم إنَّ جميع الأسعار تنخفضُ حين وصول البضائع الجديدة. ونجد أَنَّ كُلَّ الواردات مِن البضائع تُستجلَب بواسطة الجلابة الذين لهم المقدرة على إدخال بضائعهم داخل البلاد، ومقايضتها بالرقيق والبضائع الأخرى. إنَّ التجارة التي تعبرُ إلى داخل البلاد تتطلب خبرات خاصة، فإذا أخذنا السكسك مثلاً؛ فإنَّ اللون الأبيض مرغوب في بعض الجبال، وفي جبال أخرى يفضلون الألوان الأخرى مِن السكسك الأحمر والأزرق، وهذه القاعدة يمكن أن تطبَّق على بقية البضائع. أمَّا الكميات الكبيرة مِن الملح والتمباك فتُستهلَك في بلاد الشلك، فالجلابة الذين يسيطرون على التجارة الداخلية، يمكنُ أنْ يحرزوا فيها تَقَدُّماً إذا كانتْ لديهم موهبة تجارية، وقلَّلُوا مِن الإهمال في الاعتناء بالبضائع عند نقلها. وكذلك نجدهم لا يضعون اعتباراً لاحتياجَات السوق، بل يتاجرون منذ سنين في صنفٍ واحدٍ مِن البضائع، يعرضون بضاعتهم في السوق ويحرسونها حتى تنتهي كُلُّ البضاعة عن آخر قطعة حتى لو كانت بخسة، ولا يتعبون أنفسهم بتجديدها. فهم لا يضعون اعتباراً لعامل الزمن، أو إمكانية ترك البضائع لوكلاء عنهم يقوموا ببيعها نيابة عنهم مقابل عمولة بسيطة، لأنَّهم لا يثقون في أي أحد. وهم لا يهتمون بعامل الزمن لدرجة أَنَّ الواحد منهم يمكن أَنْ يسافرَ مسافةً طويلة فقط ليبيع رطلين أو ثلاثة مِن الصابون أو حفنة مِن السكسك. ويسيرُ الجلَّابة الدناقلة على طريق آبائهم في التجارة، وهم مِن الممكن أنْ يتركوا بضائعهم تتلفُ لكن لا يقللوا أسعارها، وهم يبيعون كُلَّ البضائع المختلفة بسعرٍ واحد، بدون أخذ اعتبار فارق نوعيتها. مثلاً يبيعون القطن الجيِّد والرديء بنفس السعر. وإذا لم تتلف

البضائع أثناء ترحيلها؛ فإنَّها تتلف عند عرضها بالسوق، حيثُ يُترَك كُلّ شيءٍ على الرمال في شكل أكوام كبيرة، ولا أحد يهتمُّ إذا وُطِأَتْ بضاعته بأقدام قذرة، أو تسرَّبت إليها مياه الأمطار. فالعادة أنَّ المشتري الأوَّل يختار أجود البضاعة، والذي يأتي بعده يشتري الأقل جودة دافعاً نفس السعر، وأحياناً يدفعُ سعر أكبر مِن سعر البضاعة إذا ما دخلتْ حالة الندرة. لقد اقتنعتُ شخصياً أنَّ أي بضاعةٍ رائجة يمكنُ جلبها للسوق، ومع تحسين طريقة عرضها وطريقة التعامل التجاريّ معها يمكنُ تحقيق ربح مُجزي. وإنِّي متأكدٌ كذلك أَنَّ أي أوروبي مُتعوِّد على هذا المناخ منذ عُمرٍ مبكر، وله معرفة باحتياجات البلاد، يمكنه تأسيس بيت تجاري في مدينةً الأُبيِّض، ويدير أعماله بجدية وحذر، ومِن الممكن أنْ يجني ثروةً طائلة مِن ذلك. لكن سوف تقابل الأوروبي صعوبات جَمَّة نتيجة لهذه المعاملة غير المعهودة عند الأهالي. وعموماً فهذا الوقت المناسب للدخول في مثل هذه المشاريع، لأَنَّ محمد علي باشا على وشك أنْ يفتحَ التجارة حُرَّةً للجميع.

إنَّ العُمْلَة المستعملة في كردفان هي العملة المصرية، فالقرش يساوي 3 ونصف بنس إنجليزيّ، والدولار ماري تريزه وكولن يساوي دولار وخمسة قطع مِن الفرانك، مِنها ثلاثة مختلفة القيمة، كُلٌّ منها 20 قرشاً. والدولارات في التعامل في دارفور تختلف قيمتها، نجد أنَّ الدولار يساوي 22 او 23 قرشاً وأحياناً يصل سعره 24 قرشاً. وعند التأكد مِن صحة عملة الدولار، فإنَّ أهالي دارفور لا ينظرون للنقاط السبعة التي على العملة أو النقاط التسعة التي على التاج أو للأحرف F، S في حالة العملة الحبشية. ولا توجد عملة نحاسية، لكن يوجد قليلٌ مِن العَملة الفضية، فعند شراء القرش الواحد فإنَّ الدولار يساوي تسعة قروش مِن عُمْلَة إيقو. إلى جانب هذه العملات المَتداولة هناك عملة حديدية تسمي الحَشَّاشة كانتْ متداولة في عصر سلطان دارفور، وهي إلى الآن مستمرة في التداول، وهي قطعة صغيرة مِن الحديد طولها ما بين 2 إلى 3 بوصات على شكل الهلب، ويساوي الدولار الواحد

150 قطعة منها، ويمكنُ أنْ تزيد القيمة حتى تصل 250 قطعة. وقد ازدادت القيمة حالياً ووصلت إلى 800 قطعة مقابل الدولار الواحد.

إنَّ الموازين هي نفس الموازين المستعملة في مصر. القنطار الواحد يساوي 100 أو 112 رطلاً أو 44 أوقية. والرطل يساوي 144 أوقية. والأوقية تساوي 400 درهم، و44 أوقية تساوي مائة زنة. أما مقياس القطن هو الأردب الذي يساوي 24 مُدَّاً. فأردبين يساويان 3 سنتا جوتريستية. ويتمُّ تَداول القطن كسلعة تشبه العملة. وكذلك هناك معاملات بسيطة تجري مثل نصف قَرَعة مِن غلة الدخن، أو ملية كفين تكون بدلاً عن العملة. والمقياس المُتَدَاول لدى الأهالي هو ياردة، ويبدأ قياسه مِن مرفق اليد وحتى الأصابع السباب زائدا عرض أربعة أصابع.

(16)

حملات محمد علي لصيد الرقيق

هناك مجموعة مِن الرحالة الذين زاروا بلاد الشرق وخاصةً مصر، وأوضحوا بأمانة المعاملة الإنسانية التي يتلقاها الرقيق في هذه البلاد. ولكن رغم عن ذلك فإنَّ قلة مِنهم ممَن يَعرف كيف تقع هذه المخلوقات التعيسة في الأسر؟ والمعاملة التي يتلقاها الرقيق عند آسرهم مِن الأتراك والعرب وبعض الأمم الشرقية. فمهما تكن حُسْن المعاملة؛ فإنَّها تُعتبر تعويضاً ضئيلاً مقابل فقدانهم لحريتهم. ولكي نسمع عن هذه المعاناة التي يلاقونها، فإنَّ هؤلاء التعساء القليل منهم فقط مَن يظل على قيد الحياة لكي يحكي قصته، فنصف الرقيق المأسور يموتُ في الطريق نتيجة للمعاملة الوحشية التي يتلقاها قبل أنْ يصلوا لمقصدهم الأخير. ووالي مصر محمد علي باشا يُحَدِّدُ مرتين سنوياً مِقدار العدد المطلوب جَمْعه مِن رقيق جبال النوبة والمناطق المجاورة له، ويتمُّ أسرهم بخدعهم واستخدام القوة ضدهم، وقد تمَّ استعمالهم كبديلٍ للنقود؛ لدفع المستحقات المتأخرة لمرتبات الجنود بدلاً مِن المال النقدي. وأترك للقارئ تقدير أي عذرٍ يمكنُ أنْ يجده لمثل هذه الإجراءات، لكنه مِن جانبي فإنَّني لن أخوضَ في هذا الموضوع، ويتركز بحثي على إعطاء صورة صحيحة عن الكيفية التي يُدِيرُ بها محمد علي عملية صيد الرقيق.

لقد تحدَّثتْ مجموعةٌ مِن الصحف الأوروبية عن وضع حدٍّ لغزوات صيد الرقيق بقيادة والي مصر بمناسبة زيارته لسنار. ولكن أؤكد للقارئ أنَّ هذه الأوامر ما هي إلَّا حديث تذروه الرياح، وإنَّ هذه الاعتداءات تقع في كُلِّ يومٍ. وليس هناكَ قلم في مقدورهِ أنْ يصفَ عمليات القسوة المتعمدة

التي تُرتكَب بشكلٍ متكرر، ووحشية مُفرطة في هذه الغزوات. وأنا متأكد أنَّ محمد علي باشا يعلمُ بِكُلِّ تفاصيلها، فهو يُزَوِّدُ هذه الحملات بضباطه كرؤساء لها، وهو لا يمانع إطلاقاً فيما يقومون به طالما كان ذلك في مصلحته. بجانب أَنَّ مِن سوء حظ إقليم كردفان أَنَّه يقع على مسافةٍ بعيدة مِن مركز العدالة التي مِن الممكن أنْ تسمع صوت الموجوع الحزين. أَمَّا بالنسبة للذين عليهم أنْ يبلغوا عن هذه الأفعال غير الإنسانية فإنَّهم يحجمون عن التبليغ، لأنَّ ذلك يجعلهم يدينون أنفسهم، وعبء استمرار هذا، يجدد المصير الدموي الذي يقعُ على سكان جبال النوبة التعساء. وفي عام 1828م أي بعد أربعة أعوام مِن الفتح، فإنَّ عدد الرقيق الذين تَمَّ اصطيادهم يقدر ب 40 ألف نفس. وفي العام 1839م بلغ الرقم على أقلِّ تقدير 200 ألف، وذلك دون التعرف على الأعداد التي خُطِفَتْ بواسطة البقَّارة، والتي قام الجلَّابة بشرائها منهم.

فورَ انتهاء فصل الأمطار يتمُّ تنظيم حملات اصطياد الرقيق التي تُسَمَّى الغزوة، وذلك بتجهيز الجِمَال للرحلة. وكُلُّ جندي مِن المشاة يُخَصَّصُ له جَمَلاً للركوب، ودائماً ما يكون عدد الجِمَال مضاعفاً لعدد الجنود لأنَّها تحمل السلاح والذخيرة، وباقي المؤن والمهمات العسكرية. ويتمُّ تجهيز المعدات للحملة بقيادة مباشرة مِن القائد العام، الذي يتعاملُ مع أي شيء في هذه البلاد كمِلْكٍ مُسْتَحَقّ للحكومةِ، ويقوم بحجز أي شيء حتى يتمُّ توفير إمدادات الحملة، بجانب سرقة الجنود لأي ممتلكات ومؤن يجدونها أمامهم. عند انتهاءِ الفصل الممطر ينتهي حصاد الزراعة، والجنود بخبرتهم الطويلة يعرفون كيف ينبشون أماكن إخفاء المؤن الغذائية للزنوج الفقراء الذين ينتجونها بعرق جبينهم. ولا تُجدِي تخبئتها في جعلها بعيدة عن متناول هؤلاء الجند البربريين المتعطشين للاستيلاء عليها. ويتمُّ تخصيص دار حمر لأخذِ الجِمَال الضرورية لتزويد الحملة. ولما كانتْ جمالها صغيرة وغير مدربة للحمل على ظهورها؛ لذا على الجنود تدريب الجمال على الانحناء، لوضع

الأحمال على ظهرها والركوب عليها. ونجد أَنَّ التدريب غالباً ما يكون في مُدَّة تتراوح بين 10 إلى 14 يوماً قبل بداية سير الحملة. وهو تدريب يوميّ طِوَال فترتي الصباح، وحتى بعد الظهر. حقاً إِنَّه لمشهد مهيب أنْ تراقبَ مئات الجمال مجموعةً فِي مكانٍ واحد، وتشاهد كيفية إرغام الجمَال المتمردة على البروك في الأرض. والجَمَل الطَيِّع يظهرُ علامات الرضا بإصدار النوخ ويكتسبُ تدريباً جيِّدَاً، أَمَّا الجمَال غير المروضة فيتمُّ جذبها عنوة بالمئات؛ لكي تَبْرُكَ على الأرض. وترى أحياناً الواحد مِنهم لا يحسنُ ركوبَ الجمَال يقعُ مِنها، ويُصَاب بِعُدَّة جروح فِي جسده. لكنه على العموم في غضونِ عُدَّة أَيَّام ينقادُ الجمل لإرادة راكبه، عندها فإِنَّ العين لا تُصَدِّقُ أَنَّ هذه هي نفس الجِمَال التِي كانتْ قبل وهلة كسولة، وعنيدة.

عندما يكتملُ تجهيزُ لواء الرقيق الذي يتكوَّن مِن بين ألف شخص إلى ألفين مِن قوات المشاة النظامية، ومِن 400 إلى 800 مِن المغاربة المسلَّحين بالبنادق والمسدسات، ومِن 300 إلى ألف مِن قوات الأهالي راكبين على الهِجَن مسلحين بالدرقات والحراب. وراكبي الهجن ملابسهم بائسة حقيرة، فهم تقريباً شبة عُرَاة ما عدا قطعة قماش تُلَفُّ على خواصرهم، لكنهم يبدون خفة ورشاقة لا تُصَدَّقُ؛ لأَنَّه يتمُّ تدريبهم لمُدَّةٍ مِن الزمن قبل بداية الرحلة، وضرباتهم تصيب العدو رغم أَنَّ الهجن يكون مُنطلقاً بأقصى سرعة، وأمَّا صليل رماحهم فِي الهواء وشعرهم الأشعث الذي يتطايرُ مِن الرياح، ودرقاتهم المستطيلة التي تحمِي أجسادَهم، كُلَّ ذلك يعطي راكب الهِجَن مظهراً مُخيفاً يدخل الرعب فِي أشجع الرجال. لقد كنتُ دائماً ما أحضرُ استعراضاتهم، وأؤكد للقارئ أنِّي أخذَتُ وقتاً طويلاً قبل أنْ تألفَ نفسي منظرَ هؤلاء الهِجَن دون أنْ أشعرَ برعب خفي، ورغم أَنِّي كنتُ أعيشُ وسطهم، وليس لدي شيء أخاف عليه. فهؤلاء الناس يبدو عليهم التشويش، ومِن الصعب أنْ تتآلف معهم بيسر. حالما تنتهي التجهيزات تبدأ الحملة فِي التحرُّك مُزَوَّدَة بما بين مدفعين إلى أربعة مدافع ميدان، وطعام

يكفي ثمانية أيَّام. أَمَّا ما يُذبَح مِن ثيران وخراف وبقية الحيوانات التي تحتاجها الحملة، يتمُّ الاستيلاء عليها مِن كردفان، رغم أَنَّ المديرية عندها تكون قد أوفتْ بالالتزامات المفروضة عليها لتجهيز الحملة. ويتمُّ ذلك بكل الطرق، مثلاً إِذا صادفتْ الحملة فِي سيرها قطيعاً مِن الماشية يرعى أو يسقى بجانبِ البئر، تستولي عليه بدون أَنْ تسألَ عن ملكيته وأصحابه، هل هو لشخص واحدٍ أو لمجموعة أشخاص؟ والمساهمة الجبرية في طريق الحملة لا تتأثر بالنصيب المعين على الفرد الواحد الذي يكون قد أَوفى به سابقاً، بل تصادر ماشيته وتقعُ عليه الخسارة التي يتحمَّلُها وحدة دون أي يُبْدِي أي اعتراض أو احتجاج. فلا توجد إذن صاغية عندها لأنَّ الحاكم شخصياً يكون في قيادة ومرافقة الحملة.

فِي مشارف حدود كردفان فإِنَّ الأهالي يهرعون بإحضار مساهمتهم مِن الرقيق التي تعهدوا بالإيفاء بها. وهم يقومون بذلك بِكُلِّ طيب خاطر، لأَنَّهم يعلمون أَنَّهم إِذا لم يفعلوا ذلك فإِنَّهم سيتعرضون لمصير قاسٍ، وإذا أتوا طوعاً بنصيبهم مِن الرقيق فإِنَّ الحملة ستعفيهم مِن الاعتداء عليهم. لكن الحملة عندما تصلهم تكون تُعاني أيضاً شُحّاً في الحبوب الغذائية، لذا لا تقنعُ بالرقيق فقط، بل تطلبُ تزويدها أيضاً بالمؤن الغذائية. وقوة الحملة لا تضع أي اعتبار لنجاح أو فشل موسم حصاد هؤلاء الفقراء البائسين، بل إنها تفترض أَنَّ ما تطلبه منهم إمَّا أن يوفروه لها طوعاً، أو بالإكراه بالقوة؛ عندها فإِنَّه كما ذكرتُ فإِنَّ الجنود يمتلكون قدرةً هائلة على نبش المخازن المطمورة للحبوب الغذائية للأهالي، والتي تكون مُخَصَّصَة لاستعمالهم اليومي. بعدها تتحرك الحملة إِلى الجبل الثَّاني، وتعتبرُ نفسها في أرض معادية، فتتوقف على أطرافِ الجبل؛ لكي تستعد للهجوم فِي اليوم التالي، أو فِي نفس اليوم إِذا ما كان الوقت مبكراً، وقبل الهجوم يُرسَل لشيخِ الجبل شخصٌ؛ ليفاوضه بشكلٍ وُدِّي، ويأمره بالنزول إلى المعسكر ومعه عدد الرقيق التي يطلبها منه الضابط. فإِذا تَفهَّم الوضع وأذعن للقوات التركية، ولم يبدِ أَيَّة مقاومة،

وأحضر المفروض عليه مِن الرقيق، لن يكون هناك حاجة للهجوم وإراقة الدماء. فِي هذه الحالة يكون الرقيق عادة متطوعين يفدون باقي إخوانهم مِن الأسر ومصير الموت القاسي الذي ينتظرهم. ومنظر تقديم الفدائيين أنفسهم للأسر هو منظر يُقَطِّعُ القلبَ ويُحَرِّكُ أبرد المشاعر، فترى المتطوع لتسديد دين جبله ينفصل عن وطنه ووالديه وصلات رحمه وأقرانه وبيته، وكُلّ طيب عاشه منذ يوم ولادته، ويقوم بصبر جَلِد بمواجهه المستقبل المرعب والرق المستدام الذي لا يَعِده بشيءٍ سوي التعاسة والمعاملة القاسية والمصير المرعب. وتقتضي الضرورة بأنْ يتطوَّع واحدٌ مِن الأسرة ليفدي باقي أفرادها، فالأب يوافق ابنه على الفداء، والأخ يوافق أخاه على الفداء، وكل فرد يحاولُ أنْ يفدي الآخر على حساب روحه. وعند ذلك يكونوا مقتنعين أَنَّ ما أصابهم فوق طاقتهم، ولا محال أَنَّهم واقعون فِي قبضة الأتراك عديمي الرحمة، وأَنَّ ما ينتظرهم هو التعاسة والعذاب الذي ستكون مصيرهم المحتوم. ويصيبُ الأقرباء عذابات القلب؛ حزناً على مصير الذين سوف يفارقونهم إلى الأبد، ويتمُّ التوديع بالكثير مِن الأسى والدموع حتى طبع آخر قُبْلَة على خدود أقربائهم، ثُمَّ يذهبون بعدها للمعسكر؛ لكي يواجهوا القسوةَ والعذاب. في بعض الأحيان يتمُّ انتزاعهم بالقوة مِن أحضان أقربائهم وأعزائهم وأخذهم منهم، ويُكَافَأ الشيخ غالباً بكسوة مقابل أدائه لمهمته بجدية. وأغلب الجبال والقرى خضعتْ بالقوة أو طَوْعَاً، ما عدا الذين يقيمون فِي المناطق الوعرة وأعالي الجبال التي تتطلَّبُ صعوباتٍ كبيرة للوصول إليها، بجانب أَنَّهم سوف يدافعون عن حريتهم بثباتٍ وشجاعة لم تجد لها مثيلاً فِي مُدَّوَنَات التَّاريخ.

بعضُ المجموعات الصغيرة مِن الزنوج تفرُّ قبلَ أنْ يصلَ مضطهدوهم إليهم؛ لينجوا بأنفسهم وممتلكاتهم عبر التراجع إلى الجبال المجاورة، ولكن رغماً عن ذلك يتلقون ضرباتهم عند تقدم العدو، وكنوع مِن خيبة الأمل فإِنَّهم يفضلون المقاومة مِن أجلِ حريتهم. وإذا لم يُلَبِ الشَّيخ ما طُلِب منه

مِن رقيقٍ مفروض على القرية؛ فإنَّ على القرية أنْ تستعدَّ للقتال ضد الحملة. عند بدءِ الهجوم يحيطُ الفرسان وحملة السلاح بالجبل، وفي أثناء ذلك يحاولُ الجنود المشاة تَسَلُّق قمة الجبل. وسابقاً كانتْ القرى وأماكن تَجَمُّع الزنوج تُقصَف بالمدافع، ولكن تصويب المصريين غير المركز جَعَلِ مِن النادر أنْ تجدَ القذيفة هدفها، مِمَّا جعل الزنوج لا يهتمون لها بل تشجعهم أكثر على مزيدٍ مِن الصمود والمقاومة. لقد كان هديرُ المدفع في البدء يجعلهم أكثر حذراً، ولكن بعد توالي سماعه اعتادوا على ضجيجه، وصاروا لا يهتمون له، ويقومون بقفل المنافذ التي تُوصل لقراهم بمتاريسٍ مِن الأحجار، وبعض الموانع الأخرى. مع تزويد قراهم بحاجتها مِن المياه لِمُدَّة يومين مِن الينابيع المجاورة في الجِبَال أو مِن حافة الجبل. ومِن ثَمَّ تؤخذ المواشي والممتلكات لتؤمن في حصن في قمة الجبل. ويتمُّ إجراء كُلّ الترتيبات اللازمة؛ لأجل القيام بمقاومةٍ عنيفة ضدّ قوة الحملة، حيثُ يَتَسَلَّح الرجال بالرماح والدرقات ويرتكزوا على المواقع المهمة. أمَّا النساء فيشاركن الرجال بتشجيعهم بالهتاف وصرخات الحرب، أو تزويدهم للسلاح عند الحاجة إليه. والجميع يشارك في ذلك ما عدا كبار السن والمقعدين. والمحاربين يقوموا بغمس سهامهم في سم يحملونه معهم في أواني خشبية، ورغم أَنَّ السمَّ هو عبارة عن عصارة نباتية، إلَّا أنَّني لم أتعرف على مصدره النباتيّ، وقد علمتُ أنَّ سِرَّه معروف عند أشخاص مُعَيَّنين، وتوجد قرى لا تعرف كيفية إعداده.

عندما يصدرُ الضباط أمر الهجوم، ويبدأ الجنود المشاة بقصف الجبل، تظهر عندها الآلاف مِن الرماح والحجارة الكبيرة والعِصَي الهائلة، كُلُّها تهجم على مكانِ القصف، ويتخندَّق الزنوج في مواقعهم التي يرمون منها الأحجار، أو يصيبون منها أعدائهم برماحهم المسمومة، ليكونوا نقطة ارتكاز للهجوم على أيّ عدوٍ يظهرُ بشكلٍ غير متوقع. إنَّ الجنود يتكبَّدُون مشقة جسيمة عند الصعود على الحجارةً الملساء، وهم مضطرون لوضع بنادق المسكيت على ظهورهم لتسهيل مهمة الحَبْوِ على أيديهم، ومِن حين

لآخر يسقطون ضحايا مِن فوق الجبل قبل حتى أنْ يروا أعدائهم عن قربٍ. لكنهم عندما يصلون، فإِنَّ لا شيء يوقف تعطشهم للقوة عندما تقع أيديهم على فرائسهم البشرية، يحرِّكُهم دافع الانتقام وعدم الخوف مِن الموت، فِي تلك الأوقات فإنّ الجنود يطأون حتَّى جثث زملائهم الموتى، لأنَّ عقولهَم عندها مخصصة للقتل، عندها فإنَّهم يقهرون خصمهم ويحتلون القرية التي تعجزُ عن الوقوف أمامهم. بعدها يبدأ الرعب والإرهاب الذي يطال كبار السن والعجزة والنساء، الذين لا يقوون على فعل شيءٍ لحماية أنفسهم، وحتَّى الأطفال لا ينجون مِنهم، فهم يقتلون الطفل حتَّى ولو كان في بِطن أمه. ويقومون بنهب الممتلكات أو تحطيمها، ومَن يقع فِي أيديهم في الأَسْرِ يُقَاد للمعسكر ليتمَّ استرقاقه. لذا تجدُ أَنَّ الزنوج عندما يقتنعون بعدم جدوى المقاومة، يفضلون الانتحار على الوقوع في الاسترقاق، وذلك بأنْ يشقَّ الأب بطون زوجته وأطفاله، ويقتل نفسه فِي الأخير؛ لكي لا يقعوا فِي أيدي أعدائهم. البعض منهم يستطيعُ التسللَ والهروب للاختباء فِي الكهوف الجبلية، حيثُ يقضون عُدَّة أيَّام بلا طعام مُستلقين على ظهورهم. وقد قيل لِي أَنَّ الإنسان يستطيعُ تحمُّل ثمانية أيَّام بلا تغذية، إذا ما تغلَّب على مشقة الثلاثة أيَّام الأولى. ولكن رغم هذا التخفي فإنَّهم ليسوا بمأمن، فهم مُهَدَّدُون بالاصطياد أو بالقضاءِ عليهم فِي أماكن لجوئهم، حيثُ يقومُ الجنود بإغلاقِ الكهوف بحرقِ مادة الفسفور الملتهبة التِي تُخرِج أبخرةٍ مُهَيِّجة، مِمَّا يضطرُ هؤلاء الفقراء البؤساء إلى الخروج زاحفين على أيديهم وتسليم أنفسهم، أو الاختناق والهلاك فِي أماكنهم بسبب استنشاق الدخان السام. ويُساق كُلُّ الزنوج سيء الحظ، والذين فعلوا ما في وسعهم للحفاظ على حريتهم، يُسَاقوا كأسرى إلى المعسكر وتُنْهَب منازلُهم ويُستولَى على قُطعانهم مِن الماشية، ويقومُ مئات الجنود بتمشيط الجبل مِن كُلِّ الاتجاهات للاستيلاء على الحبوب الغذائية. مصير مَنْ يهرب وينجو مِن الأسر بعد ذهاب الحملة، هو الرجوع إلى قرى خاوية لا يوجد بها ما يَسدُّ الرمق أو يشتري احتياجاتهم. إِنَّ خبرة السنوات الطويلة جعلتْ القوات المستخدمة

في الحملة تتعلَّمُ بالتدريج؛ لأنَّ الحملة في المرات السابقة كانتْ تفقد عند الهجوم حوالي ثلثها، وفي بعض الأحيان يصل العدد للنصف. لذا استحدثوا أسلوب اللجوء للحصار، ثُمَّ القصف في الحالات القصوى؛ لأنَّ هناك قلَّة مِن القرى التي بها ينابيع مياه مستقلة، وعندما ينقطعُ إمدادها بالماء يُضطرُّوا للاستسلام بدلاً مِن معاناة العطش. وغالباً ما تكون مؤنهم مِن الماء لا تكفي أكثر مِن يومين عندها فإنَّهم يُضطرُّون للاستسلام بعد اليوم الثالث مِن الحصار؛ مِمَّا يوقعهم في يأس تام سببه قلة الماء والخوف مِن تلقي المصير المؤلم في أيدي الأتراك المتعطشينَ للموت، وما يحدثُ عند ندرة المياه، هو زيادة صراخ الأطفال وأنين الماشية التي تجري وكأنَّها متوحشة في القرية، مِمَّا يضطرُّ الزنوج لذبحها في الأخير. وهم يقاومون بعدها بإيجاد طرق للهرب، لكنهم يُحَاطُون بإحكام مِن كُلِّ الاتجاهات، مِمَّا يجعلهم يفضلون الموت بأنفسهم ولعائلاتهم على الوقوع في الأسر، بعضهم يغلقون أنفسهم في الكهوف، والبعض الآخر يحاول تسهيل مهمة استسلام قريتهم. كُلُّ هذه الأهوال لا تُحرِّك ساكناً في نفوس مضطهديهم، فهم يبقون في هدوءٍ يشاهدونها منتظرين اللحظة التي يستسلم فيها ضحاياهم.

نجد أنَّ حالة ندره المياه لا تنطبقُ على كُلِّ الجبال، فهناك عُدَّة جبال مزودة بالمياه مِمَّا يجعلُ هناك صعوبة كبيرة في الاستيلاء عليها. وهو ما يرجحُ استعمال القوة كأمر ضروري؛ لذلك أيضاً فإنَّه في القرى التي تكون على سطح الأرض فإنَّها قد تُقاتِل باستماتة ضدّ أعدائها، مِمَّا يجعل الحملة مِن حين لآخر تتجنَّبُ المغامرة بالهجوم عليهم، مثلما يحدثُ في جبل الداير الذي يبعد مسيرة يومين مِن مدينة الأُبيِّض، والذي هوجم ثلاثة مرات بلا جدوى، ولقد عانتْ القوات مِن مراراتٍ كثيرة في الهجوم عليه. لكنهم أحياناً في مثل هذه الحالات يعرفون كيف يُوقِعون ضحاياهم بالحيل الشيطانية. فعندما قاد خورشيد باشا حاكم السُّودان عدة حملات فاشلة، قام بقصف جبل في بلاد الشلك، ورغم أنَّ ذلك أحدث ضحايا كُثُر، لكنه لم يكن مجدي، بجانبِ

وقوع خسائر كبيرة وسط جنوده، مِمَّا جعله يستعمل الخداع معهم. وهي خديعة لا يمكنُ أنْ يقع فيها غير أفراد هذه القبيلة ذات الخصال الجميلة. كانتْ الخطة أنْ عَسْكَرَ اسميا على حافة جبل مِن دون محاصرته، ومكثَ في هدوءٍ لعدة أيَّام، ومِن ثَمَّ أرسل أحد جنوده يطلب مِن السكان أنْ يرسلوا له 100 طبق مِن الطعام لجنوده بالمعسكر، ويقومُ بطمأنتهم أنَّه لا خوف عليهم منه، وأنَّه لن يُهاجم قريتهم، وسوف يرحلُ بقواته حالما يصله الغذاء المطلوب. عندها فإنَّ الأهالي ذوي الطبيعة السمحة لم يرتابوا في نواياه، ونسوا كُلَّ ما أصابهم منه، وتناسوا أحقادهم مقابل الطيبة غير المتوقَعة التي أظهرها لهم. على الفور أبدوا استعدادهم بقبول الشروط المطلوبة، وتمَّ تجهيز الطعام وحَمْلِه للمعسكر على يد 400 مِن البالغين. والآن قد انطلتْ عليهم الخدعة، فحالما وضعوا أطباق الطعام على الأرض، قام خورشيد بإصدار أمر بتطويق الجمع وصاروا أسرى تَمَّ خداعهم دون اللجوء للقتال أو ترك فرصة لهم للمقاومة.

إنَّ سكانّ الجبال الذين أُجبرُوا على الاستسلام كانتْ تُقطَع عنهم الإمدادات وخاصةً الماء، مِمَّا يجعلهم مضطرون لتسليم أنفسهم للمعسكر كأسرى. أمَّا الذين يدافعون مِنهم عن أنفسهم ويخوضوا الحصار، فإنّه عند تسليم أنفسهم يكون حالهم فظيع، فهم يعانون مِن عطش شديد، ولا يستطيعون الوقوف على أرجلهم لفترةٍ طويلة، كما أنَّهم لا يستطيعون التحدث. لكن بعد قضائهم عدة أيَّام في المعسكر يعودوا لحالتهم الطبيعية. وقد يوجد بين الأتراك مَن يشفق على هؤلاء المساكين ويُرسل الماءَ لمَن لا يستطيع النزول مِنهم على أقدامه مِن الجبل، فيقومون بِدَلق الماء على رؤوسهم لشربِ كمية قليلة، لأنَّ الإسراف في شرب الماء بعد العطش الشديد يؤدي إلى الهلاك. وبعضهم يُفَضّلُ الموتَ على تجربة معاناة أسرهم والمعاملة السيئة التي يلاقونها، بدءً مِن ضربهم بمؤخرة بندقية المسكيت، وتجريحهم بالرماح وضربهم بالسياط بدون رحمة. وطوال بحثي عن تجارة الرقيق لم أجد أي دليل

على اهتمام خاطفيهم بحياتهم أو تحسين معاملتهم، فكُلّ الاهتمام منصب في جعل هروبهم مِن الأسر مستحيل. لكنه مِن جانب آخر فإِنَّ الجلابة يعاملون رقيقهم بأسلوب أكثر إنسانية ما وسعهم ذلك، لأَنَّهم يعتبرونهم مِن ضمن أرباحهم، ولذا تجبُ المحافظة على حياتهم تجَنُّباً للخسارة. لكن الأتراك يعاملون الرقيق معاملة أسوأ بكثير مِن معاملة الحيوان. ويقومون حالما يجمعون عدد من 300 -ألف مِن الرقيق، بإرسال قافلة إِلى مدينة الأُبيض بصحبة قوات غير نظامية وأربعين مِن الجنود النظاميين بقيادة ضابط؛ ولِمَنْع الرقيق مِن الهرب تربط شِعْبَة حول أعناق الرقيق البالغين، وتختار الشِّعْبَة مِن شجرة متينة عودها لا يُكسَر، يصلُ طولها مِن ستة إلى ثمانية أقدام، وسمكها بوصتين ومتفرعة إلى قسمين عند المقدمة، وهي تُربَط على عنق الضحية بحيثُ يكونُ جذع الشجرة إلى الأمام، ومَفْرَق الشِّعْبَة يُربَط مِن الخلف على العنق مكسواً بقطعة مِن الجلد الطري، وذلك ليتمكن الرقيق مِن السير وهو حاملاً جذع الشجرة في يديه مِن الأمام. ونجدُ أَنَّه ليس في مقدور مخلوقٍ أَنْ يطيق هذه الوضعية لمدة طويلة مِن الزمن؛ لذا لتبادل الَراحة فإِنَّ الذي في الأمام يحملُ على كتفه جذع الذي يكون خلفه لإراحته قليلاً. ومِن المستحيل لأحدهم أَنْ ينجحَ في إخراج رأسه مِن الشِّعْبَة؛ لأَنَّ ذلك سيسبِّبُ له جروحاً وتقرحاتٍ تؤدي لالتهاباتٍ خطيرة ومميتة. ونجدُ الأطفال من عمر 10 إلى 14 سنة والذين لا يطيقون حمل الشِّعْبَة، يُقَيَّدُون بقيود مصنوعة مِن الخشب تُربَط بالخلاف، اليد اليمني مِن الطفل تقابل اليد اليسرى مِن الآخر، تكون مربوطة مِن الرسغ بشريط، ويتم كشط القيد لكي يُسمَح بدخول يد الطفل ممَّا يُسَبِّبُ قروحاً مؤذيةً له. ولا تتمُّ معالجة الجراح أو قطعها حتى تصلُ لمرحلة الغرغرينا، فالمهم هو إيصالهم بأي ثمنٍ إلى الأُبيِّض بدون أَنْ تُفَكَّ قيودهم. وعليك أَنْ تتخيَّلَ ما يعاني هؤلاء مِن مشقَّةٍ وتعذيب في السير، زيادة على ذلك عليهم أَنْ يتحمَّلُوا الألم مقابل وجبةٍ بائسة، وأَقصى درجة مِن سوء المعاملة، حتى تخور قواهم أو يصيروا ضِعَافاً لا يقون على مواصلة السير. أمَّا الأطفال الأصغر سناً فإِنَّهم يُترَكوا ليذهبوا طليقين بدون قيود.

تجدُ أيضاً مجموعةً مِن الأمهات حديثات الولادة يحملنَ أطفالهن المولودين قبل أَسْرَهُنَّ بأيَّام قليلة، ويقومون بحملهم على صدورهن. ومِن الممكن أنْ تحملَ الأم على صدرها ويديها أو على ظهرها اثنين أو ثلاثة مِن أطفالها الصغار غير القادرين على السير. أما العَجَزة مِن الرجال والذين يتوكئون على العصا بصعوبة، والمصابون والمجروحون يتمُّ توسيطهم بجانبِ بناتهم أو زوجاتهم وأقاربهم، لكي يساعدوهم في السير ببطء، أو يحملوهم بالتناوب. وإذا تأخر أحد مِن سيء الحظ، فإنَّه يتلقى ضربةً بمؤخرة بندقية المسكيت أو بالسوط ليزيد مِن سرعته. وإذا أصبحت مجموعة مِن هؤلاء التعساء غير قادرة على مواصلة السير، يتمُّ ربط عشرة أو عشرين منهم بالحبل على سرج جمل وإجبارهم على السير. وحتَّى إذا أظهروا الألم والأنين أو وقعوا على الأرض، فإنَّهم يُجَرُّون بدون شفقة، ولا يُطلَق سراحهم حتى لو مات، إلَّا في حال وصول الحملة لمكان توقفها المقرر. ولا يعطي قساةُ القلب مِن الأتراك لهؤلاء المساكين أي وجبة طعام جيدة، أو ماء يتناولونه عند العطش مِمَّا ينقذ حياتهم. عندما تصل القافلة موقع الراحة يطلق سراح المجرورين على الأرض، أمَّا الموتى والمنهكين القريبين مِن الموت يُقذَف بهم في الرمال بلا شفقة ليواجهوا مصيرهم. ولا تلين القلوب القاسية لهؤلاء بأي ابتهالات أو تضرعات يظهرونها لهم، وهم حتَّى لا يسمحوا للزوجة أنْ تسمع وصية زوجها، وللطفلِ أنْ يطبعَ قبلة الوداع الأخير على خدِّ والده. فمِن غير المسموح الاقتراب مِن هؤلاء التعساء أثناء تسليمهم لأرواحهم، وحتَّى عندما تتحرَّك القافلة فإنَّهم لا يتركون لهم كسرة خبز أو جرعة ماءٍ، بل يُترَكُون ليواجهوا مصيرهم المحتوم بأسرع فرصة ممكنة. بعد 6–14 يوم مِن تحرك القافلة فإنَّها تصل إلى الأُبَيِّض بعدد أقل بكثير مِن العدد الذي تحرَّكتْ به، بسبب المعاملة غير الإنسانية التي تلقاها الأسرى، ولا يهتمُّ الجنود بهذه الخسائر، ويعتبرونها لا تعني لهم شيء، بل مُجَرَّد خسائر في الممتلكات الحكومية.

يبقى الرقيقُ في الأُبَيِّض حتى يتمُّ تجميع كُلَّ العدد، بعدها يتمُّ توزيعه، يتمُّ إلحاق الرجال متيني البنية كمجندين في الجيش، ويُسَلَّم الباقي لرئاسة القوات في كردفان لتدفع تعويضات عن متَأخرات مرتبات الجنود. وتُقَدَّر قيمة الرقَيق الواحد بـ 300 قرش، لكن تَقِلُّ قيمة الصغار منهم. ويضطرُ الجنود في الأخير لبيعهم أو مقايضتهم مع التجار. وإذا ما مات الرقيق أو كان مجهَداً لا يجلبُ مبلغاً جيداً، أو حتَّى صغير السن، فإنَّ الجندي يتحمَّل الخسارة. وفي الأخير فإنَّ ما يصلُ الجندي مِن بيع نصيبه مِن الرقيق لا يُغَطِّي نصف استحَقاقه مِن الراتب، عندها فإنَّه يقومُ بالانتظار سنةً أخرى لكي يكون لديه مستحقات جديدة. وليس مِن الغريب أن تجدَ جندياً يأخذُ عِوَض عن متأخرات مرتبه أحد أقربائه، فتجدُ ابن يملك أبيه رقيق، أو أب مالكٌ لابنه، أو شقيق مالك لشقيقه. وأحياناً يضطرُّ لأنْ يتحدَّى مشاعره الإنسانية، ويبيعه بسبب وجود جندي آخر يشاركه قيمته. ورغم أَنَّهم ملزمون بأخذ مستحقاتهم رقيق، فإنَّ ما يتقاضونه مِن البيع أقل مِمَّا يُقَيِّمُ به الرقيق. في الأخير فإنَّ ما يتبقى مِن رقيق بعد توزيعه على الجيش والجنود، يتمُّ الذهاب به للسوق وعرضه لمن يدفع أعلى سعر.

(17)

وصف حملات صيد الرقيق في عامي 1838-1839م

فِي نهايات عام 1838م أصدر الوالي أمراً لمديرية كردفان للمساهمة بخمسة ألف مِن الرقيق. على أنْ يُنفِّذ ذلك فيلقاً مِن القوات مكوَّناً مِن 2400 مِن المشاة، و750 مِن المغاربة الفرسان البدو، و200 مِن الفرسان غير النظاميين، و300 مِن راكبي الهِجَن، و1200 مِن الأهالي مُسَلَّحين بالرماح والدرقات بصحبة ثلاثة مدافع. تحرَّكت هذه الحملة في نهاية شهر نوفمبر 1839م. لقد زُوِّد كُلّ رجلين مِن المشاة بجَمَلٍ واحد، لأنَّ الحملة لم تتمكن مِن الحصول علي الأعداد الكافية مِن الجِمَال. فتحرَّكتْ كُلُّ هذه الأعداد الهائلة؛ لترحيل المُعِدَّات والماء والخيام والمعدات للقوات، بجانب علف الماشية التي اصطحبوا كمؤن للذبح. لكنهم أخذوا معهم مؤن غذائية لا تكفيهم سوي عُدَّة أيَّام، على أمل أنْ يحصلوا على احتياجاتهم بعدها عن طريق السلب والنهب. إنَّ أوَّل جبل وقع عليه الاختيار هو أحد الجبال التي يقطنها النوبة، ولأنَّهم عانوا مِن قبل بنقص مريع في أعدادهم مِن نهب قوات محمد علي باشا والبقَّارة، فإنَّهم أصبحوا يُفَضِّلُونَ تجنُّب المواجهة والتسليم. وقد سلَّم شيخ المنطقة أوَّل واحد نفسه للمعسكر بصحبة أعوانه الذين يصلُ عددهم إلى 126 شخصاً. لكن الأتراك سمحوا للشيخ بالمغادرةِ وأعطوه كسوةً هدية، وقاموا بشد وثاق الشباب على الشِّعْبَة، وترحيلهم في اليوم التالي للأُبيِّض. لقد أخبرني الشيخ بنفسه بأنَّه قبل 18 عام مِن دخول الأتراك لقريته، فإنَّ تعدادها وصل لثلاثة ألف شخص. ولكن بسبب زيادة طلبهم للرقيق، فإنَّ عدد أهالي القرية تناقص حتى بلغ 196 شخصاً. وقد عُومل أسرى هذه القرية بشيءٍ مِن الإنسانية، ولم تحدثْ بينهم أي حالة انتحار

واستسلموا لقدرهم المرعب. بعد ذلك صارتْ القوات في حاجة ماسة للغذاءِ، لأنَّه لم يتبقَ معها سوي قليل مِن الدخن، وهو ما اضطرهم لسرعة التحرك مِن القرية. وقد فُوجِئ الجنود عندما وصلوا الجبل الثاني وشاهدوا أنَّه تمَّ إخلاءه قبل وصولهم. فقد علم الأهالي بتقدُّم الفيلق نحوهم ففروا بممتلكاتهم وماشيتهم ولم يتركوا شيئاً غير أكواخهم الخالية، حيثُ قام الجنود بحرق القرية الخاوية وتسويتها بالأرض. مِن ثَمَّ تحرَّكت القوات إلى الجبل الثالث، الذي قرر سكانه الثبات والدفاع عن حريتهم لأقصي حدٍّ، وأنْ يقاوموا بعناد مُفَضِّلين الموت على الوقوع أسرى في قبضة الأتراك. تمَّ قصف الجبل عدة مراتٍ، رغم ذلك واجه الجنود مقاومة واستطاعوا صدهم عدة مرات، لكنه في الأخير تمَّ دخول القرية بالقوة. عندها فإنَّ ما حدث هو مشهد مرعب ومأساوي، فمن جملة 500 مِن أهالي القرية تَبَقَّى منهم 88 فقط. ووجدوا كُلَّ الأكواخ مليئة بجثث الكبار والشباب الذين قتلُوا أنفسهم بأيديهم، مُفَضِّلين ذلك على تقبل المصير الرهيب الذي يلاقونه عند الأسر. وقد تمَّ إبعاد الأسرى الأحياء مِن القرية، وترك الباقي للجنود لكي يقوموا بنهبه، ثُمَّ غادروها تاركين ورائهم الجثث لتتفسخ. وإني أتخيَّلُ مقدار الرعب الذي سيقابله مَن هرب ونجا منهم عندما يعود إلى قريته، ويجد كُلّ أهله وأقرانه تحوَّلوا لجثث متفسخة ورمادٍ محترق.

لكي تقومَ الحملةُ بتنظيم الجنود قبل الهجوم تتمُّ إقامة معسكر، ثُمَّ يُرسَل جنودٌ للبحث عن غذاء. ومواصفات المعسكر أنَّه يقوم في العراء في ساحةٍ مربعة مسورة بالشوك أو بأغصان الأشجار أو بالحجارة. يكون بداخله المشاة النظاميين والمدافع والمعدات، ويحيطُ به مِن الخارج الفرسان وحاملو الرماح، مِن الذين ليسوا جزءً مِن النظام الداخلي العسكري ولا يتبعون قوانينه عسكرية. يتمُّ تنظيم دورة حراسة للجنود لكي يكونوا متيقظين لصدِّ أيِّ هجوم مفاجئ قد يشُنُّه الزنوج ليلاً، لكن الجنود غالباً ما يكونون متعبين وغيرَ راغبين في بذل أيَّ جهدٍ سوي نصب الخيام ثُمَّ

انتظار الأوامر العسكرية لفكها، وإنهاء المعسكر استعداداً للهجوم التالي. يبدأُ التحرُّك بإرسال فرقة مُقَدِّمة مِن الفرسان تبعد ميلين عن الحملة، وتقوم بتطويق الجبل قبل الهجوم. لكن كم كانت مفاجئتهم كبيرة عندما وجدوا الزنوج مستعدين لهم وهاجموهم بأعدادٍ كبيرة، مسلحين بالحراب والدرقات، وقد خرجوا مِن مخابئهم يصدرُ منهم صراخ مخيفٌ يتزايد مع هتاف النساء اللاتي يهجمن معهم، وتشبه أصوات نسائهم أصوات النساء العربيات عندما يطلقن صيحة «لولولوا». وقد قاموا بالهجوم على أعدائهم مِمَّا جعل الفرسان يفرُّون هاربين. وقد قُتِل واحد مِن قادة البدو المغاربة في ذلك، فقد تفاجأ حصانه بالهجوم وجَفَل، وعندما صوب بندقيته نحو أَحد مهاجميه لم تنطلق الرصاصة، عندها وقبل أنْ يستعمل مسدسه أو سيفه لإنقاذ نفسه تَمَّ تمزيقه وذبحه، وقد هرب الفرسان المرافقين له ولم يبدو أيَّ محاولةٍ لإنقاذ قائدهم، بل كان كُلُّ واحدٍ يبحثُ عن طريقه الخاص للنجاة. وهروب الفرسان هذا ليس بسببِ الجبن، لكنه لتقليل للخسائر المحتملة، فهؤلاءِ البدو قد غُرِّرَ بهم بوعود خادعة، وأُخذِوا مِن سهول بلادهم ليتمَّ استخدامهم في حملات صيد الرقيق المرعبة مقابل راتب ضئيل جداً، وهم لا يتوقعون غير ما يكسبونه عن طريق النهب والسلب. فمِن المحتمل أنْ يفقد البدويّ حصانه دون أنْ يرتكب خطأ، وحصان البدوي مِن ممتلكاته الخاصة وإذا فقده في مهمة رسمية، لا يتوقع مقابله تعويضاً مِن الحكومة، في حين يكون ليس بمقدرتهِ شراء حصاناً أخراً. وعندما يُعطَى حصانٌ آخر فإنَّه يجبر على تسديده مِن راتبه الضئيل، وهو ما يدخله في معاناةٍ حقيقية تستمرُّ عدة سنواتٍ مِن المال المقتطع مِن راتبه مقابل قيمةَ الحصان. لقد أخبرني شيخٌ البدو والضابط القائد شخصياً، وأكدوا لي أَنَّ البدويين يعملون ما في وسعهم لكي لا يغامرون بخطر فقدان خيولهم في المعارك، لذا فإنَّ أداءهم العسكريّ غير فعَّال، فقد أدركِ الزنوج أنَّه عند مواجهه الفارس في المعركة عليهم أنْ يصيبوا الحصان، فهو أهمّ مِن الفارس الذي سيصبح فريسة سهلة تحت أيديهم.

عندما ينتهي هجومُ الفرسان فإنَّ الضابط القائد يصدر أوامره للجنود المشاة بالهجوم. فإذا نجح المشاة في الانتصار وتفتيت مقاومة الزنوج، فإنَّ قوات الفرسان غير النظامية تعود مرة أخرى للانتقام لمقتل شيخها الذي قُتِل في بداية المعركة. لكن ما حدث كان غير ذلك، فعند بزوغ أوائل الفجر بدأ الجنود المشاة سيرهم للهجوم، ووضع الفرسان في الخلفية استعداد للدعم. وصدرتْ أوامر بتوخي الحذر عند الهجوم، وتمَّ قذف القرية بعُدَّة قذائف مدفعية، لكن ذلك لم يحدث أيّ تأثير. وعندما استمرَّ الطرف المقابل في حالة هدوءٍ وسكون تام، تقدَّم الجنود المشاة لبدءِ الهجوم البري، عندها فإِنَّ الزنوج المختبئين ظهروا وقاموا بتطويق قوات المشاة، مِمَّا جعلها في وضعية عسكرية حَرِجة بسبب رغبتها الشديدة في غزو الجبل. زاد الأمر سوءً عندما تقدَّمت قريتان مِن الجبل ذات كثافة سكانية عالية ودعمت هجوم القرية الأولى. مِمَّا حَوَّل حصار القوات المصرية إلى هزيمة للقوات، ولم يتمكن جندي واحد مِن الهرب، بسبب أنَّهم حُوصِروا في وادي ضيق مُحاط بالجبال مِن كُلِّ اتجاه، مع عدم وجود إمكانية لدعم قوات الفرسان لهم. في الأخير عندما أحاطه الزنوج بأعداد كبيرة مثل السحابة السوداء، وتدفقوا عليها بالمئات، لم تتمكن قوات المشاة مِن التصدي للهجوم وتمَّ القضاء على كامل اللواء العسكري، وقد هاجمهم الزنوج هجوماً كاسحاً مندفعاً، لم يهتموا فيه لأرواحهم وحصد الطلقات النارية لهم، بل عملوا رماحهم بِكُلِّ براعةٍ في أجساد الجنود المطوقين. عندما رأى الضابط المصري ما حدثَ لقوات المُقَدِّمة، فإنَّه أعطى أوامره بالانسحاب الكامل. وبسبب قوة الزنوج الذين لا يهابون الموت تراجعتْ القوات بشكل عشوائي خاصة أنَّه غير مدعومة مِن قوات الفرسان التي وقفتْ على مبعدةٍ مِن مكان المعركة. ولم تتوقف القوات التي تفرَّقَتْ عشوائياً إلَّا بعد أنْ خرجتْ نهائياً مِن المنطقة التي قامتْ بالهجوم عليها سابقاً، ولأنَّه لا يمكنُ إقناعها بأنْ ترجع للهجوم على نفس الجبل الذي تلقت فيه هزيمة قاسية، بسبب انهيار الروح المعنوية للقوات، وارتفاع الروح المعنوية لدرجة كبيرة للزنوج، فحتَّى بندقية المسكيت لم

تستطع إرهابهم. وقد سنحتْ لي فرصة أنْ أشاهد شخصياً قوة وجسارة أهالي الجبال الذين يندفعون كالعُمْيان نحو السلاح الناريّ دون حتَّى أنْ يراعوا لجراحهم التي يُسَبِّبُها لهم. في الأخير بعد تجميع القوات المتشتتة ثانية تَمَّ إصدار الأوامر لها بالتحرُّك نحو جبالٍ أخرى، وفي غضون أَيَّام قلائل استطاعوا الاستيلاء على عُدَّة جبال فِي منطقة النوبة، وقَد تَمَّ إرسال الأسرى فوراً لمدينة الأُبَيِّض.

بعد ذلك تحرَّكَتْ الحملة جنوباً حتَّى وصلت ديار قوم مختلفون عن النوبة في العرق واللغة والعادات، وأشكالهم مختلفة فهم يضعون حلقات من النحاس الأصفر في حلمة آذانهم حتَّى تغطيها بالكامل. ورجالهم يضعون أسنان مقاس بوصة وطولها بوصتين فوق الذقن وذلك بثقب الشفة السفلي منذ الصغر وتثبيتها برباط ضام. وهم رغم بعض التشابهات بينهم وبين العرب والزنوج إِلَّا أَنَّنِي لاحظتُ أَنَّه لا يأكلون الطعام بأيديهم كما يفعل هؤلاء، بل يستعملون قطع مُحار أو خشب على شكل معلقة ويتناولون بها الطعام. وتسكنُ هذه القبيلة قمة أحد الجبل، مِمَّا يعني صعوبة الوصول إليهم ومهاجمتهم، وعندما علم الضابط القائد بهذه المعلومة قرَّرَ محاصرة الجبل؛ لكي يستسلموا في الأخير بسبب العطش، وقد استمر الحصار ثمانية أيَّام بعدها دبَّ الوهن والضعف في هذه المخلوقات البائسة. فرغم أَنَّهم ذبحوا ماشيتهم في أوَّل أيَّام الحصار لتقليل استهلاك الماء، إِلَّا أَنَّه في اليوم السادس مِن الحصار ماتَ الكثير مِن الأطفال، وكبار السن مِن جراء العطش، في اليوم السابع صار الهلاك رهيباً؛ ولذا قرروا التسليم، رغم أنَّ مجموعة منهم قامتْ بهجومٍ أخير يائس، ثُمَّ قاموا بالفرار بعدها. في اليوم الثامن دخل المئات منهم فِي عذاب عظيم بسبب العطش، وقام جزءٌ منهم بقتل أنفسهم بِبَقْرِ بطونهم بالسكاكين، ثُمَّ استسلمت المجموعات الأصغر سناً لأعدائهم. وكانتْ المحصلة أَنَّه مِن ألفين مِن الأشخاص الذين عاشوا في هذا الجبل قبل مَقْدَم القوات، فانه وجد 1049 منهم أحياء، وهلك البقية

بسبب العطش أو الانتحار. عندما دخلتْ القوات القرية كانتْ الأكواخ ملأى بالجثث، بجانب التعساء الأحياء الذين استنزفهم العطش والتعب، وصاروا لا يتمكنون مِن الوقوف على أرجلهم. وتمَّ إخراجهم عبر ضربهم بمؤخرات بنادق المسكيت وبالجلد بالسوط لكي يُجبَروا على الوقوف ويُقَادوا للمعسكر. وقد تَمَّ إرسالهم فوراً كأسرى إلى مدينة الأبيض لكنه بسبب سوء المعاملة فإنَّ 150 شخصٍ آخر لقوا مصرعهم أيضاً. حدثَ في اليوم الرابع مِن مسيرةِ قافلة أسراهم أَنَّ امرأةً عجوزاً فقدتْ عقلها وأصبحتْ تئن مِن إرهاق السير الطويل، فما كان مِن أحد الأتراك إلَّا أنْ ضربها بمؤخرة بندقية المسكيت مِمَّا ألقى بها أرضاً، فما كان مِن ابنها الذي شهد منظر تعذيب أمه الرهيب هذا، وفقد السيطرة على نفسه فاندفعَ بضراوةٍ على الجندي التركي وضربة بالشعبة التي تقيِّده فطرحه أرضاً. بعدها شارك مجموعة أخرى مِن الزنوج في الهجوم على القوات بسرعةٍ قبل أنْ يستعدُّوا بالوصول إلى بنادقهم، وتحت جنح الظلام استطاعوا ضربهم وهربَ 65 زنجي مِنهم. لكن البقية مِن الأهالي الأسرى كانوا يشاهدون هذا المنظر بلا مُبالاةٍ تامة مِن فرط العنف والقسوة الدموية التي شاهدوها سابقاً في أكواخهم بالقرية.

استمرَّتْ باقي الحملة في المسير واستولتْ على جبل آخر لكن مع تكبُّد بعض الخسائر. فالقرية الجديدة كانتْ واقعة على منحدر ويوجد طريق واحد فقط للوصول إليها، وبها مياه وفيرة مِمَّا يعني أَنَّ حصارها لا يُجدِي شيئاً. لذا تَمَّ إصدار الأمر بقصفها مِن كُلِّ الاتجاهات، ورغم شجاعة رجالها، إلَّا أَنَّ القذائف أوقعتْ فيهم خسائر جسيمة، وأصبح يُمكن رؤية بقعَ الدم تلطخ أي بوصة في الجبل. لقد كَمُن الزنوج في كُلِّ نقطةٍ يمكنُ أنْ توصل إلى القرية. فكُلُّ شجرةٍ، وكُلّ حجر، صار خَندقاً ومَكْمَناً لهم. وفي لحظةٍ واحدة اندفعوا للهجوم على أعدائهم مِن أعلى الجبل، عندها فإنَّ جدوى بندقية المسكيت صارتْ بلا فائدة، بسبب اضطرار الجنود للسير زحفاً على ركبهم مِمَّا يجعلهم لا يستطيعون استعمال البنادق. لقد عمل فيهم الأهالي

برماحهم قبل أنْ يتمكَّنُوا مِن النهوض على أقدامهم، وفِي أثناء سقوطهم جرفوا معهم زملائهم أيضاً؛ ليسقطوا في حافة الوادي الضيِّق. ورغم أنَّه تمَّت محاولة لإنقاذ الجنود بقصف القرية بالمدافع، إلَّا أنَّها لم تكن ذات تأثير يذكر، بسبب أنَّها كانتْ على مسافةٍ بعيدة؛ لتحاشي إصابة القذائف لزملائهم مِن الجنود. ورغم كثافة المقاومة وقوتها وظهور حالة لا يمكن تقدير موقف المنتصر والمهزوم منها، إلَّا أنَّه في الأخير تمكَّن الجنود مِن أنْ يثبتوا لهم موطئ قدم في أعلى الجبل، واستعملوا سلاحهم بفعالية ضد الأهالي. ورغم مقاومة الأهالي الشجاعة إلَّا أنَّه تَمَّ الاستيلاء على القرية وهزيمتهم. عندها فإنَّ الجنود قاموا بانتقام مِن أهالي القرية بقتل كُلَّ مِن قاتلهم، وامتدَّ الأَمر أيضاً ليشمل جزءً مِن النساء والأطفال وكبار السن. وتَمَّ إضرام النار في كُلِّ الأكواخ، ونهب القرية في فترةٍ وجيزة، مع ارتكاب أي وحشية ممكنة فَي هؤلاء الضحايا التعساء. ثُمَّ قاموا بإرسال الباقي مِن الأسرى إلى المعسكر، ومَن حاولوا الهرب بالاختفاء فِي الكهوف أو الوديان الضيقة فَإنَّ مصيرهم كان إمَّا الاصطياد بالسلاح الناريّ، أو خنقهم بالدخان لإخراجهم وقتلهم، أو تركهم للموت وتفسخ جثثهم في مخابئهم. إنَّ كُلَّ صنوف القسوة قد استعملتْ فِي هذه المعركة، ولم تتوقف عملية القتل حتَّى تَمَّ تصفية آخر شخص هارب منهم. وقام الجنود بنهب الممتلكات وحرق الباقي الذي لم يكونوا بحاجة إليه.

وهذا ليس آخر عذاب أصاب هؤلاء التعساء، بل ينتظرهم عذاب قاسي آخر أثناء مسيرة ترحيلهم إلى كردفان. ولسوء الحظ فقد كنتُ في عُدَّة أيَّام شاهد عيان على التعاسة التي تحمَّلها هؤلاء الأسرى المساكين. ليس هناك قلم فِي مقدوره أنْ يصف القسوة التي عانوها، والجراح النفسية الغائرة التي يحسون بها بسبب فقدانهم لحريتهم. بجانب تحمل عبء حَمْل الشِّعْبَة الثقيلة المربوطة فوق أعناقهم، ومعاملتهم بشكل أسوأ مِن الحيوانات، وقد كان أغلبهم مُثخن بالجراح بسببِ القتال السابق، أو يُعاني مِن تفسُّخ جلده

مِن الشِّعْبَة والوِثَاق الذي يُربَط به. بجانب أنَّهم كانوا يتعرضون للضرب والترك إذا لم يتمكَّن أيٌّ منهم مِن مواكبة مسير الحَمْلة. وقد كان صراخهم ونحيبهم وبكاء أطفالهم مِن فقدان ذويهم يذيب قلب مَن لا رحمة له. ولم يتأثر جلادوهم بشيءٍ مِن ذلك، فكُلّ همهم هو مسير الحملة، ومَن يتخلَّف مِن الأسرى يتمّ ضربه وجلده أو جرَّه للحاق بها. وهو ما يحدث بينهم إصابات كبيرة مِن عَرَج وعمي وأمراض، لكن هم الحملة كما قلتُ مِن قبل، كان تكملة عدد الرقيق المطلوب مِن الحملة في الأُبيِّض. عند صباح اليوم التالي وفي تمام الساعة 10 توقف السير، وتمَّ تقسيم الأسرى إلى مجموعاتٍ حسب أعمارهم، وسُلِّمُوا وجباتهم مِن جراية الدخن بدون ملح. والدخن صعب المضغ حتى للشخص البالغ، أمَّا الأطفال ضعاف الحنك الذين لا يستطيعون طحنه يضطرون لبلعه، ممَّا يسبِّبُ لهم آلاماً كبيرة عند التبرز، لأنَّهم لم يتمكنوا مِن هضمه، بجانب أنَّ ذلك يُسَبِّبُ انتفاخ وألم في البطن بسبب الغازات. ولتجنُّب ذلك شاهدتُ إحدى الأمهات تمضغ الأكل؛ لتطعمه لأبنائها. ويتمُّ تناول الطعام في مجموعات حسب العمر، فالأطفال يُنزَعون مِن آبائهم بالقوة ليأكلوا لوحدهم، وليس هناك اعتباراً للحالات المرضية والجرحى، ولا يوجد مَن يقوم بالعلاج وتضميد الجراح، بل تُعطَى للجميع نفس حصة الوجبة المقررة، ممَّا يضطرُّ أغلبهم لإنهاء بؤسه برمي نفسه على الرمال مُفَضِّلاً راحة أعضائه على تناول الوجبة. وإذا لم يستطيعوا إجباره على المسير، ويكون في حال لفظ لأنفاسه الأخيرة، فإنَّه يُقذَف جانباً ليلاقي مصيره أو تأكله الحيوانات المفترسة. وحتى الخبز لا يوجد في الطعام الهزيل الذي يُقَدَّم لهؤلاء التعساء، رغم أنَّه تُوجد الأدوات اللازمة لإعداده، لكنهم يضنون عليهم ويعتبرونه متعة عظيمة لا يجب أنْ تصلَ لهم، وعليهم أنْ يكتفوا بالطعام الذي لا يصلحُ حتَّى لأكل الحيوانات. بعد الاستراحة يتمُّ إطلاق إشارة للتحرُّك مِن جديد، ويُرغَم الأسرى على الانضمام لمجموعاتهم عند المسير، عبر إجبارهم بالضرب بمؤخرة البنادق أو السياط. وترى الرجال والنساء منحنيين للأرض مِن فرط الإرهاق، ومَن يتمُّ التأكد أنَّه لا يستطيع

السير منهم يُترَك ليموت في الرمال. ويُمنَع الأطفال أيضاً مِن الاقتراب مِن أقربائهم. فلا يوجد شيء يبقى لهؤلاء الكائنات التعسة سوي الأسى وهي تساق لهلاكها. ولتقليل الموت بينهم بسبب التعب، تقوم الزوجات والبنات بالاشتراك في حمل والدهم أو أمهم بوضع يده حول عنقهم أثناء المسير. ويُجبَر الأطفال مِن سن الرابعة وحتى السادسة على المسير، وعندما يصيبهم الإرهاق تحملهم أمهاتهم أو أخواتهم. لقد شاهدتُ بعيني أمّاً كانتْ تحملُ طفلاً في ساعدها، وآخر عمره سنتين في الساعد الثاني، والطفل الأكبر على ظهرها، حتَّى سقطتْ فاقدة الوعي مِن ثِقَل حَمْلِ الثلاثة. والضباط مِن قادة الحملة يُعتبَرون مسئولون عن قسوة جنودهم، فهم دائماً ما يكونون بعيدين في مقدمة أو مؤخرة مسير الحملة، ولا يعطون أوامر بالاهتمام بالجرحى، بَل يتركونهم تحت مصير الجنود الذين لا يعرفون الرحمة. وإذا كان يوجد قائد ضابط له مشاعر رحيمة، فإنَّ قيادته للحملة يمكنها أنْ تقلل لحد كبير مِن أعداد الموتى في الطريق. رغماً عن ذلك فقد شاهدتُ مرةً أحد الضباط مِن الذين يعطفون على الأطفال والمرضى، بأنْ أمرهم بالركوب على أحد الحيوانات المُحَمَّلة لأنَّهم لم يكونوا قادرين على مواصلة السير، وكذلك رأيتُه يحملُ أحد الطفلين ويردفه على حصانه، ويبدو أنَّه مِن النوع الذي يمتلكُ عقلاً ورحمة في أيَّام السلم، لذا فهو لا يريد أنْ يزيد مِن معاناة هذه المخلوقات سيئة الحظ التي ترافقه، لكن باقي رفاقه الذين لا يهتمون، لا يصيبهم أي عذاب ضمير على الموت المخيف الذي يسمحوا بحدوثه. قبل ساعة مِن مغيب الشمس صدر أمر التوقف، ووُزِّعتْ وجبةُ بليلة الدخن. ولكن عند الليل تبلغ تعاسة الأسرى الرقيق أقصاها، خاصة في شهر يناير عندما تتغير درجة الحرارة فتصل 14 درجة فهرنهايت، في هذا الحين ينزلُ البرد بقسوةٍ حتَّى تبلغ درجة الحرارة 4-5 درجة تحت الصفر، مثلها مثل برد الأجزاء الشمالية مِن ألمانيا. وعليك أيُّها القارئ أنْ تتخيَّل معاناة الزنوج الأسرى الذين يكونون عُراة تماماً لا غطاء عليهم، ينخرهم الجوع والتعب، ويسعون لتخفيف معاناتهم مِن البرد بإيقاد النيران الضئيلة بسبب قلة

الحطب الموجود، مِمَّا يجعلُ مِن المستحيل تدفئة كُلّ هؤلاء التعساء وحمايتهم مِن البرد. في الصباح سمعنا صراخ ونحيب الأطفال وبكاء الجرحى وأنين المرضي، وقد وجدنا حدوثَ شيءٍ رهيب عندما رأينا طفلاً مَيِّتاً مِن التيبس بالبرد على صدر أمه. وحقيقة أنَّ الزنوج في قراهم لا يسترهم شيء مِن القماش للوقاية مِن البرد، لكنهم في الليل ينامون داخل الأكواخ أو يسترون أنفسهم بلبس جلود الحيوانات. لكن لا يتمُّ توفير أي مِن ذلك لهم أثناء سير الحملة. والذين تُوضَع الشِّعَبُ على أعناقهم لا يستطيعون النوم بالليل مِن شِدّة الألم، لأنَّ الشِّعْبَة تضغطُ على رقابهم وتعيقُ حركتهم. ولا تجد أيَّاً منهم لا يعاني. لقد وضعتْ امرأةٌ كانتْ في أشهرها الأخيرة مِن الحمل مولودها بالليل دون معاونة أحد، وكل ما أُعْطِيتْ له هذه البائسة مِن مساعدة كان قطعة قماش لتلف بها مولودها، لكنها كانت ضعيفة البنية، لذا ساعدتها حتى وصلتْ سالمة إِلى الأُبَيِّض.

أنا أجدُ نفسي غير مؤهل لرواية كُلَّ هذه الأهوال التي شاهدتُها في الأيَّام القلائل التي التحقتُ فيها بالحملة، وإنَّ الكلمات لتعجز أنْ تُعَبِّرَ أو توصف معاناة الرقيق، وليس هناك قول يمكنُ أنْ يُعَبِّرَ عمَّا يشعر به الإنسان مِن ألم، إلَّا إذا شاهد هذه القسوة بنفسه. لقد عملتُ كل ما في وسعي لأجل أنْ أَجعلَ القوات والجنود غير النظاميين مِن الأهالي الذين يصاحبون الحملة، أَنْ يكونوا أكثر عطفاً. وبالفعل أقنعتُ مجموعةً منهم، مثل الشخص الذي حمل الطفل الذي لم يتمكَّن مِن السير، لأنَّ قدميه لا تتحملان الرمال الحارة، فأردفه معه على ظهر فرسه، وكذلك ليريح والدته مِن حمله بقية اليوم. لكن رغم ذلك فإنَّني لم أستطع إيقاف القسوة المستعملة ضدهم، فقد أُجْبِرتُ على مشاهدة جندي يَنْكَّبُ بمؤخرة بندقيته على رجل تأخَّر في السير حتى طرحه أرضاً، وقد كان جريحاً أُصيبتْ قدماه أثناء مشاركته في معركة الحصار، والتهب جرحه وعَمَّ ألم الجرح كُلَّ جسده؛ لذا لم تطاوعه قدماه على السير. أخيراً فقدتُ السيطرة على نفسي لهذا المشهد الوحشي، فاستللتُ

سيفي وهممتُ بتقطيع هذا البربري غير الإنساني، لولا أنْ تدخل خادمي وقبض ساعدي وانتزعَ السيف ومسدسي مِنِّي، ولم يرجع لي السلاحِ إِلَّا بعد أنْ هدأتْ انفعالاتي. في الأخير عند اليوم الثامن وصلتْ الحملةُ الأُبيِّض.

إِنَّ توزيع الرقيق هو الشيء المُهم كما أوضحتُ في الفصل السابق. وهو السبب الرئيسي للقسوة وعدم الرحمة التي كان يقوم بها الجنود تجاه الرقيق. لأَنَّهم يدركون أنَّ هؤلاء الرقيق هو ما يُدفَع لهم مقابل مرتباتهم المتأخرة، وهم يقومون ببيعهم لتجار الرقيق. وعلاوة على ذلك، في بعض الأحيان يموت الرقيق قبلِ التخلص منهم بالبيع، فتقع الخسارة علَى الجندي ويكونُ ما عليه عندها إِلَّا الاعتماد على هِبات الحكومة الشهرية؛ لذا فإِنّ الجنود يفعلون كُلّ ما في استطاعتهم للتخلص مِن العجزة وذوي العلة مِن الرقيق. ولكن الشيء المهم أنَّ أيّ أحد مِن الجنود لا يُسمَح له بأخذ رقيق عِوَضاً عن راتبه قبل الوصول للأُبيِّض. إِنَّني مقتنعٌ بأنَّه إذا كانت رواتب الجنود في بلاد السودان تُسَلَّم لهم نقداً مثل المديريات الأخرى، فإِنَّ الرقيق سيء الحَظ ما كان له أنْ يُعامَل هذه المعاملة غير الإنسانية. وأشكر ملكة إنجلترا الملكة فكتوريا التي شملتْ بعين العطف هذه المناطق البعيدة، وسمعتْ صراخ هؤلاء السكان المغبونين المضطهدين، وقامتْ بإجراءات جادة فرضت عقوبات على صيد الرقيق الذي يتمُّ بواسطة محمد علي باشا، ووضع حدٍّ لها. مِمَّا يُمَكِّن هؤلاء الزنوج البؤساء، والذين كانوا على مَرِّ السنين يرزحون تحت هذا القدر المرعب، أنْ يعيشوا بعدها في سلام وهدوءٍ. وإِنَّني أصلي لأجل أنْ يتمَّ تحريرهم، ومِن أجل أَلَّا تعجز جهود الملكة المتمسكة بإنسانيتها مِن مساعدتهم.

(18)

معلوماتٌ تختَصُّ بمجرى بحر أبيض، وآثار كردفان القديمة، وباندا نيام نيام

أثناءُ إقامتي فِي كردفان أُتِيحتْ لِي فرصة الاتصال ببعض الأشخاص مِن الذين سافروا إلى أجزاءٍ كثيرة مِن جنوب شرق وجنوب غرب أفريقيا. ووجدتُ أَنَّ في مقدورهم تزويدي بمعلوماتٍ حولَ نقاط كثيرة كانتْ مَوْضِع شكٍّ بالنسبة لي. هؤلاء الأشخاص بعضهم مِن الجلَّابة، وبعضهم مِن التكارير. وكان هدفي الأساسي مِن هذه الاستقصاءات هو تملُّك معلوماتٍ حقيقية عن مجرى النيل الأبيض. ولكني لم أتمكَّن مِن جمع المعلومات الكافية بسبب ضيق الوقت، والسأم، وقُرْب انتهاء مقامي في كردفان. إنَّ الرجال الذين سافروا في البلاد على النهر كانوا دائمي الانشغالَ بالمهام التي أتوا مِن أجلها، وأمَّا موضوع النهر فإنَّه لا يعني لهم شيئاً كبيراً يمكنُ أنْ يُستدَلَّ به. أخيراً استقرَّ اعتمادي على زنجي مِن رنقا تعرَّفتُ به، وكان قد أمضى ثلاثةَ سنواتٍ في أوروبا ثُمَّ عاد إلى وطنه. أثناء حديثي معه اقتنعتُ أنَّه يعرفُ الكثير عن مواطنيه، بجانب أنَّه لَم يكن مِن الذين يضخمون الأمور بالكذب، كما يفعلُ بقية الأهالي بلا استثناء. هذا الرجل زار أرض الآباء، وقام برحلات لبعض البلدان، ولذا فإني أعتقدُ أنَّه خير مَن يمكنُ أنْ يُستخدَم لجمع المعلومات عن مجرى النيل الأَبيض. وكذلك وجدتُه يتمتعُ بذكاءٍ وله القابلية للتعامل. مِمَّا جعلني آخذ عنه الوصف الذي أبحث عنه، والذي يكون وصف جيِّد يمكنُ الاعتماد عليه.

إِنَّ بحرَ أبيض أو النيل الأبيض يجري عبر رنقا، وهي بلاد تقع جنوب

دارفور وتدفع لمملكة دارفور الجزية. ويُقَال إنَّ هذا النهر واسعٌ جداً، ولكنه ليس عميق ويمكنُ أنْ تخوضه الناس والماشية. وفي الفصول الجافة لا يصلحُ للملاحة لوجود أماكن ضَحْلة فيه لا تكفي لحمل المركب، ولذا نجد الأهالي يفضلون الزوارق الصغيرة. ومِن رنقا يتجه النهر إلى بلاد البقَّارة ثُمَّ لبلاد الجانقي أو دينق أو الدينكا، حيثُ يُقال إنَّ النهر هناك ينضمُّ إليه رافد نهري لم أتمَكَّن مِن الحصول على معلومات عنه. وبعد أنْ يعبرَ بلاد جانقي والشلك، يُقَال إنَّ بحر أبيض يدخل سنار حيثُ يلتقي بالنيل الأزرق قُرب الخرطوم. ولما كنتُ مهتماً بمعرفة المزيد عن مجرى النهر قبل أنْ يصل رنقا، فإنَّ صديقي الزنجي قدَّمَنِي لبعض معارفه مِن أهالي بعض البلدان مِمَّنْ جابوا النهر بالمراكب، ومِن هذه المصادر نقلتُ معلوماتي. إن النهر يجري مِن بنقا، وانقا، قولا، باندا. ولقد تحدَّثتُ مع شخصين أو ثلاثة في هذا الموضوع، اثنان منهم مِن أهالي برنو، والثالث مِن أهالي بنقا لكنه أقام خمسة سنوات في تلك المناطق. وقد اتفقوا جميعاً النهر يجري عبر بلاد تُسَمَّى في لغتهم بحر الغزال، وهو نهرٌ مياهه صافية وشفافة مِثل مياه الينابيع. ورغماً عن ذلك فإنَّهم كلهم لم يتمكنوا مِن تحديد موقع منبعه، ولكن اجتمع رأيهم أنَّ مجراه يتجه صوب باندا حيثُ يُسَمَّى النهر الأبيض، وهو اسم مشتق مِن اللون الذي مصدره التربة التي يجري فيها. وقد حصلتُ على معلوماتٍ عن أحد الآثار المصرية التي تقف شاخصة في الصحراء بين كردفان ودارفور في كاب بلول، وهو موقع على مسيرة يومين من ككشبا Caccia على حدود كردفان، حيثُ يوجد شجر الدوم على جوانب الحطام والآثار، وفي فصل الجفاف يَبْعُد الموقع حوالي ثمانية أميالٍ مِن الموقع الأثريّ. وقد استقيتُ هذه المعلومات مِن جلَّابي كان عائداً مِن دارفور، واُضطرّ أنْ يتحاشى مجموعة مِن قُطَّاع الطرق فعسكر في كاب بلول، وقد كان قائد جَماله أحد الكبابيش، والذي له معرفة جيِّدة بهذه المنطقة، لأنَّهم سابقاً كانوا دائماً ما يرعون فيها. وأعتقدُ أنَّ هذا الموقع يحوي بقايا آثار تاريخية مصرية، لأنَّ التاجر الجلَّابي وجدَ تشابهاً بينها وبين تماثيل الأقصر التي يعرفها جيداً. فالأهالي يقولون

إنَّ هذا الآثار تتكوَّن مِن مدخل كبير وحوائط مرتفعة، بجانب وجود بعض التماثيل مِن الحجارة، لكن أغلب هذه الآثار اختفتْ تحت الرمال. وقد عرَّفَنِي الجلَّابِيّ ببعض سائقي الإبل الذين يعرفون المنطقة المجاورة لهذه الآثار، وكنتُ قد عزمتُ على زيارتها بنفسي، لكن الظروف التي تَلَتْ ذلك لم تمكِّنني مِن الإيفاء بالتزام زيارتها بنفسي.

يُقَال إنَّ الجبال التي تقع بالقرب مِن منطقة بندا، يسكنُها جنسٌ مِن البشر مِن ذوي الأخلاق غير المتحضرة، ومحبي الحروب والنهب، ونجدهم معادون للقبائل الزنجية المجاورة لهم ويشكِّلُون لها إرهاباً. وهم بيض البشرة مثل العرب في مصر، ومتناسقو الملامح متينو البنية، ولهم عيونٌ كبيرة زرقاء يطلق عليهم الزنوج اسم بندانام، ويُقال إنَّهم عنصر مِن اليهود. ويُقَال إنَّ بناتهم مِن أجمل النساء، ويُقَال إنَّ سلطان بندا كان يقوم باصطياد الفتيات الجميلات لهذه القبيلة، وأنَّه لدى الفضل سلطان دارفور بعضاً مِن نساء هذه القبيلة وسط حريمه مِن النساء.

(19)

فِي مملكة دارفور

تعتبرُ مملكة دارفور أكبر قوةٍ فِي وسط أفريقيا، ولكن ما يدور داخلها غير معروف البتة، فهي تتكوَّن مِن عُدَّة مديريات بعضها جزء مِن المملكة، والبعض يتبع لها. والممالك هي: دارفور، رنقا، شالا، قولا، بنقا. وبنقا هذه استولى عليها سلطان دارفور عام 1833م، وهي تضمُّ المديريات الآتية: باقرما، كوكو، نيرو. وتعد نيرو الأصغر والأبعد بينهم، وتضمُّ القبائل: برتي، تمروكه، برقد، قمبر، فلاتة، فروقو، باندا، قمر، زغاوة، بيقو، يابوسا، تاما، مساليت. والميدوب هي مملكة صغيرة فِي السابق، لكن سلطانها الحالي لا يتعدَّى سلطة قاضي شيخ فِي القرية، ورغم أَنَّه ليس له سلطة لتنفيذ أوامره، إِلَّا أَنَّه يُطَاع ويُحتَرَم ككبير لَلقرية. كُلُّ هذه الدويلات خضعتْ لسلطان دارفور بالسلاح والقوة. فسلاطينهم يتوارثون مُلْكَ بلادهم، ولكنهم يتبعون لدارفور. والجزية المفروضة عليهم عبارة عن العاج وقرن الخرتيت والنحاس الأبيض والذهب والفضة. فسرُّ العسكر أو القائد المكلَّف بجمع الجزية مقره فِي شاتا أو دوليب، ويتمُّ منهَا تحضير القوات العسكرية لذلك. وهم يقومون بجمع الضرائب بأساليب قاسية. وقواتهم تتسلَّح بالرماح والأقواس والسهام والدرقات، أَمَّا الفَرسان فإِنَّهم يركبون على الخيول القوية ومسلحين بالسيف ذا الحدين المستورد مِن ألمانيا. وبعض الخيول تُكْسَى بالدروع، مثل خيول الرعاة القدامى والتي يُؤتى بها مِن الجزيرة العربية. فهذه الدروع أسعارها غالية عندهم، ويمكنُ إذا ما تمَّتْ صناعتها فِي ألمانيا أنْ تكلِّفَ ربع قيمتها التي تُبَاع بها بينهم. أيضاً فإِنَّ لقواتهم عدد 400 بندقية مسكيت مختلفة الأحجام والأشكال، يتمُّ تصنيع طلقاتها مِن النحاس.

بمدينة الفاشر عاصمة دارفور تُوجد أربعة مدافع منصوبة. ويقعُ جبل مَرَّة الشاهق الارتفاع، والحصن الطبيعي المنيع للفور على مسيرة يومين مِن الفاشر. ومياه الجبل لا تنقطعُ، وإذا تَمَّ حصاره فإنَّه يمكنُ أنْ تزرعَ به ما يكفي مِن حبوب لاستهلاك حامية كاملة. وقد قام جيش دارفور بعُدَّة مغامرات لغزو باندا، رنقل، وبيقو، لكنه كان دائماً ما يُهزَم ويتكبَّدُ خسائرَ فادحةً. محمد الفضل هو سلطان دارفور الحالي، وهو حاكمٌ مُستبدٌ يحكمُ البلاد ببربرية شديدة. ويرهبُ الناس، ويحافظ على عرشه عبر حراسته بجيش غير نظامي يتبعُ له. وأخوي السلطان أبو مدين وإسحاق محبوبين مِن أهالي السلطنة؛ لذا فإنَّه يكرههما بشدة، ويعاملهم بخشونة تفوق معاملة الرقيق. ولمَّا تمادى السلطان في قسوتِهِ تجاههما، وصارتْ فوق احتمالهما، قاما وبمعاونة أصدقائهما الخلصاء بتدبير أمر الهروب إلى كردفان، ولكن أمرهما انكشفَ؛ فأمر السلطان الفضل بملاحقتهما. وقبضَ على الأخ الأصغر في حدود كردفان بعد محاولةِ مقاومةٍ لاعتقاله، وعندما جُلِبَ لأخيه الفضل قام بفقع عينيه. أمَّا أبو مدين فإنَّ سرعة حصانه أنجته مِن الأسر، لكنه وصل كردفان بعد إصابته بعُدَّةِ جراحٍ بليغة أثناء دفاعه عن نفسه، ممَّا تركَ جروحاً على رأسه، والآن هو تحت حمايةٍ محمد علي باشا الذي خصصَّ له مرتباً شهرياً لمعيشته. عندما زار محمد علي مناجم الذهب في فازوغلي بسنار، استدعى إليه أبا مدين، ووعده أنْ يُعَيِّنَه سلطاناً على دارفور بعد أنْ ينهي زيارته. مقابل ذلك فإنَّ على أبي مدين أنْ يدفعَ جزيةً لمصر عبارة عن ألف حصان وعاج ونحاس أبيض، ولم تحدَّد كمية الجزية، لكنه يلتزم بأنْ يكون جاهزاً لإرسالها إلى مصر حالما تُطلَب منه. لكن التساؤل هو هل يمكنُه أنْ يعتلي عرش مملكة دارفور كما وعد وتتحقق أمانيه؟ إنَّ الأوروبيين سوف يجنون الكثير مِن هذا التغيير في الحكومة، لأنَّه سوف يفتح معبراً في جزءٍ لم يُكتشَف مِن وسط أفريقيا. وكذلك هناك خير كثير سوف يعمُّ بسبب شخصيته الجَيِّدة، فلقد أخبرني شخصياً عُدَّة مرات أنَّه على استعداد لاستقبال أي أوروبيٍّ بسواعد مفتوحة إذا أراد أنْ يخدم في رفاهية وتحضر مواطنيه في دارفور. وهو شخصٌ طَيِّبَ نبيل الشخصيةَ.

أثناء إقامتي بالأُبَيِّض تَمَّ تقديمي للسلطان أبو مدين للتعارف، وقد استقبلني بكُلِّ ترحابٍ واهتمام، وكنتُ مِن جانبي أمرُّ عليه يومياً لقضاء عُدَّة ساعات معه. وفِي إحدى المرات كانتْ معي بندقية على هيئة عصا للتوكؤ، وقد كان أبو مدين يتوق لامتلاكها خاصة عندما تعلَّم استعمالها، وبناءً على طلبه لبيت رغبته تعبيراً عن احترامي له وأهديتُه البندقية وشرحتُ له كيفية استعمالها في الحَمْل، ولفتُ انتباهه خاصة لمقدار الكمية التي تسعها مِن مسحوق البارود، وطريقة حشوها به. لكن بعد زمنٍ وجيز مِن ذلك خرج أبو مدين للصيد في الخلاء، فحشا البندقية فوق طاقتها، مِمَّا جعل الضغط يفجر العبوة ويُحدِثُ انفجاراً أصاب يدَه اليسرى. فما كان مِن مساعديه إلَّا أنْ ألقوا اللوم عليَّ، وطلبوا مِن السلطان مُعاقبتي. فما كان مِنِّي إلَّا أنْ هربتُ وأخفيتُ نفسي في بيت أحد أصدقائي الفقراء، وأصبحتُ عنده بمأمَنٍ مِن الخطر. لكن أثناء اختفائي علمتُ أَنَّ الديوان الحكومي بالأُبَيِّض اتخذَّ إجراءات قانونية ضدي، وقد قام أبو مدين بالدفاع عني ومزَّق أوراق الادعاء ضِدِّي، وقال لهم إنَّ بالم صديقي، وهو بريءٌ فقد حذَّرَني مِن قبل حول كيفية استعمالها، وما حَدَث هو قضاء وقدر مِن الله. لكنَّني بعد أنْ أمضيتُ عشرةَ أيَّام في الكوخ المظلم والكئيب لصديقي، فضَّلْتُ أنْ أواصل هروبي رغم علمي أَنَّ أبو مدين لا يَكِنُّ لي أيّ عداءٍ. عندها توجَّهت باتجاه النيل الأبيض، ومِن ثَمَّ لسنار حتى وصلتُ بربر، وعبرتُ الصحراء إلى مصر. بعد عبوري الشلال الأوَّل تبدَّدَ قلقي فسرتُ يوماً كاملاً على ضفة النيل، وفِي سوهاج سمعتُ زنجياً مِن مسافة قريبة يناديني باسمي، فالتفتُّ إليه فعرفَتُ أَنَّه أحد الرقيق الخصيان المرافقين لأبي مدين. لكن ظهوره المفاجئ هذا أثار شكوكي مِمَّا جعلني أهرع إلى قاربي وآخذ سلاحي لأحمي به نفسي عند الضرورة. لكن الخصي الرقيق طمأنَني وطلب مِنِّي أنْ أتبعه، وذكرني أَنَّه مِن الذين يمكنُ أنْ أثقَ بهم. وقمتُ عندها بالذهاب وراءه حتَّى مركب السلطان حيثُ خرجَ لاستقبال وصولي بكُلِّ وُدٍّ وترحاب. بعدها أمر السلطان بتحويل كُلَّ متاعي إلى قاربه الخاص حتَّى نسافر سوياً، ووصلتُ

برفقته إِلى القاهرة التي كان عندها فِي استقباله 12 رجلاً مِن الرجال الذين وفرَّهم له محمد علي باشا ليستعين بهم فِي غزو دارفور، ثُمَّ يقوم بإرجاعهم لاحقاً.

رقم الإيداع:
2019/1249م